

حُسن الاستماع

حُسْنُ الاسْتِمَاعِ



كشف المعاني الخفية الكامنة
وراء الحديث اليومي

الدكتور روبرت هاسكيل

تعريب: مها حسن بحبوح

مكتبة العبيكان

Original Title:

DEEP LISTENING

Copyright © 2001 by Robert Haskell

ISBN 0-7382-0423-4

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition Published by
Perseus Publishing is a Member of The Perseus Books Group

حقوق الطبعة العربية محفوظة للبيكان بالتعاقد مع سايمون آندشوستر في نيويورك

© البيكان 1424هـ - 2004م

الرياض 11595، المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص. ب. 62807
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1424هـ - 2004م

ISBN 9960 - 40 - 400 - 5

③ مكتبة البيكان، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

هاسكيل، روبرت

حسن الاستماع كشف المعاني الخفية الكامنة وراء الحديث / روبرت هاسكيل؛

مها حسن بحبوح. - الرياض، 1424هـ

408 ص؛ 14 × 21 سم

ردمك: ISBN 9960 - 40 - 400 - 5

1 - الأخلاق الاجتماعية 2 - السلوك (علم نفس)

أ. بحبوح، مها حسن (مترجم) ب. العنوان

1424 / 3405

ديوي: 2، 177

رقم الإيداع: 1424 / 3405

ردمك: ISBN 9960 - 40 - 400 - 5

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the publishers.

المحتوى

تمهيد	7
كلمة شكر	9
مقدمة	11
1. الإصغاء إلى فريق الموتى المُمتنّين تسجيل لحفلي موسيقي حي: تعريف حُسن الاستماع	33
2. زلّات لسان أم «زلّات» أفكار: كُنْ جاداً، يا سيدي الرئيس	77
3. حُسن الاستماع في العلاقات: ما لا يقوله لك الأصدقاء وزملاء العمل وأرباب العمل	119
4. اكتشاف حُسن الاستماع: ما لم يدركه فرويد، لكنه كاد أن يدركه	153
5. تدابير احترازية، أخلاقية وقانونية	195
6. الأرقام في الحديث: التفكير عبر الأعداد	221

7. الجنس والنوع: النساء تحت تأثير السيطرة 247
8. هل المقصود «شحيحة»؟ ...
- توضيح القضايا العرقية 279
9. التصرف العميق: تجاوز الخطوط الحمراء؟ ... 325

تمهيد

هذا الكتاب هو حصيلة سنوات من الأبحاث التي كنت أقوم بنشرها في مجلات علمية. وقد حان الوقت لأتيح لجمهور أوسع الاطلاع على نتائج تلك الأبحاث.

هناك كتب معينة وأشخاص معينون يمكن لهم أن يشكّلوا مقوّمات مهمة في تطوير اهتمامات الفرد الشخصية والمهنية. وأنا أدين لصديق قديم من أيام الدراسة الثانوية، هو ديف داير، جعلني - ولعله دون أن يعي ذلك - أبدأ في السعي وراء فهم العقل اللاواعي. بعد الانتهاء من المدرسة، كنا نعمل أنا وديف في الصحيفة المحلية في باث، في مين، وهي المدينة التي نشأنا فيها. أثناء قيامنا بإحصاء الأوراق وتنظيف حبر الطابعات وكنس الأرض، كنت أقوم بصقل آرائي الفلسفية بشأن «المعنى» والعقل. في أحد الأيام، أعطاني ديف كتاباً عن التنويم المغناطيسي، الذي كان في تلك الآونة حكراً على فئة قليلة من الأشخاص. كان ذلك أول كتاب قرأته من أوله إلى آخره، والأهم من ذلك، أنه جعلني أبدأ البحث بشكل مدروس أكثر في موضوع «المعنى».

خلال قيامي بالبحث والتنقيب عثرت على كتاب في مكتبة المدينة لمؤلف كنت قد سمعت به بشكل مبهم في تلك المرحلة: وهو سيغموند فرويد. كان ذلك الكتاب هو رائعته «تفسير الأحلام»، الذي يعالج، موضوع «المعنى». ولكن خلافاً للمعتقد الشائع، لا يقتصر موضوع الكتاب على شرح معنى الأحلام، بل يعالج الكيفية التي «تُعني» بها اللغة والأسلوب الذي يعمل به العقل. إذا تغاضينا عن فكرة أن المؤلف كان ينزع باتجاه التحليل النفسي، فإن ذلك الكتاب أثر بي تأثيراً عميقاً.

هناك أيضاً صديقي الحميم لأكثر من عشرين سنة. الدكتور آرون غريسون، الذي كان يُطلعني على كتاباته وآرائه المعمّقة المتقدمة ذكاءً، وعلى ملاحظاته البارة المتعلقة بما يعنيه الناس «فعلاً» من خلال الأحاديث والتفاعلات ضمن حياتنا الاجتماعية المشتركة. وقد أمدّني آراؤه المشجعة - وإن كانت ناقدة، بشأن الأسلوب الذي اتبعته في هذا الكتاب - بأفكار كثيرة خلال السنين، وبخاصة فيما يتعلق بتفسيرتي للإشارات العرقية والعنصرية اللاواعية أثناء الحديث. وأملّي أن يُمثّل هذا الكتاب بالنسبة لشخص ما، ما مثله كل من ديف داير وسيغموند فرويد وآرون بالنسبة لي.

(2) س. فرويد، علم النفس المرضي في الحياة اليومية (نيويورك: نورتون،

كلمة شكر

أود التعبير عن الامتنان لكثير من الأشخاص الذين تركوا بصماتهم على هذا الكتاب بشكل أو بآخر. يتوجب علي أولاً أن أعبر عن تقديري العميق لصديقي القديم وزميلي الدكتور آرون غريسون، الذي قضيت وإياه، لدى البدء بوضع مواد الكتاب، ساعات طوال من النقاش. ورغم أنه كان ناقداً لا تقدر ملاحظاته بضمن، إلا أنه كان لا يتوقف عن التشجيع.

كما أود أيضاً أن أشكر الأشخاص الكثيرين الذين أسهموا بتقديم الأمثلة. ومنهم زميلي السابق جون هيبس وسارة لوك وكلوديت هاسكيل وابنتي ماليا. وأقدم الشكر أيضاً لديانا لاب لمساعدتها ولقرجينا لوك لقيامها بتصحيح مسودات الكتاب بعيون «فاحصة».

وأخيراً، أود أن أشكر جميع طلابي السابقين والأشخاص الآخرين الذين لم يدر بخلدهم أنهم كانوا يمدونني بأمثلة عن الكلام العميق.

مقدمة

يمثل كل من هذا الكتاب وكتابي السابق «بين السطور: المعنى اللاواعي في الحياة اليومية»⁽¹⁾ وجهة نظر جديدة حول الكيفية التي تقوم عقولنا بواسطتها، انطلاقاً من المشاعر الخفية اللاواعية، بإيجاد معان خفية في الأحاديث اليومية، أي ما أدعوه أنا بالإصغاء العميق للكلام العميق. والإصغاء العميق هو أيضاً طريقة عملية محسوسة للتعرف إلى المعنى اللاواعي يمكن للمرء أن يتعلمها، بشكل أولي، خلال فترة أقصر من الفترة التي تتطلبها قراءة هذا الكتاب.

ماذا يعني، مثلاً، أن يبدأ صديق أو مدير - بعد انتهاء حفل أو اجتماع عمل - برواية قصة عن أطفال يتصفون بنشاط مفرط، وهو موضوع يبدو كما لو أنه برز دون مناسبة ودون أن تربطه صلة مع المواضيع التي كان يجري الحديث فيها سابقاً؟ ... ماذا يمكن أن تعني هذه القصة؟ ... أعني في اللاوعي؟ ... وكيف يتسنى لك إدراك أنها قد تحمل معنى أكثر عمقاً؟ ...

(1) ر. ي. هاسكيل، بين السطور: المعنى اللاواعي في الحياة اليومية (كامبردج، ماساتشوستس: بيرسيوس بوكس، 1999). انظر أيضاً www.perseuspublishing.com/authors.html at Perseus Books, web page.

نحن جميعاً نود لو نجد وسيلة نكتشف بواسطتها ماهية الشيء الذي يقوله الناس أو يفكرون به فعلاً في أوقات كهذه. هذا الكتاب قد يساعدك على القيام بذلك. وهناك «ميزة إضافية»، وهي أن الأمثلة الكثيرة التي تصادفها أثناء قراءتك للكتاب تحمل بدورها سحراً .

الآن، ماذا لو عرفنا أن الأشخاص الذين حضروا الحفل أو الاجتماع المذكورين كانوا ينتقلون في أحاديثهم من موضوع لآخر بسرعة ودون توقف، دون أن يتمكنوا (أو يرغبوا) في التركيز على أي شيء؟... ألن تساعدك معرفة ذلك على فهم المعنى الخفي الكامن وراء حديث أو قصة تتعلق بأطفال مفرطي النشاط؟... الجواب، يجب أن تساعدك. إن القصة التي تحدث عن أطفال مفرطي النشاط هي في الغالب ملاحظة لا واعية تُعبّر عن رأي الشخص بالحفل أو بالاجتماع: إنه أشبه ما يكون بالتواجد مع مجموعة من الأطفال المُفرطي النشاط.

سيصحبك هذا الكتاب في رحلة أسرة لم يسبق لأحد أن قام بها داخل مجاهل العقل لترى الأساليب التي نتفنن في استخدامها يومياً خلال أحاديثنا للتعبير عن أفكارنا ومشاعرنا الخفية. ويبدو الأمر كما لو أنه شبكة من المعاني نسجت أعداد لا تحصى من الأصوات التي تتلاعب بالألفاظ، والعبارات التي تحمل معاني مزدوجة، والاستعمالات المجازية اليومية الأخرى للُّغة، وزلات اللسان التي تشبه الزلات الفرويدية. هذه الرحلة ستجعل من زلات اللسان الفرويدية تبدو أشبه بلعب أطفال.

يُعنى العلم بفك رموز الطبيعة، بالمعنى الحقيقي للكلمة. والمثال الأبرز هنا هو فك رموز ال د. ن. آ. كما وأن فهم اللغة اليومية هو في واقع الأمر عملية فك رموز. أطلق أحد المحررين في مجلة على كتابي السابق اسم «نظام فك رموز الحديث»⁽²⁾. ينطبق ذلك أيضاً على هذا الكتاب. وكما أوضحت في الفصل الخامس، فقد ساعدت تجربتي في فك رموز الرسائل «العدوة» في المخابرات العسكرية الأمريكية في تهيئتي للقيام «بفك رموز» المعاني اللاواعية.

ومما لا شك فيه، أن ما يجعل الإصغاء العميق ممكناً هو الكلام العميق حول المعنى اللاواعي، فالكلام العميق والإصغاء العميق هما وجهان لعملة واحدة. يقدم هذا الكتاب اللغة والمفاهيم وبقية الأدوات الأخرى البسيطة التي ستسمح لك بسماع ما لم تسمعه من قبل. ثَقُ بأنك ستشعر، غالباً، بالدهشة لما تسمع. فأنا منذ لحظة اكتشافي للكلام العميق، قبل عشرين سنة مضت، ما أزال اشعر بأنني أسبر سِحر نتائج الإصغاء العميق للكلام العميق.

إن مضامين النتائج التي توصلت إليها، والمتعلقة بالكيفية التي يعمل بواسطتها العقل واللغة، تشير، بحد ذاتها، البلبلة في العقل - وأنا لا أبالغ هنا، كما أن القصة المتعلقة بالأصول التي جاءت منها تلك النتائج تُعتبر واحدة من القصص الأخاذة في

تاريخ علم النفس (انظر الفصل الخامس). ورغم أن بعض أحاديث الكلام العميق، الموجودة في هذا الكتاب، تحمل بطبيعتها، سمات فكاهية، إلا أنني تعمّدت صياغة الأحاديث الأخرى في قالب طريف بهدف التسلية. لكن لاتدعوا تلك الطرافة تحجب الحقيقة عن أنظاركم، أنتم تشهدون هنا أعمق عمليات العقل البشري التي تم التعرف إليها حتى الآن.

بالإضافة لما سبق، فإن الرحلة التي سأصحبكم فيها ستكون أيضاً مألوفة على نحو مبهم نوعاً ما وذلك بالنظر إلى تجاربكم السابقة في مجال التوريات وزلات اللسان. الإصغاء العميق هو التعرف إلى التوريات وزلات اللسان وقد كُتبت بحروف بارزة، إن صح التعبير، هو التعرف لا إلى المعنى المزدوج لكلمة ما أو لتعبير ما فحسب، بل إلى الجمل الكاملة والقصص الكاملة ذات المعاني المتطابقة. كما وأن الرحلة ستكون مألوفة نوعاً ما. لأننا جميعاً سبق وقمنا - ولو بشكل غير واع - بالإصغاء العميق لكلام عميق من هذا النوع.

لدى قراءة هذا الكتاب، ستقومون بوضع ما تعرفونه مسبقاً ضمن اللاوعي في متناول العقل الواعي. فيما يخص هذه الفكرة، يقول الفيلسوف الإغريقي أفلاطون، أننا لا نتعلم شيئاً جديداً، بل نقوم، وبكل بساطة، بالتعرف إلى ما نعرفه مسبقاً عند مستوى عميق داخل النفس⁽³⁾. بالتالي، وبما أن هذا

(3) حواريات أفلاطون العظيمة، ترجمة و. ه. روس (نيويورك: نيوأمريكان

الكتاب يتحدث عن المشاعر الإنسانية وعن كيفية استخدامنا للكلمات وأصوات اللغة اليومية لدى الكلام، فإن موضوعه لا يتعلق بتعلّم شيء جديد وغريب (رغم أنه يشمل ذلك أيضاً) قدر ما يتعلق بالتوصل إلى إدراكٍ يثير الدهشة.

دعوني أشير هنا إلى ما لا يشملته تعبيراً الإصغاء العميق والكلام العميق. هناك ظروف يعتمد الناس فيها ألا يتحدثوا بطريقة مباشرة حيث يلجأون بشكل واع لاستخدام لغة مجازية أو للتلميح. سأكون واضحاً: أنا لا أتحدث عن ذلك في هذا الكتاب. كما أنني لا أتحدث هنا عما أصبح يُعرف بـ «الحديث المُرمّز» كما في تعبير «لا شك بأنكم تعرفون طبيعتهم»، مثلاً، حيث يعرف الجميع من «هم» وما هي «حقيقة» ما يقال «عنهم». كلا، أنا لا أتحدث فقط عن الحالات التي يتحدث الناس فيها بطريقة غير مباشرة بشكل واع، أو عن الحالات التي يلجأون فيها لاستخدام تعابير مُلَطّفة. أنا أتحدث عن المعنى الخفي الذي يغيب حتى عن وعي المتحدثين أنفسهم. أنا أتحدث هنا عن المعنى العميق، عن إخفاء المعاني داخل أَلغاز عميقة الغور.

إن دراسة الحديث اليومي هي أمر في غاية الأهمية. فيما يتعلق بمعظمنا هناك حقيقة واحدة لا لبس فيها: نحن نتكلم كثيراً. ولكن هل نعي المعنى الكامن خلف كلامنا؟... إن الأبحاث التي جرت في مختلف الميادين تشير إلى أننا لا نعي هذا المعنى. نحن نأخذ كثيراً من الأمور في حياتنا اليومية على

أنها مُسلّمات، ويبدو كما لو أننا نعي بشكل جزئي فقط كثيراً من المعاني الخفية في أحاديثنا، كما لو أننا نتحدث ونحن نيام. هناك أوقات كثيرة لا نعرف فيها عما نتحدث، أو عما يتحدث الآخرون، قد يشبط ذلك من عزائمتنا لكنه يبدو واقعاً.

عندما نقوم بأنشطتنا اليومية، يشارك معظمنا في أحاديث اجتماعية متنوعة، مع عائلتنا وأصدقائنا وزملائنا في العمل. لكن هناك كثيراً من المعاني الخفية التي لا نعيها في تلك الأحاديث. هنا يتعين علي القول بأن الأحاديث اليومية والحكايات الأخرى المروية شفاهاً قد تبدو أساساً متعارفاً عليه لوضع ادعاءات تتعلق بالبنية العميقة للعقل. لكنها ليست كذلك، فرغم أهمية الكلام بالنسبة للمخلوقات البشرية، إلا أن مغزى اللغة المحكية لم يُفهم بعد بشكل وافٍ.

هناك موضوعات عدة لا تجري إثارتها بهدف النقاش إلا أثناء استراحات شرب القهوة وبعد انتهاء الاجتماعات، أي عندما تسود أحاديث من نوع «التداعي الحر free flowing». بعض هذه الموضوعات يثير اهتمامنا وقد نتوقف عنده لبرهة، لكن بعضها الآخر لا يثير نفس الاهتمام. والسبب؟... يعزو معظم الباحثين هذا النوع من «الحديث العشوائي» إلى ما يشبه عملية طحن دورانية هدفها مساعدة الأعضاء على التعارف. ولكن هل يعتبر القفز من موضوع لآخر، من حيث الواقع، أمراً عشوائياً؟... الجواب باختصار هو أنه ليس بالأمر العشوائي. أما الجواب الأكثر تفصيلاً فهو يشكل موضوع هذا الكتاب.

إذا أصغينا بأذن مدربة إلى كلمات وتعابير معينة وإلى نبرات الصوت التي يستخدمها الناس، استطعنا أن نصغي بعمق للمشاعر والأفكار الدفينة التي يخفيها هؤلاء - حتى عن أنفسهم في غالب الأحيان. والإصغاء العميق لا يطبق فقط على أحاديث الراشدين بل على أحاديث الأطفال أيضاً. موضوع هذا الكتاب، إذًا، هو تدريب الأذن على سماع المعاني الخفية اللاواعية في كل من الأحاديث الشخصية والأحاديث الاجتماعية. وهذا هو ما أدعوه بالإصغاء العميق.

هناك مستوى معين نحاول جميعنا عنده - بشكل يومي تقريباً - أن نفهم الكيفية التي تقوم اللغة بواسطتها بإيصال المعنى والكيفية التي يعمل بها العقل. نحن مضطرون للقيام بتلك المحاولة نظراً لأهميتها الأساسية التي تصل لدرجة اعتبارها من متطلبات الحياة الاجتماعية. إن بقاءنا ونجاحنا في تحقيق ما نهدف إليه في الحياة يتوقفان على تلك المحاولة. في مجال الفلسفة، يُطلق على الدراسات التي تجري باستمرار بهدف التوصل لمعرفة مشاعر وهموم الكائنات البشرية من حولنا، اسم مشكلة العقول الأخرى Problem of Other Minds.

بدأت بالتعرف إلى وجود معانٍ لاواعية ضمن الأحاديث في مخبري الخاص بالقوى المحركة dynamics المؤلف من مجموعة صغيرة، وقد توصلتُ إلى بعض النتائج الآسرة - التي كانت تتميز غالباً بالغرابة. خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية - اكتشفت من خلال الأبحاث التي أجريتها مع

مجموعات تدريب أن قدرأ كبيرأ من اللغة والأحاديث ، التي يعتقد كل من المتحدث والسامع بأنها لا ترمي سوى إلى معناها الحرفي، هي في حقيقة الأمر نوع من التواصل المجازي «اللاواعي» الذي لا يشعر به المتحدث. فقد وجدت، مثلاً، أن حديثاً يدور ظاهرياً حول التوائم المتماثلة هو نوع من الأسلوب المجازي للإشارة إلى شخصين خلال الحديث. لكن علي الاعتراف بأن الأمر ليس دائماً على هذا النحو. فحتى فرويد، نُقل عنه قوله «في بعض الأحيان، السيجار لا يعني أي شيء سوى سيجار» (أي أنه ليس رمزاً جنسياً).

نحن لا نجد المعاني الخفية في الأبحاث المخبرية فقط، بل نجدها أيضاً في الأحاديث اليومية. ويمكن القول بشكل عام أن المعاني اللاواعية تتبدى بأوضح صورة خلال الثثرة العادية. أما في الأحاديث المنمقة جيداً، كما في اجتماعات الأعمال، فقد يكون من الصعب التعرف إلى وجود مادة لا واعية. لكن قبل أن تبدأ تلك الاجتماعات، أي خلال الدقائق القليلة الأولى التي تنقضي في الأحاديث الجانبية واللغو، أو بعد انتهائهما، يجري غالباً تداول كم لا بأس به من المعاني غير الواعية.

لم يتفق قبل الآن أن جرت مراقبة منهجية لما أدعوه بالإصغاء العميق والكلام العميق، أو جرى تفسيرهما سيكولوجياً. لا شك بأن هناك كتباً تدّعي بأنها تشرح كيفية تفسير المعاني اللاواعية، لكن الطريقة التي تقدمها عادة هي طريقة شديدة العمومية إلى درجة تصبح معها عديمة الجدوى،

أو أنها من نوع التفسير الفرويدي المُبهم الذي يتطلب منا أن نكون محللين نفسانيين مدربين كي نتوصل إلى كيفية كشف النقاب عن المعاني الخفية. في هذه الحالة، نرى أن التفسير يكتسي طابعاً خيالياً أكثر منه واقعياً. الكتاب الذي بين أيديكم ليس مجرد كتاب آخر من تلك الكتب، فهو يركز على أسلوب لغوي طبيعي ومحسوس يساعدنا على التعرف إلى المعاني اللاواعية في الأحاديث اليومية وعلى تحليل تلك المعاني. لم يفسر فرويد كل الكلام اللاواعي - لكنه كاد أن يقوم بذلك، ولا شك بأنه كان يتوجب عليه أن يفعل ذلك (انظر الفصل الخامس).

من الناحية التكنولوجية، أطلقْتُ على تلك الأمثلة عن اللغة اللاواعية اسم الأحاديث المُبْطَّنة subliteral conversations، وأشير إليها، من باب الاختصار، باسم «الكلام العميق»، كما أشير إلى عملية كشف النقاب عن تلك المعاني الخفية باسم «الإصغاء العميق». إن تعبير «المُبْطَّنة» يشير ببساطة، إلى معاني الكلمات التي ترتبط بشكل لا واع بالمعاني الواعية أو المقبولة أو المعاني الحرفية المتعارف عليها للكلمات.

هناك كثير من الأحداث في حياتنا اليومية مما تفوتنا ملاحظته. فعندما ننظر، مثلاً، إلى مرجة العشب الموجودة أمام المنزل، نرى بقعة متجانسة نسبياً من اللون الأخضر. لكن عالم الأحياء عندما ينظر إلى المرجة ذاتها، من خلال المعارف

المتعلقة باختصاصه، يرى فيها ما هو أكثر من مجرد بقعة خضراء من العشب. والأمر نفسه ينطبق على عالم النفس أو عالم اللغات اللذين يراقبان الأحاديث اليومية - كما ينطبق علينا بطبيعة الحال.

رغم حقيقة أننا نمضي شطراً لا بأس به من حياتنا في الكلام مع بعضنا بعضاً، إلا أن ضالة ما نعرفه عن تعقيد المعاني في كلامنا تبعث على الدهشة. في العادة، يفرق معظم الناس في الكلام لدرجة لا يدركون معها ماذا يقال بشكل لا واع. كما أن العلماء يكونون شديدي الانشغال في التركيز على قواعد النحو والصرف والدلالات اللفظية والبلاغة، والأوجه اللغوية الأخرى ذات الطابع الرسمي. وهكذا، يضع المعنى الكامل لما نتفوه به من كلمات دون أن يسمعه أحد.

في جلسات العلاج الجماعي وفي أدبيات الأبحاث التي تقوم بها مجموعات صغيرة، لوحظ أحياناً ورود أمثلة وجيزة ومتفرقة عن الكلام العميق أو عما دعوته بالأحاديث المبطنة، ويشار إلى تلك الأحاديث، عموماً، بأنها عبارة عن أسلوب تواصل رمزي أو مجازي. لا شك بأن هناك عدداً كبيراً من الكتب والمقالات التي تتناول المعاني الخفية، ولكن في غياب أسلوب منهجي، تتحول تلك التحليلات الرمزية، بكل بساطة، إلى تفسير يعتمد على الحدس، وتصبح الأقوال «المجازية» مجرد صدفة، أو توريث عشوائية. عندما بدأت بنشر ما توصلت إليه من نتائج في المجلات العلمية التي يقوم الزملاء

من العلماء بمراجعتها، كاد الناشرون أن يرفضوها مباشرة بحجة أنها - في أفضل الأحوال - ذات طابع فرويدي، أو أنها عبارة عن مصادفة أو أنها - في أسوأ الأحوال - «ذات طابع فصامي schizophrenic أو أنها «توريات جامحة»، أو «مجرد تهیئات»، أو أنها، وبكل بساطة، «مضحكة». ولاشك بأنك ستدرك السبب الذي حدا بالناشرين لاتخاذ مثل هذا الموقف قبل أن تصل إلى نهاية الفصل الأول .

لقد قمت، منذ تلك الأيام البعيدة، بتطوير أسلوب منهجي شامل مُقسَّم إلى خمس عشرة فئة تضم ما يزيد على ستين عملية منفصلة، إدراكية ولغوية، وذلك من أجل تحليل - والأهم من ذلك - من أجل تأكيد وجود الحديث اللاواعي أو المبطَّن في الحياة اليومية. أنظر ملحق كتابي السابق «بين السطور: المعاني اللاواعية في الأحاديث اليومية»⁽⁴⁾.

يقدم هذا المنهج قواعد بسيطة تستخدم لتحديد أو لتفكيك مكُونات القصص واللغة المُستخدَمة لرواية تلك القصص. كما يقدم المنهج، قواعد لتحليل المكُونات التي تم تحديدها وللتأكد من صحة التحليل. لا يمكنني هنا أن أقدم هذا المنهج بشكل مفصل لكنني سأقوم أحياناً بوصف أجزاء من الطريقة التي

(4) انظر أيضاً ر. إي. هاسكيل «منهج قياسي لتحليل وإثبات العمليات اللغوية المعرفية غير السوية ضمن المجموعات الصغيرة (موضوع الخيال) تقارير «بحث المجموعات الصغيرة» (1991): 443 - 474

طورتها وذلك لأوضح أن الإصغاء العميق ليس كما تصوره الناشرون في البداية ولأساعدكم في فهم الأمثلة التوضيحية.

هناك دائماً خطر افتراض وجود معنى لا واع حيث لا يوجد مثل هذا المعنى. رغم صحة ذلك لدى تحليل معاني كل أشكال التواصل، إلا أنه يصح بوجه خاص فيما يتعلق بتحليل المعاني الخفية. وأعترف هنا أن كثيراً من الأمثلة الواردة في هذا الكتاب تذهب بعيداً - حتى نقطة اللاعودة تقريباً - في تجاوزها حدود ما نعتقد أنه معقول أو ممكن من الوجهة المعرفية.

لقد قمت بتطوير ذلك المنهج من باب الاحتراس من المبالغة في تفسير حديث ما. ويتعين على المشككين في فكرة الكلام المبطن وعلى من ينتقدون هذه الفكرة أن يدافعوا عن رفضهم لها بالرد على هذا المنهج. فليس من المقبول هنا أن نقول، ببساطة، أن كل ذلك لا يعدو كونه مجموعة جامحة من المصادفات. يمكنني أن أشير بهذا الشأن إلى أن الطرق والمناهج التي قمت بتطويرها تقدم قواعد لتحليل المعاني المبطنة تفوق ما لدينا - ولا أستثني هنا اللغويين - من قواعد ندرتها بشكل واع، تساعدنا في تحليل المعنى الحرفي والواعي للغة اليومية.

الفائدة من هذا الكتاب

هنا يحين وقت التساؤل عن الفائدة المرجوة من فهم المعاني اللاواعية ضمن الكلام، ومن هو المستفيد من

ذلك؟... أولاً، أعتقد أن الفائدة تعم كل شخص تقريباً نظراً لأن هناك كثير من المواقف في الحياة الاجتماعية اليومية وفي العمل يصعب فيها، أو لنقل يستحيل فيها، الحصول على معلومات بشأن «حقيقة» ما يفكر أو يشعر به الناس، رغم أهمية معرفة تلك المعلومات، بإمكان الإصغاء العميق تقديم معلومات قيمة ومهمة بهذا الشأن. إن الأمثلة التي يحفل بها هذا الكتاب تكشف الطبيعة المتعددة الأوجه للعلاقات البشرية، بل إنها في الواقع تكشف الطبيعة البشرية بحد ذاتها.

إن الأمثلة التي قمت بجمعها على مر السنين، لا تقتصر على تقديم الدليل على ما كنا غالباً نشك بأنه يسري تحت السطح المذهب للأحداث الاجتماعية، بل إن تلك الأمثلة توفر، في أحيان كثيرة، أفكاراً معمقة مؤثرة بشأن ما يعتري البشرية من هموم ومشاكل قديمة قدم التاريخ تكاد تكون أبدية. تتضمن هذه المشاغل والهموم قضايا تتمحور حول النوع gender والخصائص الجنسية وتفضيل أحد الجنسين والعرق والإثنية والعمر والسلطة والقيادة والدين والتواصل والفرد في مواجهة المجموعة أو المجتمع. وهكذا، تكشف لنا تلك الأمثلة الكثير مما يتعلق بالعلاقات الإنسانية بكل تعقيداتها ونمطيتها وأحكامها المسبقة (انظر الفصل التاسع بشكل خاص).

ضمن مجال العمل، قد يدفع الخوف من المدير أو من بعض الزملاء، أو نظام المكافآت نفسه، قد يدفع بالناس لإخفاء مشاعرهم الحقيقية تجاه بعضهم بعضاً. ويمكن للإصغاء العميق

أن يكون مفيداً لمن يقوم بإدارة، أو بتوجيه أو بالانخراط في، الأعداد المتنامية من المجموعات الصغيرة، أو الفرق، التي تتواجد في عالم الأعمال.

ثانياً، يمكن استخدام الأسلوب المبطن الذي قمت بتطويره لتدريب مستشاري ومعالجي الصحة العقلية الذين يعملون ضمن مجال العلاج الفردي أو السلوكي - الإدراكي - cognitive-behavioral أو علاج الديناميكيات النفسية psychodynamic أو العلاج الجماعي. لقد تم إدراك أهمية التعبيرات المجازية، التي يستخدمها المرضى أثناء العلاج النفسي، منذ فترة لا بأس بها من الوقت⁽⁵⁾، وبإمكان الإصغاء العميق أن يزود المعالجين بمعلومات إضافية قيّمة تتعلق بالمجاز إلى حد ما، وذلك بخصوص المواقف اللاواعية للمرضى وبخصوص المشاعر والأفكار التي قد لا يرغبون في كشفها أو التي لا يعون وجودها.

ثالثاً، لقد تم تشكيل أعداد كبيرة من مجموعات الدعم

(5) انظر هـ . ر. بوليو وم. ك. سميث وم. ر. بوليو، «اللغة الرمزية وعلم النفس المعرفي» اللغة والعمليات المعرفية 5 (1990): 141 - 167، هـ. فاين وهـ . ر. بوليو وس. سيمبكينسون «اللغة الرمزية والمجاز والعلاج النفسي»، العلاج النفسي: النظرية والأبحاث والتطبيق 10 (1973): 87 - 91، هـ . ر. بوليو، ج. م. بارلو، هـ . ج. فاين، م. ر. بوليو، «علم النفس والأحاسيس الشعورية في النمو: اللغة الرمزية في علم النفس»، العلاج النفسي والثقافة (هيلزديل، نيوجرسي: لورنس إيرلوم، 1977).

النفسية والاجتماعية، بدءاً من جمعية «الكحوليون المجهولون» وصولاً إلى جمعية «الآباء العازبون»، وحتى مجموعات الأشخاص الذين لا يرغبون سوى في الكلام حول شؤون الحياة وفي سماع غيرهم يتكلم حول ذات الموضوع . تدور ضمن معظم تلك المجموعات أحاديث حول مشاكل تمس أفراد المجموعة وحول القضايا التي تهمهم . يجري «تفصيل» تلك المجموعات لتناسب تطبيق أسلوب الإصغاء العميق . وسواء كنت مستشاراً أو عضواً، فإن بإمكان الإصغاء العميق لتلك المجموعات أن يكشف كنزاً من المعلومات المفيدة التي لا يمكن كشفها بشكل واع . يمكن القول باختصار أن هذا الكتاب يعتبر مفيداً لكل شخص يهتم بالكيفية التي يعمل العقل بواسطتها .

رابعاً، إن كشف المعاني الخفية ضمن اللغة اليومية يمكن أن يكون مبعث تسلية، شأنه شأن كشف زلات اللسان، ويمكن أن يتحول ذلك بالنسبة لك ولأصدقائك، إلى تسلية يومية آسرة، عند ذلك تصبح الحياة الاجتماعية اليومية مختبراً خاصاً بك . وبإمكان ذلك أن يحمل فائدة قصوى، ففي الوقت الذي تُعتبر فيه الأمثلة اليومية ممتازة لتعلم كيفية كشف المعاني المحتملة للكلام العميق، إلا أنها لا تقدم كل ما هو مطلوب لإثبات صحة هذا المعنى . هناك تحذير صريح وواضح: إن بعض ما ستسمعه قد يكون أموراً «لا يخبرك بها حتى أعز أصدقائك» . وقد يكون بعضه الآخر، فعلاً، أموراً لا تود سماعها .

أود التوضيح هنا أنني لا أطلق صفة «فعالة» و «صحيحة» على كثير من العمليات الذهنية الغريبة التي صادفتها، والتي أوردتها في هذا الكتاب، بالإضافة إلى أنه لا يمكنني الادعاء بأنني توصلت إلى الحقيقة المطلقة بشأن الأسس التي تخص المفاهيم والتي تشرح نتائج أبحاثي بصورة نظرية. ورغم قيامي بتطوير أسلوب شامل للبرهنة على صحة وجود الأحاديث المبطنة، إلا أن الوقت لم يحن بعد، من الوجهة العلمية، لادعاءات مطلقة من هذا القبيل. لكن ذلك لا يعني أن تحليل الحديث المبطن لا يعدو كونه مجرد فرضية. وإذا أخذنا بالاعتبار المنهج الذي قمت بتطويره ومسار نتائج أبحاث مماثلة وحقيقة أن الكثير من النتائج تتوافق مع أبحاث ونظريات معرفية أخرى، نرى أن هذا المنهج يشكل ما هو أكثر من مجرد فرضية وما هو أقل من حقيقة معترف بها. لا ضير في ذلك، فهو يضع ما أدعوه بالإصغاء العميق في مرتبة لا بأس بها ضمن مجال علم النفس وبقية المجالات العلمية الأخرى من المعرفة. وبالتالي، ما من شك بأن الأبحاث ستتواصل لتعديل النتائج التي توصلت إليها.

الشكل العام للكتاب

سأقوم في هذا الكتاب بعرض أمثلة مستقاة من الحياة اليومية ومن مخبري، الذي يضم مجموعة صغيرة، تُبين كيفية القيام بالإصغاء العميق. لقد تم التحقق من صحة الكثير من تلك

الأمثلة عن المعاني اللاواعية وذلك على أساس المنهج الذي قمت بتطويره. أُخِذَت الأمثلة الأخرى من مواقف يومية حيث لم يكن بالإمكان التحقق من صحتها بشكل كامل، لكن كانت هناك معلومات كافية فيما يتعلق بالقرائن contextual مما زاد احتمال صحتها، بالإضافة إلى أن تحليلاتها كانت متسقة مع التحليلات التي تحققت من صحتها على أساس المنهج الذي قمت بتطويره. ورغم ذلك، فإن الأمثلة التي كانت نتائج التحقق من صحتها أقل دقة، يمكن لها، على الأقل، أن تقوم بدور أمثلة فرضية، وإن كانت محتملة، تلقي بعض الأضواء على ما تقوم بإيضاحه.

لقد ملأت هذا الكتاب بالأمثلة لأن أفضل طريقة لتعلم كيفية التعرف إلى الكلام العميق وتحليله، هي الانغماس في فيض من الأمثلة المحسوسة وترك العقل يستوعب الأنماط التي تشكل أساساً لتلك الأمثلة. لا شك بأن تقديم المعطيات الحرفية الكاملة، التي تم استخلاص تلك الأمثلة منها، كان ليبدو شيئاً مثالياً، لكن القيام بذلك كان، ولسوء الحظ، أمراً مزعجاً ومرهقاً.

قد تصادف، لدى قراءتك الكتاب، معانٍ غفلت عنها. أعرف ذلك، لأنني خلال إعادة كتابة بعض الأمثلة الخاصة بالكتاب، اكتشفت وجود معانٍ فاتتني ملاحظتها عندما حللتها للمرة الأولى. ولا شك بأنك ستبدأ في توقُّع بعضاً من تلك المعاني قبل أن أقدم لك تحليلي لها.

الأسئلة التي يجيب عليها هذا الكتاب، تتضمن: كيف يكون الحديث العميق ممكناً؟ ... ما هي آلياته الذهنية؟ ... كيف تؤثر المشاعر والانفعالات على المعنى؟ ... لماذا لم تُكتشف آليات الأحاديث المبطنة قبل الآن؟ ... هل هناك معطيات ونظريات متداولة حالياً تتصل بالمعاني المبطنة؟ ... ماذا يمكن للعقل المبطن أن يكشف لنا من أشياء جديدة فيما يخص العقل؟ ... ما هي الأمور الجديدة المتعلقة باللغة التي يمكن للزلات أن تكشفها لنا؟ ... بِمَ يختلف العقل اللاواعي المبطن عن العقل اللاواعي الذي قال به فرويد وعن آراء العلم المَعْرِفِيّ الحديث؟ ... ما هي طبيعة العقل اللاواعي الذي تنشأ عنه معاني الكلام العميق، وماذا يمكنه أن يكشف لنا بشأن طبيعة الوعي؟ ... أخيراً، ما هي المدلولات والتطبيقات العملية للكلام العميق وللإصغاء العميق؟ ...

يمكن قراءة الأمثلة الكثيرة الموجودة في الكتاب حسب رغبة القارئ. أولاً، يمكن قراءتها ببساطة، وبشكل عام على أنها براهين مشوقة على المعاني المبطنة. ثانياً، يمكن قراءتها على أنها تكشف بأساليب جديدة مهمة، الكيفية التي تُبدع فيها في استخدام اللغة. ثالثاً، يمكن قراءتها على أنها تكشف الديناميكيات التي تحرّك المجموعات والتي يمكن لها، ضمن ظروف أخرى، أن تمر دون أن يلاحظها أحد. رابعاً، يمكن قراءة المعاني المبطنة على أنها تكشف قدراً كبيراً من الديناميكيات الأساسية المحرّكة للحياة الاجتماعية. خامساً، وهنا

تكمُن الأهمية التي تحمل بذور التطور الآتي، يمكن قراءتها على أنها تكشف الكيفية التي يعمل فيها العقل اللاواعي المبطن.

يضم كل من الفصلين: الأول «الإصغاء لفريق «الموتى المُمَتَّنون»، تسجيل لحفل موسيقي حي: تعريف بالإصغاء العميق» والثاني «زلات لسان أم زلات أفكار: كن جاداً يا سيدي الرئيس» أمثلة كثيرة من الحياة اليومية. يقدم هذان الفصلان تعريفاً بالإصغاء العميق، هناك إشارة إلى فريق موسيقى الروك «الموتى الممتنون» وثلاثة أمثلة من برنامج إخباري في قناة CNN، يظهر فيه وولف بليتز وبرنامج «عبء البرهان» مع روجر كوساك، وهي أمثلة قد تكشف آراءهما الشخصية الخفية بشأن علاقة الرئيس كلينتون مع مونيكا لوينسكي ومجريات عملية توجيه الاتهام للرئيس من قِبَل الكونغرس.

يبين الفصل الثالث «كلام عن الإله: تعلّم قوالب الإصغاء العميق» كيف أنه خلال مسيرة التاريخ الإنساني كان هناك همٌ واحد شامل ثابت يشغل بال البشرية وكان يتعلق بإله، كائن لا حدود لعلمه يمثل السلطة. تم توضيح أن النموذج الأصلي archetype للإله، هذا النموذج الذي يضرب بجذوره في أعماق النفس، يتبدّى في الأحاديث بشكل قالب أبدي أو قالب أساسي يجري على أساسه التعبير بواسطة الكلام العميق عن دواعي القلق بشأن رموز السلطة.

في الفصل الرابع «الإصغاء العميق في العلاقات: ما لا يقوله لك الأصدقاء وزملاء العمل وأرباب العمل»، يجري، عن طريق التوسع في فكرة قالب الأساسي للإله، شرح دواعي القلق الخفية اللاواعية لدى الناس بشأن أقرانهم وبشأن السلطات وذلك كما تتبدى من خلال الأحاديث. على سبيل المثال، المشاعر المتعلقة بعدم الأهلية للقيادة، وهي المشاعر التي يستغلها الزعماء ويتلاعبون بها، وتلك المتعلقة بالعدل والمساواة والمحابة. الأمثلة المقدمة على الكلام العميق الذي يدور بين الأشخاص تتضمن التنافس والغيرة والمعايير المزدوجة والفصل من العمل والخسارة، والشعور بالملل والتبجح. كما يُبين الفصل كيفية استخدام أسماء العَلَم في الكلام العميق للكشف عن دواعي القلق الخفية.

يروي الفصل الخامس، «اكتشاف الإصغاء العميق: ما لم يدركه فرويد، لكنه كاد أن يدركه» باختصار مسيرة المؤلف خلال عملية اكتشافه للإصغاء العميق. كما يتصدى لرد الفعل الأولي لدى كثير من الناس الذين قد يتساءلون، «ألم يتحدث فرويد عن ذلك؟...» بالقول، «لا، لم يتحدث»، ومن ثم يبحث بإيجاز في ما قاله فرويد فعلاً بشأن التواصل اللاواعي. في نهاية الفصل، هناك دراسة لمستقبل الإصغاء العميق.

يبدو الفصل السادس، «دفاعاً عن المومسات أو. ج. سمپسون: تدابير احترازية، أخلاقية وقانونية»، أشبه بمقالة أخلاقية تدعو للالتزام الحذر في تطبيق الإصغاء العميق وفي

الكشف عنه، كما يتفحص الفصل المعاني اللاواعية التي جرى استخدامها في دعويتين قضائيتين. إحداهما هي محاكمة أو. ج. سمپسون بتهمة القتل. تجري في هذا الفصل مناقشة جانبين مختلفين من جوانب الإصغاء العميق، يتضمن الأول القضايا الأخلاقية المتعلقة بكشف المعاني الخفية، ويتضمن الثاني إثبات صحة المعاني اللاواعية.

يبين الفصل السابع، «الأرقام في الحديث: التفكير عبر الأعداد»، أنه مثلما يجري اختيار الكلمات أثناء الحديث بشكل لاواع، غالباً، لأنها تُعبّر عما يشغل بال الأشخاص، كذلك فإن الأعداد التي تردّ في الأحاديث تحمل أيضاً معانٍ لا واعية، كما أنها تتطابق تماماً مع المجموعات المتعددة التي ينقسم إليها الحضور المشاركون في حديث ما. يقدم الفصل شرحاً منهجياً موسّعاً لمجموعة من الأعداد الواردة في محادثة، موضحاً بذلك كيفية عمل العقل اللاواعي عن طريق استخدام الأعداد.

نرى في الفصل الثامن، «الجنس والنوع: النساء تحت تأثير السيطرة». أنه بالنظر لوجود توتر جنسي في كل مرة يجتمع فيها الرجال بالنساء، يجري الكشف عن هذا التوتر، غالباً، بشكل لا واع خلال الحديث. كما يُظهر الفصل كيف أن النماذج النمطية في الكلام العميق تتعلق أيضاً بنوع الميول الجنسية.

يتركز الاهتمام في الفصل التاسع، «هل المقصود

شحيحة؟... توضيح القضايا العرقية»، على الإصغاء العميق الذي يرتبط بالجذور العميقة للتحامل العرقي اللاواعي. وقد استُخدمت أمثلة كثيرة، بما فيها أمثلة وردت على لسان كل من الروائي نورمان ميلر والمعلّق جورج پليمپتون وذلك في مباراة الملاكمة التي جرت بين محمد علي وجورج فورمان في زائير بإفريقيا، إضافة لاستخدام تعبير شحيحة niggardly من قِبَل مساعد أبيض في مكتب محافظ مدينة واشنطن أنتوني ويليامز، وهو أمريكي إفريقي، والتعليق جاء في إحدى المجلات حول لاعبي كرة سلة أسودّين معروفين، هما كريم عبد الجبار ويوليوس «Dr. J» إيرفنج. في نهاية الفصل، هناك دراسة للحالات التي تعني فيها مثل تلك «الزلات» العرقية وجود موقفٍ عنصري والحالات التي لا تعني فيها شيئاً كهذا.

يبين الفصل العاشر، «التصرف العميق: تجاوز الخطوط الحمراء»، أن العقل اللاواعي لدينا، مثلما يكشف عن نفسه عن طريق قيامنا بالإصغاء العميق للكلام العميق، يقوم أيضاً بالكشف عن نفسه عن طريق سلوكياتنا أو تصرفاتنا العميقة. لقد كتب فرويد وغيره عما أسماه «زلات التصرف». يدرس هذا الفصل عدداً من الأمثلة على التصرفات العميقة، و يتضمن تحليلاً لرسالة طلب الفدية التي تُركت في مكان جريمة قتل جون بينيت رامزي.

روبرت إي هاسكيل

Old Orchard Beach, Maine, January 1, 2000

rhaskel1@maine.RR.com



الإصغاء إلى فريق الموتى المُفْتَتِنين تسجيل لحفلٍ موسيقي حي: تعريفُ حُسن الاستماع

«عملية التعلُّم الضمني هي الطريقة العفوية لاكتساب المعلومات المعقدة عن البيئة... [و] هناك أسباب وجيهة تدعو إلى إسباغ أولوية معرفية على اللاوعي وعلى المنظومات الضمنية».

آرثر ريبير
التعلُّم الضمني والمعرفة الكامنة⁽¹⁾

أثناء استراحة لشرب القهوة، بعد عناء اجتماع ما، يتحلَّق الأشخاص لتجاذب أطراف الحديث، فجأة، ودون وجود أية علاقة واضحة بأي شيء قيل سابقاً، يشير أحدهم إلى أن لديه

(1) آ. س. ريبير، التعليم الضمني والمعرفة الكامنة: مقالة في اللاوعي المعرفي (نيويورك: أكسفورد يونيفيرسيتي برس، 1993)، 25، 69.

مجموعة أغاني لفريق الروك «الموتى الممتنون The Grateful Dead»، تسجيل لحفل موسيقي حي. ماذا يعني ذلك؟.. هل هو مجرد تعليق عادي لا أكثر، من النوع الذي يقال غالباً في المناسبات غير الرسمية بقصد التواصل الاجتماعي؟.. الإجابة الوجيزة هي لا، وهي موضوع هذا الفصل، أما الإجابة الأطول فتُشكل موضوع هذا الكتاب.

إذا كان موضوع فريق «الموتى الممتنون» يحمل معنى غير معناه الظاهري، كيف لنا أن نعرف معناه الحقيقي؟.. وإذا كان هذا الموضوع، فعلاً، يعني شيئاً أكثر مما يبدو في الظاهر، هل يمكن أن يكون فهمُ معنى هذا الحديث، الذي يبدو عشوائياً في ظاهره، ذا فائدة بالنسبة لك كصديق أو كموظف أو كمُشارك في اجتماع ما أو كرئيس لهذا الاجتماع؟.. سأشرح الآن المعنى الحقيقي أو المعنى الخفي للملاحظة المتعلقة بالموتى الممتنين، لكن دعوني أولاً أصف الظروف التي تكون فيها تلك المعاني الخفية مرتبطة بما يبدو ظاهرياً وكأنه حديث ودي حُرْفِيّ بسيط.

يمكن القول بشكل عام أن المعاني اللاواعية تتبدى كأوضح ماتكون من خلال الثثرة الودية، عندما يكون الناس متحلقين بانتظار بدء اجتماع، مثلاً، أو أثناء استراحات شرب القهوة أو خلال تلك الدقائق الأولى من «فترة التحضير لأمر ما» أي عندما تتطلب اللياقة الاجتماعية تبادل التحيات المتعارف عليها والأحاديث الودية. ضمن ظروف كهذه يجري طرح كثير من الموضوعات بهدف مناقشتها، رغم ضعف الارتباط المنطقي

الظاهري فيما بينها، هذا إن وُجد هذا الارتباط أصلاً. يُطلق على هذه العملية الاجتماعية اسم «تبادل المشاعر لنشر روح المودة» Phatic Communion، حيث تكون الغاية من الحديث هي إيجاد جو من الارتياح وليس نقل فكرة بعينها. يقول معظم علماء النفس الاجتماعي والباحثون الآخرون إن هذا النوع من الأحاديث الودية العشوائية يهدف، بكل بساطة، إلى مساعدتنا على سبر أعماق بعضنا بعضاً وعلى التعارف وعلى السير في الاتجاه الصحيح خلال الحديث، أي يمكن القول أنه كاشفنا الكلامي Verbal Sonar.

ما إن يُعرف سياق الحديث حتى نعلم إلى «تحديد موقع» الموضوع أو القصة ضمن الحديث الدائر فعلاً. إذا أردنا تصوير الموضوع بشكل رسم بياني، مثلاً، سنفترض أن هناك قصة حرفية في حديث ما تدور حول:

أ - أربعة أشخاص موجودون في حانة

ب - شابان وشابتان، وهم

ج - شديداً الصخب، وهم

د - يسيطرون على الحديث وعلى جو التفاعل الاجتماعي.

يمكن الافتراض بأن هذه القصة هي عبارة عن كلام عميق عندما تتطابق عناصرها وتفاصيلها مع الحديث الدائر في تلك اللحظة وفي ذلك المكان حيث تتوافر نفس العناصر الأربعة الموجودة في القصة الحرفية:

- أ - أربعة أشخاص ضمن المجموعة .
- ب - شابان وشابتان ، وهم
- ج - شديداو الصخب ، وهم
- د - يسيطرون على الحديث وعلى التفاعل بين أعضاء المجموعة .
- هناك بعض الأحاديث المعلقة التي تحظى باهتمامنا ، وقد نتابعها لفترة وجيزة ، لكن بعضها الآخر لا يحظى بنفس الاهتمام . ما هو السبب ؟ . . إذا عرفنا كيف نصغي ، يمكن لنا أن نلاحظ بوضوح أن هذا الانتقال السريع بين الموضوعات الاجتماعية الودية ليس عشوائياً ، بل إنه أكثر من مجرد كلام لا يهدف سوى للتعرف إلى الآخرين . لقد توصلتُ في الأبحاث التي أجريتها خلال السنوات الخمسة والعشرين الماضية على مجموعات التدريب ضمن شروط مخبرية منظّمة ، وفي أجواء اجتماعية يومية ، توصلت إلى نتيجة مفادها أن بعض أحاديثنا اليومية واللغة التي نستخدمها يومياً ، التي يعتقد كل من المتحدث والمستمع أنها حرفية ، هي في الواقع نوع من التواصل «المجازي» اللاواعي لا يشعر به المتكلم ولا المستمع .

الإصغاء إلى الموتى الممتنين،

تسجيل لحفل موسيقي

لكي نكتشف المعنى الخفي للقصة التي بدأت بها هذا الفصل ، التي تتعلق بـ «الموتى الممتنون» ، تسجيل لحفل موسيقي حي» ، علينا أن نفهم بعض المبادئ البسيطة للطريقة الملائمة التي قمت بتطويرها من أجل الإصغاء العميق للغة كهذه .

يجب، أولاً، أن ننظر للقصة من زاوية ارتباطها بالملاحظات الأخرى، وعلينا، ثانياً، أن نفهم سياق الاجتماع الذي جرى قبل الكلام عن الموتى الممتنين.

بعد أن أدلى بملاحظته الأولى بشأن الموتى الممتنين، أضاف الرجل، «لم أعد أذهب إلى الحفلات الموسيقية لأنها تضم عدداً كبيراً من الشبان الصغار السن». وضمن سلسلة التعليقات التي تنتقل بسرعة من موضوع لآخر، أخذ الحديث منحى آخر ليدور حول ما يفعله الناس في أوقات فراغهم وحول ما إذا كانوا لا يقومون بشيء أم أنهم يبقون على الدوام منشغلين بشيء ما. قال أحد أعضاء المجموعة، «إذا لم يكن لدي ما أفعله فإنني أشعر وكأنني ميت». لدينا هنا إشارتان من شخصين مختلفين تتعلقان بكلمة «ميت». من المهم الآن أن نعرف أن الاجتماع الذي كان الأعضاء قد غادروه للتو لم ينطو على كثير من التخطيط والإدارة وكان رأي الحاضرين أنه لم يحقق شيئاً، فقد كان الوقت يمضي فيه متناقلاً. تبدو الصورة مألوفة أليس كذلك؟.. من حيث الجوهر، إذًا، هذا هو المعنى اللاواعي للملاحظة المتعلقة بالموتى الممتنين:

إنها تزيح الستار عن المشاعر الخفية لاثنيين من المشاركين، على الأقل، بشأن الاجتماع.

لقد شعرا بأن الاجتماع كان طويلاً ومملًا، وبالتالي فقد شعرا بأنهما لم يكونا فقط «ميتين» عاطفياً، بل إنهما كانا «ممتنين» لأن وقت استراحة شرب القهوة قد حان. فضلاً عما

سبق، فإن الملاحظة المتعلقة بـ «الموتى الممتتين»، تسجيل لحفل موسيقي حي تُعتبر، على الأغلب، عبارة الهدف منها القولُ أنهما لم يكونا فقط «ممتتين» لوجودهما في استراحة شرب القهوة بل إنهما كانا يشعران بأنهما أكثر «حياة». كانا فعلاً «الموتى الممتتون» الذين كانوا يشعرون في تلك اللحظة بأنهم أحياء». الوسيلة المبدئية للإصغاء العميق في أحاديث من هذا النوع هي في منتهى البساطة: حدد موقع موضوع الحديث ضمن الحديث والموقف في تلك اللحظة لرؤية ما إذا كان هناك انطباق من نوع ما.

لكن هناك معنى آخر ينبغي استخلاصه من تلك الملاحظات القصيرة. إن عبارة أحد المشاركين في الاجتماع «لم أعد أذهب إلى الحفلات الموسيقية لأنها تضم عدداً كبيراً من الشباب الصغار السن» هي معادل لشعوره بأن مشكلة الاجتماع هي أن بعض المشاركين فيه لم يتصرفوا بشكل مسؤول، بل إنهم كانوا يتصرفون كالصغار، وأن بعضهم لم يكن يصغي لما يقال في الاجتماع أو أنه لم يكن يسهم في جعل الاجتماع مثمراً. ومن المحتمل أن تكون عبارة in concert هي إشارة إلى أن كل المشاركين في الاجتماع كانوا، أثناء استراحة شرب القهوة، يتحدثون في وقت واحد، أو أنهم كانوا يتصرفون in concert (بانسجام).

يمكن القول باختصار أن موضوع «الموتى الممتتون»، تسجيل لحفل موسيقي حي» كان شكلاً من أشكال التعبير

الشعري أو المجازي عن مشاعر بعض الحاضرين حيال الاجتماع أو حيال الأسلوب الذي سمح الرئيس بأن يدار فيه الاجتماع. يبدو أن عقولنا تنهمك في القيام بما يشبه مسك الدفاتر بطريقة القيد المزدوج وذلك عندما يتعلق الأمر بإيجاد معنى ما. بالتالي، فإن كثيراً من أحاديثنا اليومية تعبر عما هو أكثر من مجرد المعاني الحرفية أو المعاني العادية التي تُنسب إليها. إن مثال «الموتى الممتنون» هو مثال مقتضب رغم أنه يقدم لنا بوضوح فكرة مبدئية عن الكيفية التي نتمكن بواسطتها من التعرف إلى الكلام العميق وتحليله والإصغاء إليه بعمق. هناك أمثلة أخرى أكثر تعقيداً.

هنا يجب أن أنوه للقراء الذين قد يكونون مغرمين بفريق «الموتى الممتنون»، أو الرؤوس الميتة Dead Heads، بأن هناك من أخبرني أن لا وجود لمجموعة أغاني تحمل عنوان «الموتى الممتنون»، تسجيل لحفل موسيقي حي (على الأقل لا وجود لمجموعة غير مسروقة). لكن استخدام المتحدث لهذا التعبير لا يعتبر مجرد خطأ بسيط: إنه خطأ يحمل معنى عميقاً. كما أشرت في الفصل الخامس، فإن «الأخطاء» كثيراً ما تُستعمل بقصد جعل القصة الحرفية تلائم المعنى العميق الذي يود المتحدث التعبير عنه، لأن مجرد قوله بأنه قد استمع لفريق «الموتى الممتنون» لن يكون كافياً للتعبير عن شعوره بأنه «حي» وعن حقيقة أن كل المشاركين في الاجتماع كانوا يحملون نفس الشعور.

لنعد بالتفكير برهة إلى مثال «الموتى الممتنون». في هذا

المثال، وفي الأمثلة الأخرى التي سترد فيما بعد، علينا أن نطرح سؤالاً بسيطاً، لكنه بالغ الأهمية، سؤالاً يندر أن نطرحه بخصوص الأحاديث. السؤال المهم هو التالي: «مِنْ بين جميع الكلمات والعبارات الممكن استعمالها، ومن بين جميع الموضوعات الممكن اختيارها في الحديث، لماذا يجري اختيار تلك الكلمات والعبارات والموضوعات بعينها، ولماذا يجري اختيارها في الأحاديث في ذلك الوقت بالذات؟..» أعود هنا للقول أنه من الوجهتين المعرفية واللغوية يُعتبر هذا سؤالاً بالغ الأهمية لا يُطرح بتاتاً، بشكل فعلي، بالتالي لا جواب له على الإطلاق. لكن علينا أن نتوجّه به إذا كان لنا أن نفهم النواحي اللغوية - النفسية psycholinguistics في المعاني العميقة للأحاديث اليومية.

ما توصلتُ إليه هو أن الموضوعات والعبارات والكلمات لا يجري اختيارها أثناء الحديث بمحض الصدفة، فعقولنا أكثر تنظيماً ودقة من أن تفعل ذلك. يعرف اللغويون، أن اختيار الكلمات أثناء الحديث يحدث بشكل عملية ذات مرحلتين: بما أن الكلمات تحمل معانٍ كثيرة، يقوم الدماغ أولاً باستعراض (ويُدعى ذلك بالوصول إلى المفردات lexical accessing) كل المعاني الممكنة لكلمة ما كما ترد في قاموسنا العقلي (ويُدعى بالمعجم lexical). بعد ذلك يقوم الدماغ، انطلاقاً من السياق، باختيار (ويُدعى ذلك بانتقاء المفردات lexical selection) المعنى الذي يُفترض بأنه يناسب السياق الذي سيُستخدم ضمنه.

كلمة أخيرة فيما يتعلق بقصة «الموتى الممتنون»، تلاحظون أن المتحدث لم يكتف باختيار أي موضوع وحسب. فالقصة، أولاً، كانت تدور حول فرقة لا حول فنان واحد، ذلك لأن الكلام العميق كان يدور حول مجموعة من الأشخاص في أحد الاجتماعات. ثانياً، علينا أن نتساءل هنا لماذا لم يختار المتحدث فريقاً موسيقياً آخر، لماذا خص بالكلام فرقة «الموتى الممتنون» تحديداً؟.. لماذا لم يختار فرقة Metallica أو فرقة the Beatles؟.. أو فرقة الفنانات المعروفة باسم Dixie chicks؟.. السبب هو أن أياً من تلك الفرق ما كان ليتيح له أن يعبر عما يود التعبير عنه. تلاحظون أن فرقة «الموتى الممتنون» مؤلفة بكاملها من الذكور شأنها شأن فرقة ميتاليكا أو البيتلز، والاجتماع كان معظم الحاضرين فيه من الذكور. إذاً، ما من فرقة من تلك الفرق الموسيقية البديلة كان بإمكانها التعبير عن معنى الكلام العميق الذي كان يشعر به المتحدث - وهو أنه كان «ميتاً». من الواضح أن هناك آلية معرفية ولغوية هائلة تمارس عملها تحت سطح دفع أحاديثنا الودية الحرفية. (انظر الشكل 1 - 1).

إن فهم كيفية الإصغاء العميق للكلام العميق ليس سهلاً فحسب، بل إنه، وهو الأهم، بالغ الفائدة أثناء الأحاديث الاجتماعية و الأحاديث خلال العمل، ولما كان معظم الأشخاص يقضون جل وقتهم في مكان العمل، بالتالي ضمن مواقف جماعية، سأمضي في استخدام مكان العمل كمثال. إن

التعرّف إلى المعنى الخفي الكامن تحت سطح الحديث الودي داخل المكاتب يمكن له أن يكون ذا فائدة لك سواء كنت موظفاً أو صاحب عمل. فبالنسبة لمن هو في موقع القيادة أو في موقع المرؤوس، لا تتوفر في العادة معلومات بشأن أفكار أو مشاعر الطرف الآخر في ما يتعلق بك، لأن الحرص على البقاء يستدعي منا أن نكذب بكثرة.

بالنسبة لك كمدير أو كمشرف على العمل، تُعتبر معرفة ما يدور بخلد المرؤوسين تجاهك أمراً غير متيسر في أغلب الأحيان لأنك تمتلك سلطة تقييم عملهم، لا شك بأنك تدرك ما أعني (انظر الفصل الرابع). لنقل مثلاً أن المدير سألك رأيك بشأن الكيفية التي سار بها الاجتماع. الجواب المألوف اجتماعياً هو: «لقد كان الوضع رائعاً يا سيادة المدير». في الوقت الذي قد يكون فيه الجواب الحقيقي عكس ذلك تماماً. إذا ما تعرّف الشخص الموجود في موقع السلطة إلى مشاعر الناس الحقيقية، فإن بإمكانه البدء في تفحص أسلوب إدارته وردود أفعال مرؤوسيه. ينطبق الشيء ذاته على الشخص المرؤوس، فالإصغاء العميق للكلام العميق الصادر عن المدير يمكن له أن يحمل فائدة كبيرة.

لنتساءل، على سبيل الافتراض، ماذا لو أن المدير بدأ يتكلم عن «فريق ليتل ليغ، الذي يظل أعضاؤه مفتقرين للمؤهلات اللازمة التي تجعل منهم فريقاً رابحاً مهما بذلوا من جهد؟». .. هناك ما هو أسوأ، ماذا لو أن المدير تابع الحديث

ليذكر «أحد أعضاء الفريق، وهو ذو شعر أحمر، يُعتبر عقبة حقيقية تمنع الفريق من إحراز الفوز ولو حتى في مباراة واحدة؟».. ففكر ملياً. إذا كنت ذا شعر أحمر، قد يكون من الأفضل أن تبدأ بالبحث عن وظيفة أخرى.

على هذا يمكن اعتبار الكلام العميق نوعاً من رسالة مشفرة، بإمكانها القيام بدور منظومة مراقبة شخصية تجمع لك المعلومات الاستخباراتية، وذلك إذا تعلمت كيف تصغي إليها بعمق وتفك رموزها. إن دماغنا/ عقلنا، على ما يبدو، قد تطور إلى حيث أصبح جهازاً كاشفاً حيويًا - إلكترونيًا bioelectronic يقوم بالتقاط ورصد مشاعر الناس ودواعي قلقهم الخفية، ويكشف، بالتالي، حقيقة ما يجري وذلك عن طريق اكتشاف ما يحاول الزوج، أو المدير أو الأصدقاء قوله وما يشعرون به فعلاً. إن تعلم فك رموز الحديث الودي العادي يمكن له، إذاً، أن يكون مهارة قيّمة.

إليكُم مثال سريع آخر استقيته من مكان عملي: عندما يجري تقييم شخص من حيث أدائه في العمل، لا عجب في أن تراود هذا الشخص أحاسيس قلق شديد. كنت أقوم بمراقبة وتقييم أداء زميلة لي لدى تدريسها لأحد الصفوف، وذلك بوصفي عضواً في لجنة إعادة التوظيف والترفيه والتثبيت في العمل. سأطلق على الزميلة اسم جوان. كان جزء من موضوع الدرس في ذلك اليوم يتعلق بإثبات الدقة العلمية وإيجاد البرهان المؤيد corroborating أثناء سير الدرس تلعثمت جوان مرتين

لدى لفظها لكلمة corroborating وكانت النتيجة أنها لفظت مقطع cor وحرف o الثالث بصوت يكاد لا يُسمَع، بحيث جاءت الكلمة على النحو التالي - rob-rat-ing وهو ما كنتُ أقوم به في واقع الأمر. لقد كشفتُ جوان، إذاً، عن حقيقة أنها كانت تشعر بالقلق إزاء قيامي أنا Rob، بتقييمها rating her.

إن أهمية هذا المثال المحدّد لا تكمن في أنه كشف حقيقة وجود قلق عميق، لم يكن واضحاً إلى حد ما منذ البداية، بل تكمن في أنه أَوْضَحَ آلية أخرى تتعلق بكيفية حدوث الكلام العميق وبالتالي بكيفية الإصغاء بعمق - أو، بشكل أكثر تحديداً بأسلوب القيام بالإصغاء العميق لمعرفة الكيفية التي يُمكن بواسطتها استخدام أسماء العُلَم في الكلام العميق.

السؤال الآن هو التالي: كيف يمكنك معرفة ما تعتقد أنك سمعته صحيحاً أم لا؟.. هذه مشكلة مختلفة وأكثر تعقيداً من مسألة التعرف إلى ما يبدو وكأنه كلام عميق. يكفي حالياً أن نقول بأن فَهْمَ السياق المحيط بالكلام يُعتبر أمراً في غاية الأهمية وذلك للحكم ما إذا كان الكلام العميق يعني حقاً ما تعتقد أنت أنه يعنيه. في الفصول اللاحقة سأعالج هذا الموضوع المهم المتعلق بالتأكد من صحة الإصغاء العميق.

لا ريب في أنه قد أصبح لديكم، حتى في هذه المرحلة المبكرة من الكتاب، فكرة عما يعنيه الإصغاء العميق وعن مدى فائدته، وستتحسن هذه الفكرة لدى المُضَي في قراءة الكتاب.

إن الكلام العميق قد يملأ مجلدات بالنسبة لمن هم مستعدون للإصغاء بعمق.

حديث يملأ مجلدات

أثناء قيامي بتأليف هذا الكتاب، كنت أتحدث هاتفياً وللمرة الأولى مع إحدى وكيلات دور النشر وأشرح لها نظريتي حول الإصغاء العميق. بعد أن قدمت لها بضعة أمثلة بدأت هي بالتعليق على الفكرة، قالت بشكل عابر إلى حد ما - ويبدو أنها كانت تفكر بكلمة «حديث» - «أتدري ما الذي لا أحبه بشأن الأحاديث في المواقف الاجتماعية؟.. أنا أكره الذهاب إلى المطاعم حيث يتحدث الجميع بصوت عال». أدت عبارتها إلى جعل هوائي استقبال الإصغاء العميق لديّ يقوم بتنبيه عقلي الواعي. سألت نفسي في تلك اللحظة: «هل يُعتَبَر تعليقُها، الذي يبدو ظاهرياً وكأنه خارج الموضوع، كلاماً عميقاً يرمي إلى إخباري بأنني كنت أتكلم على الهاتف بصوت شديد الارتفاع؟».. أجبت نفسي مباشرة: «نعم» لقد كنت أتكلم بصوت عال. عندما وعيت هذه الحقيقة، بادرت بسرعة إلى خفض صوتي. السؤال الآن هو التالي: على أي أساس تبادر إلى ذهني بأن تعليقها كان عبارة عن كلام عميق؟.. أولاً، لقد لاحظتُ منذ بعض الوقت أنني عندما كنت أركز تفكيري على شرح مادة نظريتي في الكلام العميق للمحررين على الهاتف (وهو ما كان يتعين علي القيام به مرات عدة)، كانت جملتي

العصبية غالباً ما تتحول إلى وضعية التحفز الشديد، كما كانت طبقة صوتي ودرجته ترتفعان. ثانياً - ويبقى ذلك سؤالاً بالغ الأهمية - لماذا «صادف أن» اختارت هي مثلاً عن أشخاص يتحدثون بصوت شديد الارتفاع؟.. فالمثال، رغم كل شيء، يكاد لا تربطه رابطة مع أمثلي المتعلقة بالمعاني الخفية.

قررتُ، خلافاً لعادتي، أن أبعث لها رسالة عن طريق البريد الإلكتروني أصف لها ما حدث لأرى إن كانت (أ) قد لجأت، عامدة، لاستخدام مثال عن الكلام بصوت عال وذلك كنوع من الحديث المرّمز بشكل واع بهدف جعلني أدرك أنني كنت أتكلّم بصوت عال. أو أنها (ب) كانت تعي، على الأقل، أنني كنت أتكلّم بصوت عال. لم يدهشني (بناءً على خبرتي) أنها أنكرت كلا الاحتمالين. ثم أضافت - وكانت كتابتها تحمل نبرة التبرير - بأن ذلك لم يكن، على الأرجح، مثلاً جيداً على الإصغاء العميق لأنها كانت تشكو من مشكلة بسيطة تتعلق بالسمع لذلك فإن مفتاح درجة الصوت في جهاز الهاتف لديها كان دائماً عند الحد الأعلى، مشيرة إلى أنها لم تكن لتلاحظ بأنني كنت أتكلّم بصوت عال. رغم أن ذلك يبدو ممكناً تماماً، لكنه لا يمنع من أن تكون قد لاحظتُ درجة صوتي العالية - ولو بشكل لاواع على الأقل. السبب هو التالي، فهي إذا كانت تضع مفتاح درجة الصوت في جهازها الهاتفي، على الدوام، عند الحد الأعلى لتتمكن من سماع الحديث العادي بصورة مُرضية، فإن صوتي - من حيث التعريف، سيكون أعلى من

مستوى سمعها «العادي» كما أن حقيقة أنها لم تشعر به بشكل واع لا تحمل أي تأثير على قيام جملتها العصبية بتسجيل درجة الصوت الفعلية التي كانت أعلى من الحد الطبيعي.

قلت لها، وقد قررتُ أن أعرف ما تفكر به، أنني بذلك كنت أتصرف خلاف عاداتي لأنني اكتشفت أن الناس، دون استثناء تقريباً، لا يكتفون فقط بإنكار وجود أي إدراك من جانبهم لمعنى كلامهم العميق، لكنهم غالباً ما يستجيبون لتساؤلاتي بالضحك والسخرية لأنها لا تستحق التصديق، أو أنهم قد يجيبون بلهجة تتسم بالغضب أو بالدفاع عن النفس. فالتناس لا يتقبلون بصدر رحب فكرة أن يقال لهم أنهم قد تفوهوا بأشياء لا يدركون أنهم قالوها. غير أننا نعلم أن الانطباعات الواعية ليست وحدها من حيث إمكانية التأثير على ردود فعل الفرد، بل أن الانطباعات اللاواعية لها دورها أيضاً. مَنْ بإمكانه معرفة الانطباع السلبي الذي كنت أُحدِّثُه لدى الكلام بصوت عالٍ؟.. من حسن الحظ أنني تمكنت من ملاحظة الانطباع عن طريق الكلام العميق ضمن جوابها، فقمت بخفض صوتي. لقد وجدت أن الإصغاء بعناية إلى المعنى الخفي، يمكن له أن يكون ذا فائدة كبيرة. إن هذا المثال البسيط يملأ مجلدات من الكلام عن المعنى الخفي.

إننا غالباً ما نستطيع سماع كلام عميق في أحاديث الأطفال، فالعقل اللاواعي لدى الطفل أكثر قرباً إلى وعيه من العقل اللاواعي لدى الشخص الراشد⁽²⁾. وبالتالي، فإن بإمكاننا

تَوَقَّع أن تكون المعاني اللاواعية لدى الأطفال أقرب إلى المعاني الواعية منها لدى الراشدين. أنا مدين بالمثل التالي لزميلي ديفيد ليفينغستون سميث.

في أحد صفوف مدرسة ابتدائية صاحبة في الحي اللندني «إيست إند»، جاء المُعالِج النفسي لاصطحاب تود البالغ من العمر تسع سنين. رغم أن المدرّسة كانت تعلم مُسبقاً بقدوم المُعالِج لاصطحاب تود إلا أنها «ترددت وأخذت تبدي مقاومة سلبية وتتصرف مع المُعالِج بأسلوب سلطوي» قبل السماح للطفل بمغادرة غرفة الصف. أثناء ذلك، كان الأطفال الآخرون يراقبون ما يحدث وكان «تود يشعر بالضيّق إزاء التنافس بين هاتين الشخصيتين اللتين تمثلان السلطة بالنسبة له».

لدى وصولهما إلى «غرفة العلاج، اكتشف المُعالِج أن الغرفة تجاور ردهة يملؤها الضجيج أثناء جلسة العلاج كان الأطفال في الردهة يعبثون بأكرة الباب ويقرعون بقوة». أي أن الجو لم يكن بالجو المناسب للعلاج النفسي، «فقد كان هناك بالطبع شعور بتطفل الآخرين وفقدان للخصوصية، فضلاً عن حالة الفوضى التي كانت تسود غرفة العلاج». كان أطفال آخرون قد قاموا بكسر أو سرقة كثير من الألعاب، «مما يوحي بأن طرفاً ثالثاً قد اقتحم وخرب مكاناً يُفترض فيه أن يوحي

(2) انظر مثلاً ج. بياجيه، اللُّغْب والأحلام وتقليد الطفولة (نيويورك: و. و.

نورتون، 1962).

بالأمان والخصوصية».

بدأ تود يلعب بقلعة صغيرة موجودة في غرفة المعالجة قائلاً أنه يحب روبن هود وأنه لم يُفَوّت أبداً فرصة مشاهدة فيلم عنه. ثم استرجع مشهداً من أحد الأفلام «كان فيه الأشرار يتعقبون روبن هود ورجاله الذين يملؤهم المرح والحيوية بهدف قتلهم. كان روبن هود يمتطي صهوة جواد بينما كان رجاله يستقلون عربة». تحوّل الأشرار بشكل مفاجئ عن الطريق وسقطوا من أعلى جرف شاهق. ثم بدأ تود يضع الجنود الأشرار داخل القلعة والجنود الأخيار خارجها. «كان الجنود الأشرار يتكلمون الإسبانية» والجنود الأخيار يتكلمون الإنكليزية، ثم حوّل «البرج الموجود في القلعة إلى سفينة فضائية من فيلم رحلة بين النجوم Star Trek»، وضع في داخلها عدة جنود قائلاً إنها كانت مكاناً آمناً، ثم أضاف أن «جنوداً أشراراً دخلوا إليها متظاهرين بأنهم أخيار»، وأن من السهل جداً الدخول إليها. «الآن بدأ الجنود داخل السفينة الفضائية يتقاتلون». كان تود يكشف في قصصه عن مشاعره إزاء ما حدث وهو في طريقه إلى غرفة العلاج.

هناك أولاً «صورة عصابة من الأشرار يتعقبون بعض الأشخاص الأخيار، بينما كان هؤلاء يحاولون النجاة». إن الإشارة إلى روبن هود وجماعته (= الأخيار) وهم يحاولون النجاة من الأشرار، هي على الأرجح كلام عميق عن المُدرّسة المتطفلة (= الشخص الشرير)، وعن تود ومعالجه النفسي

(= الأخيار) وهما يحاولان «النجاة» من غرفة الصف. لقد أُعدَّ المسرح هنا لقيام صراع في سبيل الأرض والحرية والخصوصية. عند المستوى المجازي، تُعتبر العلاقة بين روبن هود ورجاله وبين عمدة نوتنغهام هي الصورة الملائمة للعلاقة بين طفل عابث وبين السلطة المدرسية.

أما الخطة التي لجأ إليها روبن هود بأن جعل الأشرار يسقطون من أعلى الجرف فهي تتعلق على الأرجح «بالتخلص من أطراف ثلاثة متطفلة». (يرى سميث أنه في ألعاب الأطفال يتم عادة التخلص من الأطراف الثالثة عن طريق قتلهم). إن قيام الجنود الأشرار بالاستيلاء على المنطقة الخاصة بالجنود الأخيار قد يمثل على الأرجح شعور تود «بالتعدي على مجاله الشخصي الخاص بالعلاج»، والأشرار هنا هم الأطفال الموجودون في الردهة يقرعون الباب بقوة ويعبثون بالأكرة - إضافة لمُدْرَسته المتطفلة.

بعد ذلك قام الجنود الأشرار، الذين كانوا مخادعين يتظاهرون بأنهم حلفاء، بغزو برج القلعة الذي أصبح سفينة فضاء، أي مكاناً آمناً وضع فيه تود كثيراً من جنوده الدمى. يُرجَّح هنا أن تود كان «يُعَبِّر عن مخاوفه بخصوص حدوث تَطَلُّل خطير، من قِبَل أطراف ثلاثة متعددة» على مجاله الشخصي الخاص بالعلاج (المدرسة والأطفال الموجودون في الردهة والمعالج). كان يشعر بالوحدة. نرى في هذا السيناريو أيضاً تمثيلاً لمشاعر تود المتضاربة إزاء المعالج الذي يفتقر للكفاءة.

إن الصورة المُعبِّرة عن الخداع، حيث يستغفل الجنود الأشرار الجنود الأخيار عن طريق التظاهر بالطيبة، قد تكون إشارة إلى المعالج الذي يفتقر للكفاءة. فالمعالج، رغم كل شيء، «لم يوح بالكثير من مشاعر القوة والأمان والحماية، نستعيد هنا قيام المدرسة بفرض سلطتها عليه في بداية الأمر، كما أن المعالج، بدوره، لم يتمكن من تأمين غرفة مناسبة للمعالجة.

بالإضافة لهذا السياق، هناك دليل على أن تود كان في واقع الأمر منخرطاً في كلام عميق وعلى أن المعالج كان يُشار إليه بأنه «شخص شرير» سيئ النوعية. أولاً، هناك ناحية لغوية تثير الاهتمام وهي أن الجنود الأشرار كانوا يتكلمون الإسبانية Spanish، وذلك إذا أخذنا بالاعتبار أن معالج تود كان إيطالياً، وأن لقبه يبدأ بحرف S، ثانياً، روى تود خلال نفس الجلسة قصصاً أخرى كانت من حيث الموضوع مماثلة لهذه القصة.

الحاجة للمعرفة

إن التعرف إلى المعاني اللاواعية لا يتطلب، كما لاحظتم، فك طلاسم غامضة، والاهتداء إلى تلك المعاني لا يستدعي وجود محلل نفسي. إحدى الطرق السريعة لفهم المعاني اللاواعية والتعرف إليها هي التفكير في ما ندعوه عادة بـ «زلات اللسان والعبارات ذات المعاني المزدوجة التي تكشف أكثر من مستوى للمعنى (انظر الفصل الثاني). إن الكلام

العميق، شأنه شأن زلات اللسان والعبارات ذات المعاني المزدوجة، تتيح لنا التعرف إلى الأبعاد الأكثر عمقاً داخل عقولنا، وهذا النوع من الحديث اللاواعي أو المليء بالرموز لم تَجِرْ بعدُ مراقبته بشكل منهجي أو شرّحه من وجهة نظر علم النفس.

يتساءل معظمنا، أو بالأحرى، كل الكائنات البشرية الطبيعية - عما يفكر فيه ويشعر به أصدقاؤنا أو زملاؤنا في العمل. و أعني بذلك بماذا يفكرون ويشعرون «حقاً»، ولا أعني المظهر الكاذب الذي يعرضه الناس في المواقف الاجتماعية.

لدينا جميعاً ما يدعوه عالم النفس الإنساني إبراهيم ماسلو «حاجة للمعرفة شديدة البدائية»⁽³⁾ وقد تطورت هذه «الحاجة للمعرفة» عبر ملايين السنين. هناك عدد قليل فقط من الأسئلة المهمة التي نود نحن البشر أن نعرف جوابها. أحد تلك الأسئلة هو: كيف يعمل العقل البشري؟.. هذا الكتاب هو محاولة لصياغة جواب عن جزء، على الأقل، من هذا السؤال المهم المتعلق بكيفية عمل العقل البشري.

هذه «الحاجة للمعرفة» موجودة لدينا لأن حياتنا الاجتماعية وبقاؤنا من الناحية المادية يتطلبان ذلك، إنها حاجة أساسية إلى هذه الدرجة. وبإمكان الإصغاء بعناية إلى ما يكمن تحت

(3) آ. ه. ماسلو، تحرير، الدافع والشخصية، الطبعة الثانية (نيويورك هاربر

آند رو، 1970).

كلمات وقصص الأصدقاء وأفراد العائلة وزملاء العمل ، بإمكانه أن يكشف لنا المشاعر والهموم البشرية الأزلية المتعلقة بالمحابة والتنافس والغيرة والمشاعر الجنسية والقضايا المتعلقة بالجنسين ومشاعر القلق إزاء القيادة والسلطة فضلاً عن المواقف حيال العلاقات العنصرية والعرقية (انظر الفصل الرابع).

سأقدم الآن مثلاً آخر من مكان العمل . حضرت مؤخراً اجتماعاً إدارياً مغلقاً طويلاً ، خلال الاجتماع كان رئيس الجلسة (وسأدعوه سام) يتحدث عن رسائل البريد الإلكتروني التي كان يبعث بها إلى الإدارة بشأن قضايا عدة ، عندما انتهى سام من حديثه انبرى أحد أعضاء الهيئة التدريسية بالقول إن «الرسائل التي كان يبعثها سام عن طريق البريد الإلكتروني كانت تحوي بعض الأغلاط المطبعية وأغلاط أخرى في التهجئة ، وبأن عليه أن يكون أكثر حرصاً لأن ذلك قد ينعكس سلباً على القسم» . أقرَّ سام بما قيل دون أن يرف له جفن وتابع الاجتماع . بدا الأمر وكأن سام لم يكثر بما حصل لأن عضو الهيئة التدريسية أبدى ملاحظته بأسلوب دمث . بعد مضي خمس دقائق ، سأل عضو آخر من الهيئة التدريسية سام إن كان يمانع في إلقاء كلمة في اجتماع يجري خارج الحرم الجامعي ، بعد أن استفسر سام عن نوع الاجتماع أجاب «لا مانع طبعاً ما دام الاجتماع مختلفاً عن تلك الاجتماعات الأكاديمية حيث يتحلق الزملاء حولك ليقوموا بمهاجمتك لدى ارتكابك أدنى غلطة» . إن اللغة التي تكلم بها سام ، وقد جاءت في أعقاب النقد الذي وُجّه إليه

بسبب أغلاطه كشفت، عن مستوى عاطفي ما، عن أنه اكثرث فعلاً بشأن النقد الذي وُجِّهَ إليه علناً بسبب الأغلاط التي كان يرتكبها في بريده الإلكتروني.

يبدو مجدداً، كما في حالات كثيرة مشابهة من الكلام العميق، أن الشخص المَعْنِي - وهو سام في هذه الحالة - كان لا يدرك تماماً ما يقول. وبعبارة أخرى، قد يبدو الأمر كما لو أنه كان يُعَبِّرُ عما في نفسه عن طريق نوع من «الحديث المرمَّز». كي يجعل عضو الهيئة التدريسية يعرف بشكل غير مباشر مشاعره إزاء النقد الذي تعرَّض له. لكن كلامه لم يكن حديثاً مرمَّزاً، بل كان كلاماً عميقاً. تتساءلون كيف لي أن أعرف ذلك؟.. أعرفه لأن سام جاء لزيارتي في المنزل بعد بضعة أيام من الاجتماع، وعندما تطرق في حديثه إلى تعرُّضه للنقد شرعت في توجيه الأسئلة إليه، محاذراً ألا أوحى إليه بالإجابات أو أكشف له عما كنت بصدده. (لم يكن لديه، في تلك اللحظة، سوى فكرة غامضة عن عملي في مجال الكلام العميق). عندما انتهيت من طرح أسئلتي، شرحت له بدقة دواعي اهتمامي بما كان يدور بخلده لدى قيامه بإبداء ملاحظته. وعندما رويت له تحليلي المبطن لإجابته المتأخرة المنطوية على كلام عميق، أبدى دهشة كبيرة وأقسم بأن ملاحظته لم يكن يُقصد بها أن تكون «حديثاً مرمَّزاً»، أو تعريضاً بعضو الهيئة التدريسية. باختصار، لم يكن سام مدركاً للمعنى اللاواعي لما كان قد قاله. إن سام، بوجه عام، صريح تماماً في مثل هذه الأمور،

وهو لم يكن يكذب بشأن المعنى الذي رمى إليه . لقد انعكس شعوره الفعلي بالضيق مما وُجّه إليه من نقد في حقيقة كونه قد أثار الموضوع مشيراً إلى أنه كان يعتقد بأن ملاحظات عضو الهيئة التدريسية لم تكن تتناسب وسياق الاجتماع ، وأنه كان يتعين على زميله أن يُعَبّر عما يزعجه على انفراد . تُعَقَّد اجتماعات إدارية من هذا النوع آلاف المرات أسبوعياً في عالم الأعمال العادية وخلال معظم تلك الاجتماعات ، يدور كلام عميق .

الجماعات: كلام عميق جماعي

رغم ما نحن عليه من روح فردية ، إلا أننا نعيش في عالم تتزايد فيه الجماعات باطراد . كلما التأم شمل عدد من الأشخاص بصورة منتظمة لأي غرض مهما كان ، فإنهم بذلك يشكّلون جماعة . ويَصْدُق هذا سواء التأم شمل الجماعة لِلْعَب الورق ، أو بشكل جماعة دعم أو لجنة للقيام بأعمال واسعة النطاق أو في اجتماع فريق . والواقع أن العمل ضمن جماعات أو فرق يتنامى ليصبح حقيقة حياتية في عالم الأعمال⁽⁴⁾ . ومثلما أن الإصغاء العميق هو شأن يتعلق بالأفراد ، هناك أيضاً إصغاء عميق يتعلق بالجماعة أو بالفريق ، وكما أن هناك دروساً يمكن

(4) انظر ر. ي. هاسكيل ، إعادة تصميم التدريب ضمن الشركات : رأس المال الفكري ونقل التعلّم (نيوبورت ، كونيتيكت : كوروم بوكس ، 1998) .

تعلّمها من الإصغاء للكلام العميق فيما يخص الأفراد، هناك أيضاً دروس يمكن تعلّمها عن طريق الإصغاء العميق لحالة الجماعة أو للموقف الاجتماعي.

تلاحظون هنا أنني أشير إلى «الجماعة» كما لو أنها كينونة مستقلة، والسبب هو أنها كذلك. فالجماعات، شأنها شأن الأفراد، تمر بمراحل من التطور، وللجماعات والفرق مسارات حياتية. على امتداد تلك المسارات الحياتية هناك مشاكل وقضايا لا يمكن تفاديها، وهي مشاكل وقضايا قد تكون الجماعة إما غير مدركة لها أو أنها لا تريد الاعتراف بها بشكل علني. إن الإصغاء العميق لأحاديث الجماعة أو الأحاديث الجماعية بإمكانه كشف تلك المشاكل والقضايا. هذه نقطة مهمة لأنه على قدر تجاهل تلك القضايا والمشاكل أو الامتناع عن إيجاد حل لها، تقوم هي، بدورها، بالحد من أداء الجماعة.

إن الدرس الذي يمكن تعلّمه من الإصغاء العميق إلى الكلام العميق فيما يخص الجماعة، هو أن بإمكان القادة والأفراد البدء بمعالجة تلك المشاكل والقضايا التي يكشف عنها الكلام العميق (سواء بشكل مباشر أم غير مباشر) وذلك لمساعدة تلك الجماعات والأفراد على أداء وظائفهم بصورة أكثر فاعلية. لنر الآن كيف يمكن القيام بذلك بنجاح وماذا يمكن لمضامين الإصغاء العميق إلى الجماعات والفرق أن تكشف.

في المراحل الأولى من تأسيس الجماعة، ليس من قبيل الصدفة أن يتمحور الحديث غالباً حول مشاكل الأداء الوظيفي

في «عمل جديد» أو حول «كون الفرد حديث العهد بالزواج» أو حول «فترات التكيف» أو حول مواضيع أخرى تتعلق بالبدائيات وعملية التكيف. تعتبر هذه المواضيع، في المراحل الأولى من تأسيس الجماعة، كلاماً عميقاً يرمي إلى التعبير عن الاهتمامات الراهنة لأعضاء الجماعة الذين يسعون للتعرف إلى بعضهم بعضاً، وتشمل تلك الاهتمامات المودة الجماعية وأشكال التواصل والمشاكل المتعلقة بالحفاظ على هوية مستقلة لدى الاندماج في ثقافة الجماعة وأعرافها. إن بإمكان تلك الأحاديث البسيطة أن تنبئ الكثير عن حالة الجماعة وعن مرحلة التطور التي وصلت إليها.

لنفترض مثلاً، أن الكلام يدور حول «سير الأمور بشكل مُرضٍ» في عمل جديد أو في زيجة جديدة، إن هذا من شأنه أن ينبئك بأشياء عن الجماعة تكون مختلفة تماماً عما هو الحال لو كان الكلام يدور حول «المشاكل» الموجودة في عمل جديد أو زيجة جديدة، وبخاصة إذا كان حديث الجماعة الحرفي الواعي يبدو وكأنه يوحي بأن الأعضاء يعتقدون بأن أمور الجماعة تسير على خير ما يرام. إن الكلام نفسه، إذا كان مقتصرًا على فرد أو اثنين من أعضاء الجماعة، من شأنه أن ينبئك بشيء مختلف، كما أن بإمكان هذا الكلام العميق أن ينبئك بشيء مختلف آخر وذلك حسب ما يبدو وكأن المعنى الظاهري للكلام يود التعبير عنه.

كما في كثير من الزيجات بعد انتهاء شهر العسل، تنتقل

الجماعات عادة إلى مرحلة يدور فيها نزاع حول القواعد التي سيُعمل بها وحول التركيبة القيادية التي بدأت بالتشكُّل. ضمن معظم الجماعات، نادراً ما يجري بحث تلك المشاغل علناً، وحتى في حال بحثها، فإن المشاعر الأعمق التي تكمن تحتها قد لا يتم التعبير عنها بشكل صريح. خلال هذه الفترة، تتمحور مواضيع الكلام العميق غالباً حول التنافس والنزاع. قد يجري اختيار الأفلام السينمائية كموضوع للحديث. فمن بين جميع الموضوعات السينمائية التي يمكن اختيارها، قد يكون فيلم «حرب النجوم Star war» هو الفيلم المُختار. إن كلمة «نجم» في اسم الفيلم يمكن أن تكون كلاماً عميقاً حول فرد من المجموعة أخذ يبرز كقائد أو كشخصية مسيطرة على فريق ضمن الجماعة، كما أن كلمة «حرب» تشير بوضوح إلى التنافس والنزاع اللذين يدوران في الخفاء بين أعضاء الجماعة. في أحيان أخرى، قد تتناول الموضوعات التي اختيرت لتعبر عن المشاعر بشكل لا واع أفلام الكوارث التي تكون فيها جماعات من الناس معتمدة على بعضها بعضاً، أو جماعات مشهورة آخذة بالتفكك. من الواضح، إذًا، أن الإصغاء العميق يمكن له أن يقول الكثير عما قد يكون سارياً تحت السطح عند المستوى العاطفي للجماعة.

إذا افترضنا أن الجماعة لم ينته بها الأمر إلى الإحساس بجو الحرب أو الكارثة، أو أن إحساسها بهذا الجو لم يستمر، نرى أنها تنتقل إلى مرحلة يكون فيها الأعضاء مستعدين لإرساء

قواعد نظم ومعايير جماعية بحيث يتمكنون من أداء مهامهم. مرة أخرى، قد يكون الكلام الظاهري الذي يدور بشأن هذه العملية مختلفاً تماماً عما يحدث فعلاً. فهناك إمكانية أن تبدأ هذه العملية بنقاش يتعلق «بمشاكل المرور» والحاجة لوضع قواعد لتنظيم «دفع حركة المرور». قد يكون هذا كلاماً عميقاً يتعلق بضرورة الاعتراف بالحاجة لوضع قواعد تُوجّه التعامل بين أعضاء الجماعة. في حال انحصر النقاش ضمن الجماعة حول «اختناقات حركة المرور»، عليك التزام الحذر. لكن الكلام عن «قيام الكونغرس بمحاولة التوصل إلى تسوية بشأن مسودة قانون» قد يحمل بشرى طيبة عن الاتجاه التي تمضي فيه الجماعة.

عندما تتمكن الجماعة، في نهاية المطاف، من تجاوز تلك المشاعر الدفينة اللاواعية، يستطيع الأفراد عندها الالتفات إلى أداء عملهم الحقيقي. قد يسبق تلك المرحلة كلام عميق حول كيفية «زراعة النباتات بنجاح»، أو «بناء المنازل»، أو «تجديد التصميم»، أو حول قصص عن «مشاكل عائلية جرى حلّها». إن الإصغاء بعمق إلى حديث جماعة أو فريق أو إلى معنى موقف اجتماعي ما، يمكن أن يكون وسيلة فعالة للتقييم.

علي أن أشير هنا إلى أن تلك المراحل ليست متعاقبة أو منفصلة بالقدر الذي تبدو عليه للوهلة الأولى، هناك إمكانية تواجد أكثر من مرحلة في وقت واحد وإن بدرجات مختلفة وعند مستويات متفاوتة. فضمن جماعة تقوم بمهمة واضحة، جرى إنشاؤها في الأساس من قِبَل قائد لها (كما في اجتماعات

العمل)، قد يبدو الأفراد كما لو أنهم يشرعون مباشرة بأداء المطلوب منهم، لكن القضايا الدفينة التي أشرت إليها آنفاً تقوم غالباً بالحد من سوية الأداء، إضافة إلى أن أعضاء الجماعة المختلفين قد يشعرون كأفراد بأحاسيس وهموم تتوزع على مراحل مختلفة، بعبارة أخرى، هناك احتمال إثارة كل القضايا في أي مرحلة كانت.

لا بد أخيراً من أن تصل معظم الجماعات إلى نقطة نهاية، إما نهاية جلسات محددة أو نهاية مهمة الجماعة. قد يسبق لحظة انقراط عقد جماعة ما، أو لحظة إنهاء حديث اجتماعي، كلام عميق بشكل نقاشات حول «الموت»، أو «الجنائزات»، أو «الطلاق» أو حول أية موضوعات أخرى تتعلق بنهاية ما أو بإنهاء أمر ما. لقد بدأ يتعاظم إدراكي لقدرتي على التكهن، في اجتماعات اللجان، بأن الجو العام بدأ يتحوّل باتجاه فض الاجتماع، حتى ولو لم يكن هناك حدّ زمني يحتم ذلك وبالرغم من أن المناخ السائد لا يوحي بانتهاء الاجتماع خلال وقت قصير. مثلاً، خلال اجتماع إحدى اللجان التي كانت تناقش مسألة تجديد المنهاج الدراسي، تحوّل موضوع النقاش قليلاً ليتناول «المدارس الخاصة التي كانت تغلق أبوابها» نظراً لانعدام اهتمام الطلبة بمناهجها الدراسية.

لقد قامت توقعاتي المتعلقة بفض الاجتماع، جزئياً، على الأسس التالية: أولاً، هناك حقيقة أن الموضوع الحرفي للحديث كان يتعلق «بالإغلاق». ثانياً، كان موضوع الحديث

يتعلق «بالمدارس الخاصة» وكانت اللجنة تعقد اجتماعها في مدرسة خاصة. ثالثاً، قبل بضع دقائق من بداية هذا الحديث، استأذن أحد أعضاء اللجنة وغادر الاجتماع. إن قيام أحدهم بمغادرة الجماعة قد يُفهم أحياناً (إما بشكل واع أو غير واع) على أنه إيعاز بفض الاجتماع. بدأتُ ألاحظ، بعد ذلك، أنه في مواقف يومية أخرى، كانت الموضوعات المتعلقة بالانتهاء، كالموت مثلاً، أو الذهاب لقضاء إجازة، كانت تُثار ضمن الأحاديث الجماعية قبيل انتهاء الحديث مباشرة.

إن المناقشات المتعلقة بموضوعات من نوع الموت أو الطلاق أو الهجران لا توحى جميعها، بالضرورة، بنهاية جماعة ما، أو بإنهاء هذه الجماعة. فهذه المناقشات يمكن لها أحياناً أن تعني شيئاً مختلفاً. هنا يكتسب الإصغاء العميق المُتمهّل لسياق المناقشات أهميةً في عملية فَهْم معنى الكلام العميق. فقد تكون تلك الموضوعات عبارة عن كلام عميق حول فقدان أحد أفراد الجماعة (كما لاحظنا سابقاً) أو حول غياب فرد آخر. إن الطرق المتعددة التي يمكن بواسطتها لأي موضوع حَرْفِي ما أن يعني أشياء مختلفة ضمن سياقات مختلفة، هذه الطرق توضح أهمية سياق الموقف وأهمية وجود طريقة للضبط والتَحَقُّق وذلك من أجل تأكيد المعاني المُستخلصة من الإصغاء العميق.

لقد وَلَدَتْهُمْ أُمَّهُاتُهُمْ أَحْرَاراً

أشعر الآن بالحاجة لأن أتحدث قليلاً عن ردود الأفعال المتشككة التي يبديها بعضهم إزاء الإصغاء العميق. بعد أن قمت بشرح الفكرة الأساسية للإصغاء العميق، عن طريق تقديم أمثلة متعددة، قد يساوركم الشك نوعاً ما، إن جاز لي التعبير بأسلوب لطيف. أستأذن هنا بالقول، ولو أنني أجازف بأن أبدو كما لو أنني أفتر كلياً للتواضع، إنكم لم تَطَّلِعُوا بعد على الجانب المشرق من الأمر.

أحد الأسباب الرئيسة التي تدعو معظم الناس إلى مواجهة الاعتقاد بحقيقة الإصغاء العميق بالشك والسخط الواضح، هو أن ذلك الاعتقاد يبدو كما لو أنه يشكل إهانة لشعور الفرد بالاستقلالية والقدرة على تقرير المصير، أي ما يُعرَف بالإرادة الحرة. سأوضح لكم ما أقصد بكلامي هذا.

لنفترض أنني بعد أن أخبرْتُك بأنك شخص رائع وذكي ومُجِدِّ ووسيم وتتمتع بتفكير سليم، طلبْتُ منك خدمة يسيرة ووعدتني أنت بلطف بأنك ستنفِّذ لي ما طلبت. لنفترض الآن أنك، بعد توقف قصير ساد الحرج بسبب الإطراء الكبير الذي وُجِّه إليك، تابعت حديثك السابق حول عملك الجديد. خلال هذا الحديث تقول أنت بشكل عَرَضِي تماماً: «لقد نسيت أن أخبركم عن مديري الجديد. إنه أكثر الأشخاص الذين قابلتُهم حباً للاستغلال، لدرجة أنه لا يكلف نفسه عناء إخفاء ذلك». لنفترض، لمجرد متابعة النقاش، أن ملاحظتك هذه هي في

حقيقة الأمر كلام عميق يُشكّل ردّ فعلك إزاء قيامي بتملّكك (أي باستغلالك) عن طريق إخبارك بمدى روعتك لقاء قيامك بأداء الخدمة التي طلبتها منك. بتعبير آخر، إن القصة التي رويتها عن مديرك كانت في الواقع عني أنا.

لنفترض أننا كنا نتحدث في اليوم التالي حول أبحاثي المتعلقة بالكلام العميق وأنني، على سبيل الإيضاح، لجأت للاستعانة بالحديث الذي دار بيننا في اليوم السابق حول المدير الاستغلالي، وأخبرتك أن الحديث كان كلاماً عميقاً وأنت كنت تقول لي بأنني لست استغلالياً فقط بل إنني أفتقر للكياسة اللازمة لإخفاء ذلك. ستقوم على الأرجح بالإنكار لأن ذلك لم يكن ما قصدته بشكل واع. وتمضي قائلاً (مفترضاً بأن ما تقوله صحيح) إنك لم تفكر حتى بالربط بين الإطراء الموجّه إليك وبين طلبي منك أداء خدمة. لقد تعلمت من خلال خبرتي أنك ستتخذ موقفاً دفاعياً أو ساخطاً أو غاضباً أو متشككاً، أو أنك ستتخذ المواقف الأربعة جميعاً.

خلاصة القول، إن المعنى اللاواعي الذي خلعتّه أنا على ما قلته لا يتناسب مع ما أحسست به أنت. كان معنى غريباً عن الذات ego-alien، كما نقول في مجال مهنتنا، غريباً عن إحساسك بالذات وبالاستقلالية، تماماً مثلما ننكر أن أحلامنا إنما تتولد عن ذاتنا نتيجة إرادتنا الحرة، بالتالي فنحن نتصل من مسؤولية أية صور قد تحملها تلك الأحلام بشكل خاص إذا كان حلماً رأيت فيه أنك تقتل أعز صديق لديك. تلك هي إحدى

جوانب مشكلة الإرادة الحرة. هناك جانب آخر ينطوي على الاعتقاد بأننا نمتلك عقلاً حراً.

كما أشرت في بداية هذا الفصل، إن اللغو الذي يبدو في ظاهره عشوائياً يُعتبر من قِبَل معظم الباحثين وكأنه كلام يُطلق على عواهنه لا يخضع للقواعد النيوتونية Newtonian، كما هو حال معظم أجزاء الكون من حولنا. هذا الاعتقاد بوجود إرادة حرة تتمتع بالاستقلالية، ينطبق بشكل خاص على عقلنا وعلى ذاتنا لدى قيامنا بالحديث. ولكن، هل هذا الاعتقاد صحيح، أم أنه يندرج ضمن إطار الرأي القائل بأننا نعيش على كوكب مسطح؟.. أعتقد بأن الرأي الثاني هو الأكثر جدارة بالتصديق، على الأقل فيما يتعلق بذاتنا الواعية.

ليس هناك من سبب يُحتم أن يكون العقل البشري والأحداث التي نتبادلها أقل انتظاماً وخضوعاً للقواعد من بقية الكون الطبيعي. ما الذي يمنع فعلاً وجود، كما في الفيزياء، «جسيمات افتراضية quarks» إدراكية و«خيوط من الرموز strings» خاصة بالمعنى إضافة لتراكيب أساسية أخرى في العقل تتولد عنها جميع تشكيلات المعنى الأخرى ذات المستوى الأعلى؟.. والواقع أن هذا الكتاب يركز على افتراض إينشتايني Einsteinian يقول بأن العقل لا يخضع للصدفة وبأن عالمنا العقلي منظم شأنه شأن الكون الفيزيائي من حولنا وليس وليد الصدفة. أعترف هنا بأن ما قلته قد يحمل بعض المبالغة، لكنها ليست بالمبالغة الكبيرة.

ولا ننسى بأن علينا أن نتساءل، لدى تحليل الكلام العميق، لماذا نختار في أحاديثنا كلمات أو عبارات أو جمل أو قصص أو موضوعات بعينها؟.. ما سبب اختيارها في وقت ما بالذات؟.. ولماذا يجري التعبير بطريقة معينة، قد تكون غريبة في بعض الأحيان؟.. إن الإجابة بالقول «هذه هي طريقتنا في الكلام» لا تقدم أي تفسير، بل إنها تطرح السؤال. هناك ما هو أسوأ، فالإجابة بالقول «مهما تكن التعقيدات، فإنها قد جاءت نتيجة إرادة حرة»، تعني وضع تحليل الحديث واللغة خارج متناول العلم.

الإصغاء العميق والعقل المبطن

أود الآن إطلاعكم بشكل أولي على ما أدعوه بالعقل المبطن⁽⁵⁾. العقل المبطن يستدعي وجود ما أدعوه أيضاً باللغة المبطنة والمعنى المبطن وما أطلقت عليه من باب الاختصار، الكلام العميق الذي نقوم بالإصغاء إليه إصغاءً عميقاً. كما أشرت بإيجاز في المقدمة، يشير تعبير «مبطن» إلى المعاني اللاواعية unconscious للكلمات، وهي المعاني التي ترتبط بالمعنى الواعي المقبول والمتعارف عليه، أي بالمعنى الحرفي لتلك الكلمات. وعلى هذا، فإن الإصغاء العميق يشير إلى عملية كشف النقاب عن المعنى الكامن تحت المعنى الحرفي

(5) من أجل شرح أكثر دقة للعقل المبطن والمفاهيم الأخرى في هذا الكتاب، انظر كتابي «بين السطور: المعنى اللاواعي في الحديث اليومي».

أي عن المعنى المبطن. إن المعنى الحرفي لاسم العَلَم «الموتى الممتنون»، مثلاً، يشير بالطبع إلى فريق موسيقى الروك. لكن المعنى المبطن - كما لاحظنا - يتضمن استخدام كلمة «ممتنون» كصفة تحدد معنى كلمة «الموتى».

لقد قمت بصياغة تعبير «المبطن» في مقاربتى لموضوع المعنى والعقل اللاواعيين واللغة اللاواعية وذلك لسببين مهمين. الأول، أن المفهوم يحل محل التعبيرات الفرويدية Freudian التقليدية مثل المعنى الكامن latent أو المعنى اللاواعي unconscious أو المعنى الرمزي symbolic. كما أنه يحل محل التعبير اللغوي «المجاز metaphor» من حيث استخدامه للإشارة إلى معنى رمزي أو معنى ضمني implied أو تشبيهه figurative في لغتنا الحالية⁽⁶⁾. إن تغيير الاسم هذا ليس تلاعباً لفظياً بل هو تمييز مهم يتعلق بالمفاهيم. وهذا هو ما دفعني لتطوير مفهوم العقل المبطن وذلك لأتمكن عن طريق فكرة شائعة، مكتملة المعنى تقريباً، عن العقل اللاواعي، من صياغة مجموعة من المبادئ والمناهج المحسوسة التي ترمي إلى فهم المعنى المبطن والتعرف إليه.

إن ما أدعوه بالعقل المبطن ليس ثقباً أسود غامضاً يقبع تحت عقلنا الواعي، كما يُصوِّره التفكير السائد بشأن العقل

(6) انظر ر. ي. هاسكيل «القلب الأساسي لكلام المجموعة: منهج تجريبي للتحليل والإثبات» سلوك المجموعات الصغيرة، 2 (1982): 419-443.

اللاواعي. فالعمليات التي يتركب منها العقل اللاواعي المبطن هي عمليات حقيقية، إنها قائمة في تركيبة معقدة من الدارات العصبية الموجودة ضمن سلسلة متعددة المستويات من الشبكات المرتبطة ببعضها. كما أن الفكرة القائلة بأن كثيراً من العمليات اللغوية هي عمليات لاواعية ليست بالفكرة الجديدة، فمن المُعترف به عالمياً، على سبيل المثال، أن القدر الأعظم من الاستخدام العادي للغة يجري بصورة لاواعية. ونحن عندما نتحدث لا نكون واعين لمئات القواعد اللغوية التي نستخدمها. هذه العمليات اللغوية اللاواعية ترتبط، ضمن العقل المبطن، بالحالات العاطفية والشعورية التي تسهم، بشكل ما، في خلق الكلام العميق.

علي أن أضيف هنا أن العقل المبطن لا يوجد بشكل جزء متكامل دائم في الدماغ المحسوس، بل إن هناك دارات وشبكات مختلفة يجري استخدامها في أوقات مختلفة. والواقع أن العقل اللاواعي المبطن يزل وينزلق من حالة لا واعية عميقة، لا سبيل إلى الوصول إليها، إلى حالة واعية جزئياً. سنرى في هذا الكتاب أمثلة عن إدراك المعنى المبطن بشكل تقريبي، كما في حالة إدراك الناس مباشرة لزلّة اللسان التي تفوهوا بها للتو.

ما أعنيه بقولي أن العقل المبطن قد يكون في بعض الأحيان واعياً جزئياً هو أن قسماً منه قد يكون واعياً تماماً، كما هي الحال عندما يحمل الناس مشاعر وأفكار يعون وجودها

لكنهم يخفونها عن الآخرين بسبب الخوف أو اللياقة الاجتماعية أو المُحرّمات taboos. ضمن ظروف كهذه، يبدأ تشغيل الأجزاء الأخرى من العقل اللاواعي المبطن - أي تلك التركيبية المعقدة من الدارات والشبكات العصبية التي تؤدي لحدوث العمليات الإدراكية واللغوية - بنفس الطريقة التي يجري التشغيل بها عندما تكون الأحاسيس لا واعية بشكل كلي. إن بعض الاصطلاحات الأكثر تقليدية، الخاصة بالمستويات المختلفة من الوظائف اللاواعية - مثل مستوى ما قبل الوعي preconscious أو مستوى ما دون الوعي subconscious أو مستوى الوعي المُلازم co-conscious هذه الاصطلاحات يمكن مساواتها بشكل تقريبي بالمستويات المتعددة للعقل اللاواعي المبطن التي تعمل في أوقات مختلفة. العقل المبطن، إذاً، غالباً ما يكون مزيجاً من العمليات الواعية وتلك اللاواعية، كما أنه غالباً ما يتأرجح جيئةً وذهاباً بين هاتين الحالتين. (لمعرفة المزيد بهذا الشأن راجع كتابي «ما بين السطور»).

من المفيد هنا أن أقدم وصفاً موجزاً للظروف العامة الاجتماعية والنفسية التي تؤدي لخلق أحداث مبطنة ضمن أجواء الحياة اليومية. إن فهم هذه الظروف يمدُّنا بدلائل تساعدنا على التعرف إلى الأحداث المبطنة لدى سماعها.

بعض الظروف والمبادئ الخاصة بالإصغاء العميق

هناك أحد عشر مبدأ للإصغاء العميق، فهُم هذه المبادئ

يساعدك على أن تصغي بعمق وعلى أن تدرك أن هناك كلاماً عميقاً يدور أمامك. إن الظروف الاجتماعية التي تحيط بالأحاديث والتي يجب البحث عنها هي تلك الظروف غير الرسمية التي لا تنطوي على قدر كبير من النظام ولا تحددها قواعد أو برنامج أو هدف. نحن غالباً ما نصادف ظروفًا كهذه في استراحات شرب القهوة أو في الحفلات أو في لقاءات اجتماعية حديثة العهد ويشمل ذلك أيضاً الأحاديث المسترسلة لدى بداية قيام علاقات شخصية جديدة. إن الظروف الاجتماعية من هذا النوع يمكن وصفها بأنها «مجرد تسكع وكلام لا أكثر». والأحاديث من هذا النوع، شأنها شأن القسم الأكبر من حياتنا، تجري ضمن مُحَرَّمات اجتماعية ضمنية وقواعد لياقة ومعايير اجتماعية أخرى وتوقعات تميل للحيلولة دون التعبير الصريح عن المشاعر وعما يدور في الأذهان بشكل فعلي.

ينبغي التأكيد أيضاً على أن الأسلوب التقليدي للقيادة في مجموعات التدريب يجب أن يكون خالياً من التوجيه، فالمدرّب/القائد يجلس صامتاً نسبياً معظم الوقت، مما يخلق حالة من القلق والغموض وعدم اليقين. فالقائد، خلال المراحل الأولى، من تطور الجماعة، هو الشاغل الرئيسي للأفراد (كما هو شأن مدير صامت نسبياً أو متحفظ ضمن جو العمل أو والد صامت في المنزل). ضمن هذا الفراغ يقوم أفراد مجموعة التدريب أو المشاركون في أحاديث اجتماعية أو أحاديث تخصص العمل، يقومون بطرح همومهم وأحاسيسهم. هناك أيضاً مسألة

التنافس على جذب اهتمام المدرب/القائد كما هو الحال في المواقف المشابهة في الحياة اليومية .

الأحاديث المجزوءة أو المُعلَّقة التي تضم الكلام العميق تجري، إذاً، في ظل ظروف من الغموض وعدم اليقين كما تميل لخلق مشاعر قوية من القلق والإثارة العاطفية الزائدة لدى الناس . هذه الظروف مجتمعة تخلق وضعاً إدراكياً يتم فيه تنشيط مخططاتنا schemas العاطفية واللغوية اللاواعية لتندمج تلك المخططات ضمن أسلوب استخدامنا للغة، وهو الأسلوب الذي يكون واعياً ضمن ظروف مغايرة، لتقوم بصياغته . يُعتبر هذا القلب الاجتماعي، إلى حد ما، هو منشأ الكلام العميق وسنرى ذلك مرة بعد أخرى ضمن سياق الكتاب .

المبدأ الأول: ظروف الحديث . إن الظروف المثلى للإصغاء العميق هي: تركيبة اجتماعية غير صارمة وغموض وعدم يقين وشعور بالقلق . كلما أخذ الحديث مساراً أكثر انسيابية وعفوية، غلب احتمال تنشيط العمليات اللاواعية وتداخل الكلام العميق ضمن المواضيع الحرفية .

المبدأ الثاني: معرفة الموقف . كلما زادت معرفة المرء بالموقف الذي يجري فيه الحديث، أي معرفته بالسياق الاجتماعي للموقف وبالأشخاص الضالعين فيه وبالقضايا المطروحة والخلافات والتوقعات، ازدادت قدرته على وضع هذه المعرفة في موقعها الصحيح ضمن الحديث الحرفي .

المبدأ الثالث: الإثارة العاطفية. في ظل الظروف الآتفة الذكر، ولدى تعاضم مستويات الإثارة العاطفية، يُخلَق وضع إدراكي يتم فيه تنشيط المخططات اللاواعية ذات التأثير العاطفي لتندمج تلك المخططات ضمن أسلوب استخدامنا الواعي للغة وتقوم بصياغته.

المبدأ الرابع: الشحن العاطفي. تتولد المادة المبطنّة بالشكل الأمثل عن قضايا واهتمامات محددة تحمل شحنة عاطفية وذلك بالإضافة للإثارة العاطفية ذات الطبيعة العامة.

المبدأ الخامس: الرقابة الاجتماعية. كلما زادت المُحرّمات الاجتماعية وقواعد اللياقة والمعايير الاجتماعية الأخرى التي تَحُول دون التعبير الحرّ عن المشاعر والأفكار، ازداد احتمال حدوث الكلام العميق.

المبدأ السادس: لحظات الصمت. كلما كثرت لحظات الصمت وانقطاع الحديث التي يسودها الحرج أثناء محادثة ما، ازداد احتمال بدء كلام عميق، بعد لحظات الصمت والانقطاع المخرجة، مباشرة.

المبدأ السابع: الخلافات. كلما كثرت الخلافات الواعية أو اللاواعية بين المشاركين في حديث ما، زاد احتمال حدوث كلام عميق.

المبدأ الثامن: الارتباط. يغلب أن يكون الموضوع مبطناً إذا كان له ارتباط زمني، أي إذا جاء مباشرة بعد موضوع آخر

(وبخاصة بعد فترة صمت أو انقطاع الحديث).

المبدأ التاسع: انتقاء الموضوع. يتم «انتقاء» الموضوعات المبطنّة بسبب ارتباطها بالمشاعر التي تراود المشاركين أثناء الحديث. من المهم أن ندرك هنا أن عدداً كبيراً من الموضوعات يمكن لها أن تُثار خلال أي حديث، يبقى السؤال المهم: لماذا جرى انتقاء تلك الموضوعات بعينها من بين كل الموضوعات المحتملة؟..

المبدأ العاشر: انتقاء المفردات. إضافة لانتقاء الموضوعات، يُشكّل انتقاء كلمة أو عبارة بعينها عملية اختيار من بين عدد كبير من المرادفات الممكنة (أي من قاموسنا العقلي الذي يضم الكلمات مع كل ما تحمله من مقاطع أساسية وأصوات مرتبطة بها) أو من بين الخيارات اللفظية.

المبدأ الحادي عشر: تحديد الموقع. يمكن القول بوجود كلام عميق ضمن حديث ما عندما يكون باستطاعتنا البرهنة على أن هذا الكلام يحوي تركيبة موازية يمكن لها أن تشغل موقعاً محدداً في الحديث الدائر.

يُعتبر عالمُ الحياة اليومية مختبراً طبيعياً ضخماً يمكنك فيه أن تلاحظ الكلام العميق وأن تصغي إليه بعمق. ومع أنه لا وجود لما يسمى بقراءة الأفكار، إلا أن الإصغاء العميق هو أقرب ما يمكن إلى قراءة الأفكار.

إن خير وسيلة لتعلم كيفية التعرف إلى الكلام العميق هي

قراءة أكبر عدد ممكن من الأمثلة عن هذا الكلام. نحن نعرف عن طريق علم النفس الإدراكي والتربوي أن مواجهة الكثير من الأمثلة يمكن أن تؤدي إلى تطوير ما ندعوه بالمخططات العقلية. المخطط schema هو شكل pattern أو قالب template من نوع ما يساعدنا على ترتيب أو على فرض قدر من النظام على التعقيد الواضح المحيط بنا. هذا ما دفعني إلى حشد كل تلك الأمثلة عن الإصغاء العميق داخل دفتي الكتاب، فأنت لدى قراءة الكتاب، إنما تقوم بشكل مُتَّرد بوضع مخططات عقلية أو قوالب تساعدك على الإصغاء العميق للأحاديث.

حول الأنفاق الهوائية ومجموعات التدريب:

أوجه التشابه بين مجموعات التدريب والأحاديث الاجتماعية اليومية

مجموعات التدريب هي نوع خاص من المجموعات التي تخضع لتدريب معيّن تقوم من خلاله مجموعة، تتألف عادة من عشرة إلى خمسة عشر مشتركاً، بتعلّم الكيفية التي تؤدي بها الجماعات والفرق الصغيرة عملها وذلك عن طريق العمل كمجموعة فعلية. الأسلوب المُتَّبَع عادة في هذه الحالة هو ألا يقوم «القائد» بالقيادة، أن يمتنع عن التوجيه. وبما أن كثيراً من الأمثلة الموضّحة التي أقدمها مستمدة من مجموعات التدريب الخاصة بي، فقد تعتبرونها أمثلة غير نموذجية عن الكلام العميق الذي يدور في حياتنا اليومية. الأمر ليس على هذا النحو، فتلك

الأمثلة، في الواقع، شبيهة تماماً بالأحداث التي تدور في المواقف اليومية الطبيعية. إن المقارنة بين الأمثلة المستقاة من مجموعة التدريب الخاصة بي وبين الأمثلة التي أقدمها من الأحداث اليومية تُظهر بجلاء أن الهموم الشخصية والعمليات الإدراكية هي ذاتها في الحالتين. فالموقف ضمن جو مجموعة التدريب هو بمثابة عالم مُصغّر microcosm أو نموذج عن المواقف الخاصة بالأحداث اليومية، إنه نسخة مجهرية magnified مكثفة عن التفاعلات الكلامية اليومية. عليك أن تتخيل هنا أن مجموعة التدريب هي المكافئ الاجتماعي لنموذج مُصغّر لطائرة موضوعة داخل نفق هوائي يستخدمه مهندسو الطيران لمحاكاة تأثير الرياح على الطائرة ضمن شروط الطيران اليومية. وعلى نحو مماثل، يمكن اعتبار مجموعة التدريب نموذجاً مصغراً للمواقف الاجتماعية، واعتبار أن الظروف الخاصة التي تؤثر على مجموعة التدريب يمكن مقارنتها بالرياح الموجودة في النفق الهوائي الخاص بمهندسي الطيران. والواقع أن كل الاختبارات النفسية إنما هي نماذج مُصغّرة للحياة اليومية. عالم الحياة اليومية بحد ذاته هو مختبر طبيعي بإمكان كل فرد فيه أن يلاحظ ما يجري وأن يقوم باختبارات تتعلق بالإصغاء العميق.

ولما كانت مجموعة التدريب هي نسخة مُصغّرة micro version مكثفة عن الأحداث الاجتماعية اليومية، سواء منها الأحداث العرضية أم تلك المتعلقة بالعمل، فإن إعطاء أمثلة

توضيحية مستقاة من مجموعات التدريب يسمح لي بتقديم نماذج من الكلام العميق أكثر تنوعاً مما لو لجأت للاستفادة من خبرتي اليومية الشخصية. وفضلاً عن ذلك، نحن عندما نألفُ فكرة الإصغاء العميق، نصبح قادرين على إضافة أمثلتنا الخاصة وهو ما قام به أصدقائي وزملائي.

سأختتم هذا الفصل بالقول أنه إما أن تكون التحليلات التي قدمتها في هذا الكتاب بشأن الكلام العميق قد جاءت نتيجة انغماسي في أوهام فصامية Schizophrenic عُصابية Paranoid صِرْفة، أو أننا بدأنا في التعرف إلى شيء لم نكن نعرفه قبلاً بشأن الكيفية التي يعمل بها العقل. دعونا الآن نرى المزيد مما يقوم به العقل خلال الحديث. إنه يذهب إلى أعماق أبعد، فأبعد.



زَلَّاتُ لِسَانٍ أَمْ «زَلَّاتُ» أَفْكَارُ: كُنْ جَاداً، يَا سَيِّدِي الرَّئِيسَ

لن يدهشني أن يكشف لنا الشعراء أموراً تتعلق بزلات
اللسان أكثر مما يكشفه علماء فقه اللغة والأطباء النفسيون.

سيغموند فرويد
مقدمة عامة للتحليل النفسي⁽¹⁾

إن فكرة زلات اللسان معروفة لدينا جميعاً، وبخاصة منها
الزلات التي تبدو كما لو أنها تزيج الستار عن معنى لاواع، أي
تلك المعروفة باسم الزلات الفرويدية. هناك فكرة سائدة بين
الناس مفادها أن فرويد هو الذي اكتشف هذا النوع من زلات
اللسان. لكن فرويد لم يكتشفها (انظر الفصل الخامس). أحد
الأمثلة التقليدية التي قدمها فرويد يتناول رئيس مجلس النواب

(1) س. فرويد، مقدمة عامة للتحليل النفسي (نيويورك: واشنطن سكوير
پرس، 1960) 40.

النمساوي الذي افتتح الجلسة بالإعلان أن الجلسة قد (اخْتُمَت)، برأي فرويد أن الرئيس كان يتمنى في اللاوعي لو أن الجلسة لا تنعقد. من وجهة نظر العقل الواعي والمعاني المقصودة، تُعتبر زلات كهذه بمثابة «الأخطاء». هناك زلات أخرى تُعتبر أخطاء عادية أو أغلاط لغوية، كالأخطاء الآلية التقليدية الناجمة عن السهو التي تُدعى عادة بالأخطاء السبونرية spoonerisms، على اسم رجل الدين والعالم البريطاني ويليام أرشيبالد سبونر (1844-1930). فقد يقصد شخص ما أن يقول، مثلاً، «دعني أرشدك إلى مقعدك»، «Allow me to show you to your seat».

لكنه يقول بدل ذلك: «دعني أخيطك إلى ملاءتك» «Allow me to sew you to your sheet»، أي أنه يخطئ في لفظ كلٍ من كلمتي show, sew وكلمتي seat, sheet. لا شك بأن بعض الزلات لا تعدو كونها أخطاء من هذا النوع يمكن تفسيرها لغوياً على أنها غلطة آلية ناجمة عن السهو، لكن ليس كل الزلات. فالأخطاء السبونرية والأنواع الأخرى من الزلات اللفظية الناشئة عن أغلاط آلية لا تتكوّن من المادة المناسبة في العقل اللاواعي.

إن تعبير: «زلة أفكار»، الذي أقوم أنا باستخدامه، مأخوذٌ عن تعبير زلة لسان بالمعنى الفرويدي. ورغم أن كلا التعبيرين يتضمن فكرة كشف معنى لا واع، إلا أنهما ليسا متماثلين. فزلات اللسان تتسم إلى حد كبير بزلات في المعنى تتناول

كلمات مفردة. نرى في المقابل، أن زلات الأفكار تكون أكثر شمولاً من الناحية اللغوية وقد تتطلب تعابير معقدة وجمالاً بأكملها، وقصصاً متكاملة للتعبير عن المعنى المزدوج فيها، إنها ليست، من حيث الواقع، زلات بأي شكل من الأشكال، وهي تقوم على أساس معانٍ متوازية. إنها ما أسميته بالكلام العميق الذي يكشف معنى لا واعياً. حتى الزلات الفرويدية، شأنها شأن الأغلاط الكلامية الآلية البسيطة، لا تتكون من المادة المناسبة.

تتسم الأساليب التي تعمل بها عقولنا بالغرابة. لقد راود ذهني تعبير «زلات الأفكار» لأول مرة عندما كنت أفكر ملياً في التوريات وزلات اللسان وذلك فيما يخص علاقتها بالعقل اللاواعي. بينما كنت مستغرقاً في التفكير، خطرت ببالي الفكرة المماثلة، وهي زلات الأفكار. السؤال هو، لماذا تبادر هذا المفهوم إلى ذهني في ذلك الوقت بالذات؟... إن تفحص هذا السؤال بإيجاز يسمح لنا بإلقاء نظرة خاطفة على كيفية نشوء الكلام العميق.

أولاً، كان تعبير زلة slip لسان مألوفاً بالنسبة لي. ثانياً، إن ترابط الدلالة اللفظية، الذي يركز على التشابه المبدئي بين تعبيرَي زلات اللسان وزلات الأفكار، يبدو واضحاً إلى حد معقول، وبخاصة أن كلا النوعين من الزلات يحدثان داخل العقل. كان هناك عامل ثالث عجّل بقيامي بالربط بين المفهومين، وهو عامل تعرفتُ إليه بوضوح لحظة اكتشافه

بمجرد أن بدأت التفكير به: عندما خطر ببالي تعبير زلات الأفكار slips of the mind، كنت في تلك اللحظة أُقَلَّبُ قصاصات ورقية صغيرة slips of paper صفراء، بقياس 3x2 بوصة، كان من عاداتي الاحتفاظ بها دائماً كي أدون عليها الأفكار والآراء التي كانت تقفز على الدوام إلى ذهني في أوقات غريبة. كنت فعلاً أُقَلَّبُ بيدي قصاصات ورقية صغيرة دَوْنْتُ فيها أفكارِي slips of the mind.

إن زلات الأفكار لا تحدث فقط خلال الأحاديث العَرَضِيَّة. إنها تحدث في البرامج الإخبارية التلفزيونية، وفي البرامج التي تجري فيها استضافة الأشخاص للتحدث معهم كما تحدث في الإعلانات أيضاً.

زلات الأفكار في أخبار قناة الـ CNN

يحاول مراسلو البرامج الإخبارية، عموماً، أن يكونوا موضوعيين وألا يتركوا لآرائهم الشخصية مكاناً للتأثير على تقاريرهم، لكن كوننا بشر يجعل من ذلك أمراً صعباً، إن لم نقل مستحيلاً. إن الإصغاء للمعاني المبطنة قد يكشف لنا الآراء الحقيقية للمراسل أو للمذيع المضيف. البرامج الإخبارية، على عكس الأحاديث العَرَضِيَّة، تكون غالباً ذات تركيبة محددة بإحكام بواسطة أحاديث مُعَدَّة سلفاً يمكن لمذيع الأخبار أن يقرأها على جهاز الـ TeleTrompTer. ورغم ذلك، نسمع فيها كلاماً عميقاً.

كان مراسل أخبار قناة الـ CNN المعروف وولف بليتزير يقوم باستعراض ونقل آخر الأنباء حول العلاقة المزعومة بين الرئيس كلينتون والمتدربة الشابة في البيت الأبيض، مونیکا لوينسكي، وحول الثوب الذي كانت تخفيه لوينسكي والذي كان من المُفترض به (لحظة إذاعة الخبر) أن يحمل دليلاً على قيام تلك العلاقة⁽²⁾. بعد الحديث عن اضطرار الرئيس كلينتون لتقديم عينة من الـ د. ن. آ. الخاص به لمقارنتها باللطخة الموجودة على الثوب، وعن عدم التزامه جانب الصدق، بل وعن اتهامه بالكذب تحت القَسَم، أنهى وولف تقريره بالقول أن الرئيس يجب أن يخرج من هذه القضية «نظيفاً» come clean.

هل أنا بحاجة لشرح أن هذا التعبير، عند المستوى الحرفي، يعني «قول الحقيقة»، لكنه، ضمن هذا السياق، قد يتضمن معنى مختلفاً تماماً؟... عند المستوى الواعي أو الحرفي، يبدو استخدام وولف للتعبير كما لو أنه يعني أن كلينتون، برأيه، يجب أن يتوقف عن قول الأكاذيب بشأن علاقته بمونیکا وأن يعترف بالحقيقة فحسب. ولكن هل زلة الأفكار هذه لا تعدو كونها زلة؟... أم أنها تكشف مشاعر وولف الحقيقية تجاه القضية؟... أنا أرجح الاحتمال الثاني، فأنا لا أعتقد أن الأمر هنا هو مجرد تورية بسيطة حول تعبير «يخرج نظيفاً»، بل إنه زلة أفكار تكشف رأي أو موقف الشخص

المتكلم. على أية حال، إذا قمنا بتفسير التعبير بحد ذاته، عند مستوى الإصغاء العميق، نرى أنه قد يعني أن وولف كان يتمنى إما أن (1) لا ينطبق الـ د. ن. آ. الخاص بكلينتون مع اللطخة (أي باختصار أن يخرج نظيفاً، دون لطخة)، أو أن (2) كلينتون ما كان له أن يقيم علاقة في مكان العمل مع إحدى مرؤوساته.

بالنظر إلى أن هذا المثال هو مثال يومي، لا تتوفر لدي معطيات سابقة تتعلق بالموضوع ولا سياق كامل ولا أية معايير أخرى للتحقق، قد تتوفر عادة لدراسة الكلام العميق الذي يدور بين أفراد المجموعات التي أعمل معها. كيف لنا أن نعرف، إذاً، أن تعليق وولف، لم يكن مجرد تورية بسيطة، وإذا لم يكن كذلك، فكيف لنا أن نعرف رأي وولف الحقيقي في قضية كلينتون؟... إن زلة بسيطة لا تعني بالضرورة وجود زلة أفكار (رغم أن بإمكانها أن تعني ذلك). ضمن ظروف كهذه، علينا متابعة تقارير وولف التي جاءت فيما بعد وذلك لجمع معطيات سابقة إضافة لسياق خاص بأمثلة من هذا النوع على الكلام العميق، لأن ذلك يقدم لنا معلومات إضافية تساعدنا على البدء بالتحقق من صحة تحليل زلة أفكار وولف. ما حدث فعلاً هو أنني سجّلت زلة أفكار أخرى تفوّه بها وولف بشأن قضية كلينتون - لوينسكي⁽³⁾.

كان وولف ينقل خبراً مفاده أن فريق المحامين الخاص

الرئيس كليتون كان بصدد شن هجوم على تقرير هيئة المحلفين الكبرى الذي أعدّه المدّعي المستقل كينيث ستار وجاء فيه أن كليتون قد كذب بشأن تفاصيل علاقته بمونيكا. ما رمى إليه وولف هو القول بأن فريق كليتون كان بصدد القيام بهجوم offensive ضد تقرير ستار، لكن لسانه زلّ وقال: إن الفريق كان بصدد القيام بإساءات offenses .

نتساءل مرة أخرى، هل هذه مجرد زلة لسان أم أنها زلة أفكار من نوع الكلام العميق الذي يكشف مشاعر وولف الحقيقية وموقفه الحقيقي من قضية كليتون - لوينسكي؟... إذا أخذنا بالاعتبار التغطية الإعلامية المستمرة لسلوك كليتون الجنسي المُفترض في مكان العمل، الذي كان يعتبر بنظر الكثيرين أمراً يدعو للاستياء offensive، يمكن عندها الاعتقاد بأن زلة وولف كانت واضحة بشأن ما كان يدور في ذهنه فعلاً حول تصرفات كليتون: فهي لم تكن مجرد إساءات من وجهة النظر القانونية بل إنها كانت مدعاة للسخط. لم يكذ وولف يتفوه بتلك الكلمات حتى تقلص وجهه بحركة سريعة مفاجئة، كان واضحاً أنه أدرك فوراً ما قاله، وأن ما قاله قد يزيح الستار عن رأيه الشخصي في تصرف كليتون: ما كان على كليتون أن يقيم علاقة جنسية في المكتب البيضاوي.

كثيراً ما تظهر زلات الأفكار هذه واضحة بحيث تبدو وكأنها قد قيلت بشكل واع. لكنني اكتشفت أن الأمر ليس على هذا النحو، فالشخص المتكلم، بخلاف وولف، لا يشعر غالباً

بتلك الزلات التي تبدو شديدة الوضوح. لدى نقل أمثلة شفوية وبصرية على الكلام العميق (أي أمثلة إما شخصية أو مأخوذة عن التلفزيون) إلى شكل مطبوع، تضيع كثير من المعلومات والدلائل اللازمة كي نحكم إن كانت الزلة أو التورية قد صدرت عن الشخص بشكل واع. إن بإمكان زلات الأفكار أن تؤدي دور نظام مراقبة مهمته جمع معلومات بشأن العلاقات بين الأشخاص ومعلومات أخرى تتعلق بالجذور العميقة التي تشكل خلفية موقف ما.

هناك زلة أفكار أخرى حدثت في قناة الـ CNN في إشارة إلى علاقة كلينتون بمونيكا وذلك بينما كنت أشاهد برنامجاً يدعى «عبء البرهان»⁽⁴⁾. أثناء الحديث عن احتمال توجيه الاتهام للرئيس كلينتون بتهمة الكذب تحت القسم بشأن إقامة علاقة حميمة في مكان العمل مع مونيكا، صدرت عن روجر كوساك، وهو أحد المضيفين في البرنامج، زلة أفكار تم التعبير عنها بزلة لسان، أو ما يسمى بخطأ كلامي. فلدى الحديث عن تقديم الرئيس كلينتون لشهادته أمام هيئة المحلفين الكبرى، كان روجر يرمي للقول إن الحَدَث كان حدثاً غير مسبوق unprecedented، لكن لسانه زلَّ وبدأ واضحاً أنه شرع بالقول: «لم يعد رئيساً» unpresidented. قد يرى معظم علماء اللغة في ذلك مجرد خطأ، ثم يبررونه بحدوث خلط يعود إلى تشابه

(4) CNN، عبء البرهان، 7 آب/أغسطس 1998.

في صوت وتهجئة الكلمتين المتداخلتين، نتج عنه خطأ كلامي .
لكن هؤلاء فشلوا في إدراك السبب الحقيقي .

من وجهة نظر الإصغاء العميق، هناك احتمال بأن يكون معنى زلة روجر، في استخدامه لكلمة unprecedented هنا، إشارة إلى موقفه اللاواعي (أو الخفي على الأقل) الداعي لعزل كليتون من منصبه أو توجيه الاتهام إليه . ما يدعوني لقول ذلك هو: أولاً، رغم التشابه الواضح في الصوت، إلا أن هذه الزلة ليست بالخطأ الكلامي الذي يخلو من المعنى والذي ينجم عن تشابه صوت الكلمتين . حاول أن تكرر كلمتي unprecedented و unprecedented بصوت مرتفع . لاحظ أن مقطع prec في كلمة unprecedented يُلفظ كالتالي : press، بينما يُلفظ مقطع pres في كلمة president كالتالي prez، أي أنه يتطلب طريقة نطق مختلفة أو وضعاً مختلفاً للحنجرة داخل الفم . لكن ذلك، في واقع الأمر يعتبر غير ذي شأن . لننتقل الآن إلى المعنى الحقيقي لهذه الزلة .

التفسير اللغوي لهذه الزلة كونها نجمت عن الخلط بين الكلمتين وتداخلهما مع بعضهما، وأنها لا تشير إلى أي معنى خفي . تبدأ كلٌّ من الكلمتين بمقطع unpre، يتبعه أحد الحرفين الساكنين s أو c، وهما يُلفظان بشكل متشابه . ثم يتلو هذين الحرفين الحرفان الصوتيان i أو e، اللذان يُلفظان أيضاً بشكل متشابه . أخيراً تنتهي كلٌّ من الكلمتين بمقطع dented ولكن هذه الزلة تحمل معنى تحليل الآليات اللغوية قد يفسر «الكيفية» التي

جرت بها الزلة، لكنه لا يشرح «سببها». لفهم «السبب» علينا أن نفهم السياق الذي جرت فيه الزلة. (انظر المثال المتعلق بـ «niggardly» في الفصل التاسع).

بما أن هذا البرنامج، وعدد من البرامج السابقة، كان يدور حول موضوع إمكانية توجيه الاتهام لكلينتون بسبب الكذب تحت القسم، تتوفر لدينا هنا معطيات سابقة وسياق لتحليل هذا التعبير، فهناك جذور عميقة ترتكز عليها معانٍ ترتبط بفكرة توجيه الاتهام. قد يبدو من الأرجح أن استخدام روجر للسابقة un التي أضيفت إلى كلمة president، وللاحقة ed التي تشير إلى زمن ماضٍ، كان، من الوجهة النفسية، مكافئاً لشيء ما لم يعد مثبتاً unhinged، أو لم يعد ملتصقاً unglued أو أزيح من مكانه unseated. ومن هنا كلمة unpresidential، أي، لم يعد رئيساً. لقد استُخدِمت كلمة unseated فعلاً ضمن سياق عملية توجيه اتهام سابقة، فكتب التاريخ تتحدث عن محاولة توجيه الاتهام للرئيس أندرو جونسون (1865 - 1869)، الرئيس السابع عشر للولايات المتحدة، وذلك في محاولة للإطاحة به من منصبه.

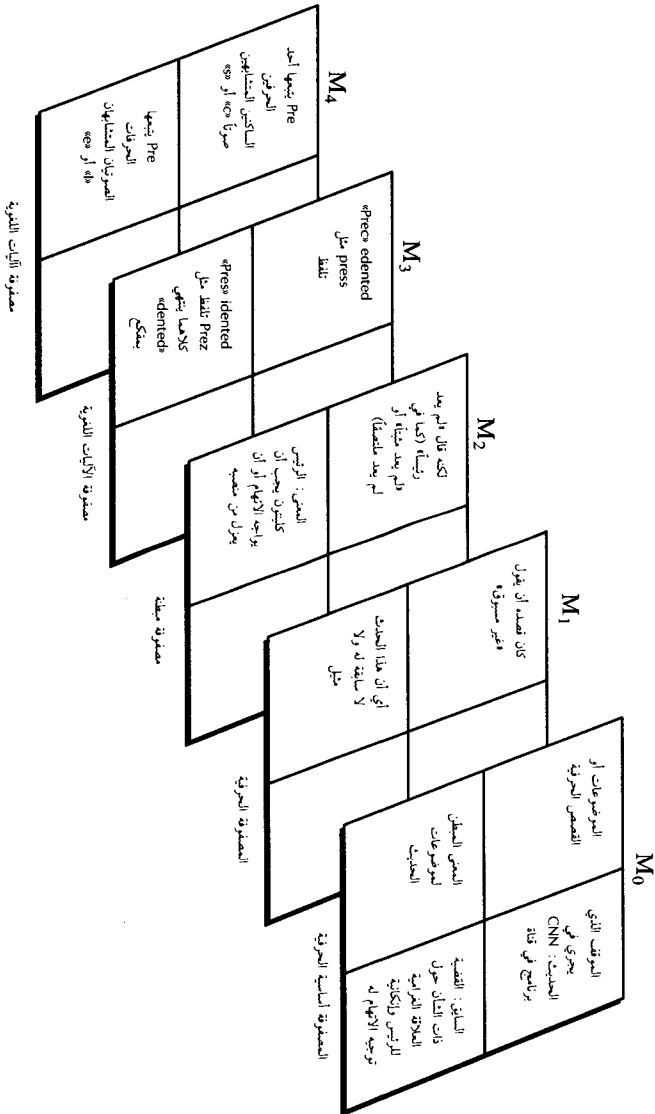
كما في حال أية زلة، فإن وجود مثال وحيد تفوّه به روجر، دون إمكانية التوصل لمعرفة آرائه الشخصية بهذا الشأن، يعني أنه لا سبيل لتخمين الدوافع العميقة «لزلته» تلك بشكل دقيق. إن زلة روجر قد لا تكشف شيئاً أو أنها قد تكشف عن رأيه بأن كلينتون يجب أن يواجه الاتهام، أو أنه سوف يواجه

الاتهام، نتيجة تلك الفضيحة. المعنيان مختلفان بالطبع، لكنهما يكشفان، وبشكل متساو، معلومات تتعلق بآرائه.

بعد تلك الحادثة، بدأت أراقب - أي أصغي إلى - روجر وزميلته في البرنامج غريتا فان ساستيرين بعناية، وبدقة أكبر. وسرعان ما وضح لي أن تحليلي لكلام روجر العميق بشأن توجيه الاتهام لكلينتون كان على الأرجح صحيحاً. أنا أقول هذا لأن برنامج «عبء البرهان» عندما بدأ يغطي قضية كلينتون - لوينسكي، بدا المضيفان في البرنامج وكأنهما يحاولان نقل الأخبار بأسلوب حيادي وموضوعي. بمرور الوقت، بدا لي وكأن أسلوبهما في نقل الأخبار أصبح أقل موضوعية. فقد اتضح أن غريتا كانت أكثر ميلاً لعدم توجيه الاتهام لكلينتون، بينما كان روجر ميلاً إلى الطرف المناوئ لكلينتون. أقول هذا أيضاً لأنني شاهدت غريتا في مقابلة في برنامج لاري كينغ على الهواء، حيث أوضحت رأيها. إن هذا النوع من المعلومات التي تركز على القرائن والسياق يُعتبر مهماً لدى تقييم الإصغاء العميق. (انظر الشكل 1-2).

أود أن أضيف نقطة أخرى بشأن تحليلي لزلة روجر: لدى تحليل الزلاّت الواردة في أخبار وبرامج التلفزيون، يواجه المرء مشاكل أكثر قليلاً مما يواجه في تحليل الزلاّت ضمن أجواء عادية. فهناك إمكانية أن يكون الموقف «المناوئ لكلينتون» الذي اتخذته روجر موقفاً فرضه منتجو البرنامج بهدف إظهار روجر وغريتا وكأنهما يتخذان موقفين متعارضين إلى حد ما تجاه

شكل 2 - 1: مخطط مصفوفة زلة unprsidente في قناة CNN.



القضية. لكن تجب الإشارة هنا إلى أن ذلك لا يُقوِّض أساس تحليلي القائم على الإصغاء العميق لموقف روجر لأن هناك احتمال أن يكون هذا الموقف «المناوئ لكليتون» ماثلاً في ذهنه لدى محاولته الظاهرية لأن يبدو موضوعياً، إلى حد ما على الأقل، مما يوفر الشرط اللازم لزلة الأفكار التي صدرت عنه. كما بينت في الفصل الأول، فإن الدوافع الأساسية للكلام العميق هي ذاتها تقريباً سواء تم إخفاء المواقف والآراء بشكل واع أو غير واع. لقد كان فرويد مصيباً، على الأرجح، عندما قال بأننا لا نستطيع حفظ الأسرار، فهي تُرْشَح من خلال مسامنا. أكرر هنا أن نقل حدث بصري وشفهي إلى شكل مطبوع يجعلنا نفقد الصوت وتعبير الوجه والدلائل الأخرى التي نخمن بواسطتها القصد الكامن خلف الزلة. على أية حال، فإن المعلومات التي تركز على القرائن والسياق تعتبر مهمة لتقييم صحة وشرعية الزلة، كما أن تجميع أكثر من حادثة واحدة يمكن له أن يؤدي إلى تحديد نمط.

العَبَثُ بالكلمات؟...

المثال التالي هو مثال آخر يثير الاهتمام استقيته من مكان العمل، وهو أكثر تعقيداً وإشكالية من حيث المجال الكامل لمغزاه. كنت أتناول الغداء مع بعض الزملاء والإداريين في مطعم صغير ملحق بحرم الجامعة. كان بين الحضور عميد الكلية، وهو عالم أحياء، وكذلك نائب العميد، وسيدة كانت

تشغل منصب مساعد العميد وعضوان في الهيئة التدريسية. كانت علاقتنا الاجتماعية على الدوام تتسم بروح الزمالة والود وكنا جميعاً نشعر بالارتياح لوجودنا معاً لدرجة أننا أخذنا بالمزاح مع بعضنا بعفوية دون أي حرج. دخلت رئيسة الجامعة، وكما يحدث عادة لدى وجود رئيس بين مرؤوسيه، تغير الجو الاجتماعي.

كنت منشغلاً في حديث ودي اجتماعي وأنا ألوح بيدي هنا وهناك كما يفعل الناس عادة عندما يتكلمون. كان هناك تشوّه واضح في إصبعين من أصابع إحدى يداي. سألتني مساعدة العميد، «ما بها يدك؟...» لاحظت الرئيسة ذلك أيضاً وتدخلت في الحديث مباشرة وسألت، «هل أنت مصاب بالتهاب المفاصل أو بمرض من هذا القبيل؟...» شرحت لهما أن الأمر كان يتعلق بحالة وراثية نادرة نسبياً تدعى تقلص Dupuytren، وهو يصيب غالباً الذكور المنحدرين من أصول أنغلوساكسونية. تابعت الشرح قائلاً أنه قبل آلاف السنين، زحف الفايكنغ من الشمال يغتصبون النساء وينهبون طوال مسيرة زحفهم عبر اسكوتلاندة وإيرلندا، كانت هذه الحالة الوراثية إحدى النتائج التاريخية لذلك الزحف.

كان من الواضح أن الملاحظة المتعلقة بالاغتصاب جعلت الموجودين يشعرون بالحرج. رغم ذلك، استرسلت في حديثي دونما تفكير وأنا أمزح قائلاً بأنه من وجهة النظر الداروينية فإن أعمال الاغتصاب والنهب لم تكن على تلك الدرجة من السوء

لأنها ساعدت على إيجاد تنوع في مجموعة المورّثات. رغم أن قولي ربما كان يفتقر للكياسة، إلا أنه كان دقيقاً فيما يتعلق بعلم الوراثة. هنا تخضب وجه نائب العميد وبدا وكأنه على وشك الإصابة بالسكتة. ونظراً لوجود السيدتين إلى المائدة، وبخاصة رئيسة الجامعة التي كانت لا تتهاون في أمور الحركة النسوية، فقد خاطبتني قائلة: «يا إلهي، روب، يحسن بك أن تلتزم الحذر، فأنت في موقف بالغ الحساسية». كان يعني أن السيدتين قد تشعران بالاستياء من قولي بأن للاغتصاب وظيفة بيولوجية إيجابية.

تبع ذلك صمت ساده الحرج. نظرتُ إلى رئيسة الجامعة وقلت: «إن ذلك مذكور في الكتاب المقدس كما تعلمون». وعندما سُئِلْتُ عما أقصد، تابعت حديثي قائلاً: «تعرفون بالطبع، مثلما تنتقل آتام الأب إلى أبنائه»، كنت أقصد حرفياً انتقال العواقب الوراثية لأعمال الاغتصاب التي قام بها الفايكنغ إلى أجيال لاحقة، كان داء Dupuytren الذي أعاني منه هو أحد أشكال «الإثم». تعالت بعض الضحكات العصبية ثم عاد الصمت ليسود ثانية.

عندئذ، طرح رئيسة الجامعة سؤالاً بدا في ظاهره وكأن لا علاقة له بالحديث بتاتاً. سألت إن كان أحد الموجودين يعرف أو يتذكر اسم المسرحية التي كان فيها الوالد في عائلة يهودية يعاني الأمرين في محاولته الالتزام بالتقاليد اليهودية. أجاب نائب العميد أن اسم المسرحية هو «عازف الكمان على

السطح» Fiddler on the Roof، بعد قليل اعتذرتُ من الحضور وغادرتُ المكان. كما يحدث في أغلب الأحيان، لم يخطر ببالي إلا فيما بعد، أن الحديث بكامله - وبخاصة سؤال رئيسة الجامعة - كان على الأرجح يحمل معنى مبطناً. ولكن ما هو المعنى الذي يمكن أن يحمله؟... خرجتُ بما يلي:

سأروي الآن الأحداث الرئيسية في مسرحية «عازف الكمان على السطح»، وذلك للأشخاص الذين لا يعرفونها: تجري أحداث المسرحية في روسيا القيصرية سنة 1905، عندما كانت حركة معاداة السامية تتصاعد بوضوح. الوالد في المسرحية حلابٌ فقير يعيل بناته الخمس العازبات. الابنة الكبرى ترفض الانصياع لزواج تقليدي مُرتَّب سلفاً من لحام في أواسط العمر. أخيراً، وبعد جهد جهيد يذعن الرجل وزوجته لرغبة الابنة. فقد كانت روح العصر المتغيرة تقتضي بأن يقوم الأبناء باختيار شركاء الحياة، وهو وضع كان الوالدان يعتبرانه بمثابة انهيار للقيم التقليدية. الأسوأ من ذلك، أنهما اكتشفا أن ابنة أخرى لم تكتف بأن تزوجت من جندي روسي اختارته هي، بل إن هذا الجندي لم يكن يهودياً. كان الأمر فوق احتمال الوالد، وهكذا، تبرأ من ابنته التي أصبحت منبوذة منذ تلك اللحظة.

إن السؤال عن مسرحية «عازف الكمان على السطح»، التي تتعرض فيها التقاليد ومجموعة مُورثات عائلة يهودية للتهديد، هذا السؤال كان على الأرجح تعليقاً مبطناً على القصة التي رويتها عن قيام الفايكنغ بالاغتصاب والنهب التي جرى فيها

تدنيس التقاليد ومجموعات المورثات. إذا ما أخذنا بالاعتبار السياق الذي تم فيه اختيار تلك المسرحية ضمن الحديث، يصبح من شبه المؤكد أن ذلك الاختيار لم يكن يحمل معنى إيجابياً، وبخاصة إذا عرفنا أن السؤال قد طرح من قبل رئيسة الجامعة التي كانت يهودية.

عندما رويت لزيميلي ديفيد سميث تحليلي المبدئي للمعنى المبطن للحديث وطلبت رأيه في الأمر، أضاف إلى التحليل مزيداً من الأفكار. تناول تحليله، خلافاً للتحليل الذي أجرته، الدورَ المبطن الذي لعبته أنا في ذلك الحديث، وهو ما غفلت عنه كلياً، الأمر الذي لا يندر حدوثه، عموماً، في الأحاديث المبطنة. لقد كانت إضافتي للملاحظة المتعلقة بالفايكنغ، وهم يقومون بأعمال الاغتصاب والنهب طوال مسيرة زحفهم عبر اسكوتلاندة وإنكلترا وإيرلندا، تعكس، على الأرجح، مشاعري اللاواعية تجاه قدوم رئيسة الجامعة للجلوس معنا. أي أنني، بعبارة أخرى، شعرت فعلاً أن الرئيسة، كالفايكنغ، قامت «بغزو» «نقائنا التقليدي» الودي مُحَوَّلة إيانا إلى مجموعة (أي إلى شُعْب) أكثر تنوعاً. إن مشاعر كهذه لا تُعتبر غريبة لدى قدوم مدير أو أي رمز للسلطة للجلوس مع مرؤوسيه (انظر الفصل الثالث). تبدو هذه المشاعر صحيحة بشكل خاص في هذه الحالة إذا عرفنا أن رئيسة الجامعة لم تكن تحظى بتقدير كبير لدى كثير من أعضاء الهيئة التدريسية.

أما ملاحظتي التالية المتعلقة بالكتاب المقدس و«آثام

الآباء» فقد كانت إشارة إلى شعوري بأنني ارتكبتُ «إثمًا» عندما ذكرت الاغتصاب (ووظيفته الإيجابية في عملية التطور) في حضرة سيدة. كما أن إشارتي للأمر بأنه «مذكور في الكتاب المقدس» قد تكون إشارة إلى الأصل اليهودي للرئيسة. وبرأيي أن اختيار الرئيسة لموضوع «عازف الكمان على السطح» مباشرة بعد ملاحظتي المتعلقة بأعمال الاغتصاب والنهب التي قام بها الفايكنغ، يحمل معان أخرى أيضاً، لكن نظراً لعدم توفر تفاصيل كافية للقصة تسمح لي بوضع تلك المعاني في موقعها الدقيق ضمن مقالتي، سأضطر للاعتماد على المعلومات المرتكزة على القرائن والسياق وعلى الاستنتاجات. لا شك بأن الرئيسة، كونها يهودية، تعرف اسم وتفاصيل مسرحية «عازف الكمان على السطح» لكنها لم تستطع أن تتذكرها مباشرة. على أساس سياق كهذا، يمكنني التخمين بأنها شعرت وكأنني، إلى حد ما، أشبه الوالد في المسرحية، الذي كان شخصية متمسكة بالتقاليد لدرجة معاداة الحركة النسوية (أنا لست كذلك). كما أن فكرة المسرحية قد تكون أيضاً قد بعثت في ذهنها إحساساً يهوديتها بين أشخاص من غير اليهود (أي فكرة التنوع).

إن اختيار الرئيسة لقصة مسرحية «عازف الكمان على السطح» Fiddler on the Roof قد يكون له أيضاً معنى لا واعياً آخر. صيغة الفعل من الاسم - Fiddler أي - Fiddling تحمل معنى كون الشيء «عابثاً» أو «تافهاً»؛ ترى، هل كانت الرئيسة تُعلّق على الاستطراد الذي قمتُ به حول الفايكنغ والنتائج

الداروينية لما ارتكبه؟... القصة لم تنته بعد.

آثام الأب

لقد اكتشفت أنه لدى رواية قصة حول الإصغاء العميق، فإن ذلك يُعجل بحدوث المزيد من الكلام العميق من قِبَل الشخص الذي يستمع للقصة.

بعد بضعة أيام من غداء «عازف الكمان»، كنت جالساً مع صديق لي وهو أحد أعضاء الهيئة التدريسية والذي كان موجوداً في تلك المناسبة. حدثته عن تحليلي للمعاني المبطنة للحديث الذي جرى في ذلك اليوم. أبدى صديقي، الذي كان يحمل درجة الدكتوراه في اللغة الإنكليزية والدراسات الأدبية، كما كان قد قرأ كتابي السابق، أبدى إعجابه بالتحليل الذي قدمته لكنه بدا متشككاً إلى حد ما. بعد أن جرى بيننا نقاش قصير، ساد الصمت. عندها، ودون أن يبدو أن هناك رابطة واضحة مع أي شيء، سألتني: «هل تلقيت أي أخبار من أخويك؟...» أجبت: «لا». لكنني عندما كنت أقول «لا»، تنبّهت هوائيات الإصغاء العميق لدي. قلت لزميلي: «أعتقد أن سؤالك يقدم مثلاً ممتازاً على المعاني المبطنة». بدت عليه الحيرة ثم سألتني: «ماذا تقصد؟...».

قبل أن أقدم لكم الرد على سؤاله، أحتاج هنا لشرح سياق السؤال. كان صديقي يعرف أنه قبل حوالي السنة اكتشفت ابنتي ميليسا وجود أخين لي غير شقيقين لم أكن أعلم قبلاً

بوجودهما. كان هذان الأخان يكبرانني بثمان أو تسع سنين. كنا نشترك بنفس الوالد، الذي كان قد أقام علاقة مع والدتي وكنت أنا ثمرة تلك العلاقة. بعد أن استعرضتُ لصديقي كل ذلك بإيجاز، أجبته على سؤاله إن كنت قد تلقيت أي أخبار من أخوي بأن سؤاله كان عبارة عن كلام عميق، أي أنه كان استجابة لقيامي بوصف تحليلي للحديث الذي دار أثناء غداء «عازف الكمان». سأخبركم الآن لماذا كان سؤاله عن أخوي غير الشقيقين، على الأرجح، كلاماً عميقاً، كما سأشرح المعنى اللاواعي المحتمل لسؤاله.

أولاً، إن كون والد أخوي غير الشقيقين قد أقام علاقة غير مشروعة مع والدتي تماثل قصتي المتعلقة بأعمال الاغتصاب التي ارتكبتها الفايكنغ لدى زحفهم من الشمال، بمعنى أن العلاقة كانت تتعارض والمعايير التقليدية. ثانياً، لقد قام والد أخوي، بشكل يماثل ما ارتكبه الفايكنغ من أعمال الاغتصاب، بالمساهمة بشكل غير شرعي في مجموعة المورثات الخاصة بعائلة والدتي وجعلها أكثر تنوعاً. ثالثاً، إن العلاقة غير المشروعة بين والد أخوي وبين والدتي تماثل رغبة الابنة في مسرحية «عازف الكمان» بالزواج من شخص خارج نطاق المعايير التقليدية، وبالطبع، خارج نطاق مجموعة المورثات (أي خارج نطاق الزواج الذي يدبره والدها). رابعاً، كان مولدي يماثل قيام الفايكنغ بنقل الحالة الوراثية التي تشمل الإصبعين في يدي. خامساً، بما أن أخوي كانا «نصف» شقيقين، فقد كانا

يماثلان الابنة في مسرحية «عازف الكمان» التي ستحمل، بعد زواجها من خارج مجموعة المورثات اليهودية، بطفل يكون «نصف» يهودي .

أخيراً، بما أنني كنت قد أخبرت هذا الصديق عن ملاحظتي بشأن الكتاب المقدس وذلك فيما يتعلق بآثام الأب التي تنتقل إلى الأبناء، كان سؤاله عن أخوي ينطوي بداهة على التسليم «بالإثم» الذي اقترفه والدي. كنت أنا، طبعاً، هو «الابن» الذي انتقل إليه الإثم نتيجة العلاقة «الآثمة» .

لماذا وقع اختيار الرئيسة على القصة المتعلقة بعازف الكمان ولماذا اختار صديقي أن يطرح سؤالاً يتعلق بأخوي أثناء الحديث؟ ... ولماذا في تلك اللحظة بالذات؟ ... كثيراً ما أجمع بصديقي، وعادة ما يكون ذلك لتناول الإفطار أو الغداء، لم يحدث أن سألني قبل ذلك إن كنت ألقى أية أخبار من أخوتي، سوى مرة واحدة، وكان ذلك بعد إبلاغي إياه بأنني اكتشفت أن لدي أخين غير شقيقين .

الحكم على «زلات» الأفكار

في ماساتشوسيتس، كان أحد القضاة يصدر توجيهاته لهيئة المحلفين الذين كانوا على وشك البدء بمداولاتهم عندما «زل» لسانه وقال أن عليهم الافتراض بأن المتهم «مذنب»⁽⁵⁾ . من

(5) انظر ب. ج. بارس، ج. كوهين، ج. هـ. بوير، ج. و. بيري =

الطبيعي أن يقوم القضاة، في جميع الدعاوى القضائية، بتوجيه أعضاء هيئة المحلفين للالتزام بالمبدأ القضائي الأساسي في قانون الولايات المتحدة وهو افتراض براءة المتهم حتى تثبت إدانته. ويبدو واضحاً هنا أن قصد القاضي هو وجوب الافتراض بأن المتهم «بريء». والسؤال هنا: هل تُعتبر زلة كهذه ذات مغزى من الناحية القانونية؟... بعبارة أخرى، هل تُعتبر بأنها تكشف موقفاً لا واعياً يتخذه القاضي حيال المتهم، وبالتالي، فهي تفرض حكماً مُسبقاً في القضية؟... إذا كان الأمر كذلك، فإن الزلة يمكن أن تشكل أساساً لطلب الاستئناف إذا ما توصلت هيئة المحلفين للقرار بأن المتهم مذنب.

بعد أن نبّه كاتب المحكمة القاضي إلى تلك «الغلطة»، استدرك القاضي نفسه سريعاً بأن وجه الخطاب لهيئة المحلفين قائلاً: «أيها السيدات والسادة، لقد كانت، على ما أعتقد، زلة فرويدية» ثم أعطى التوجيهات الصحيحة. لسبب ما، لم يعترض محامي المتهم على زلة لسان القاضي. هناك احتمال بأن يكون الدليل المقدم أثناء المحاكمة قد جعل القاضي يعتقد بأن المتهم مذنب، وقد لا يكون الأمر كذلك. كما أن ما حدث قد لا يزيد عن خطأ كلامي، وقد لا يكون كذلك. القاضي وحده يدرك حقيقة ما حصل. ولكن، هل تبين في النهاية أن هذه «الزلة»

= «توضيحات بشأن اختبار فرضية الزلة الفرويدية: مشاكل تكرير التجارب بشكل منهجي». في ب. ج. بارس، تحرير، الزلات التجريبية والخطأ البشري (نيويورك: بليينوم پرس، 1992) 308.

كانت تحمل مغزى قانوني. الجواب هو نعم بالتأكيد.

بعد أن توصلت هيئة المحلفين إلى قرارها بتجريم المتهم في واحدة من التهم الثلاث الموجهة إليه، استغل محامي المتهم زلة القاضي كأساس للتقدم بطلب استئناف. كانت حجته هي أن تلك الزلة قد خلقت مخاطرة لا يستهان بها تتعلق بسوء تطبيق العدالة، لأنها حملت إلى هيئة المحلفين رسالة مفادها أن القاضي قد توصل للاستنتاج بأن موكله مذنب. من المهم أن نشير هنا إلى أن الزلات الفرويدية تعتبر حقيقية بشكل واضح لا لبس فيه من قبل العاملين في مهنة القضاء، على الأقل هذا ما جاء في «القاموس العصري لمهنة القضاء»، الذي يُعرّف الزلة الفرويدية بأنها سوء تعبير يُفترض، نظرياً، بأنه يكشف عن وجود فكرة أو صراع أو رغبة ضمن اللاوعي لدى الشخص المتكلم⁽⁶⁾.

نطرح السؤال لمرة أخرى، هل كان التعبير الخاطيء

(6) هناك جدل أزلي، يتمحور حول حقيقة المعاني اللاواعية، يضع علماء النفس في معسكرين أساسيين. يشمل هذا الجدل، من جهة، علماء النفس من أصحاب المعسكر الأول الذين يرغبون بتفسير السلوك البشري كما يتبدى في الحياة اليومية كما يرغبون في تطبيق نتائج الأبحاث الدقيقة المتوفرة حالياً لتفسير أحداث الحياة اليومية ولدعم هذه التفسيرات. من جهة أخرى، يميل علماء النفس من أصحاب المعسكر الثاني إلى «الأبحاث الصّرفة» ويشعرون بالضيق لدى تعميم أبحاثهم، التي تم التحقق منها بدقة صارمة، وذلك من أجل دعم تفسير أحداث الحياة اليومية. من حيث الواقع، يشكّل هذان المعسكران وجهتي نظر متطرفتين لسلسلة فكرية متصلة واحدة. ومن النادر أن نرى أصحاب هذين المعسكرين يتبادلون الكلام أو مشاعر الاحترام. أفضّل أن أفكر بنفسي على أنني أنتمي لكل من =

للقاضي يخفي موقفاً أو مشاعر دفينه فيما يتعلق بكون المتهم مذنباً أم لا؟... يعتمد الجواب على الشخص الذي يوجّه السؤال إليه. كما أن الجواب الصحيح يضرب بعيداً في أعماق نظريتي المتعلقة بالكلام العميق وزلات الأفكار. سأؤجل مناقشة

= المعسكرين. لكن ولسوء الحظ، فإن أولئك المتطرفين من أصحاب المعسكر الأول يميلون لاعتبار منهجي الصارم لتحليل اللغة المبطنة على أنه ينتمي للمعسكر الثاني، بينما يميل أصحاب المعسكر الثاني لاعتبار قيامي بتطبيق نتائج أبحاثي ونقل أبحاثهم المرتبطة بها دليلاً على انتمائي للمعسكر الأول. كونكم من جمهور القراء، يجعلكم تفقون، مع وسائل الإعلام، وسط المعسكرين حيارى، وتكون النتيجة غالباً شعور الارتباك.

من الوجهة التكنولوجية، يمكن تفهم سبب معارضة «الحريصين على الصفاء» لتطبيق أبحاثهم التي تم إجراؤها بدقة صارمة، على أحداث الحياة اليومية. لأن أبحاثهم، بشكلها الأساسي، قد تم وضعها لتناسب الشروط التجريبية الخاصة بحيث لا يمكن تطبيق تلك الشروط على تلك السائدة في الحياة اليومية. لكنني كنت دائماً أعتقد أننا، لكي نتصرف بشكل عملي، يجب أن نحاول ربط الأبحاث المخبرية بالحياة اليومية (هناك اختلافات أخرى بين هذين المعسكرين، لكن لا مجال لذكرها الآن). هناك ناحية أخرى تلقي بظلها على هذا الانقسام: إن شبح فرويد يسكن الإصغاء العميق. خلافاً للاعتقاد الشائع، فإن فرويد لا يتمتع بتلك المكانة الرفيعة لدى الباحثين المتزمتين. بالتالي، يمكن أن نفهم سبب معارضة معظم العلماء المعرفيين للانحراف عن مناهجهم التجريبية المخبرية الصارمة التي تهدف لدراسة العمليات اللاواعية. وكما ذكرتُ في سياق مماثل، هناك خوف واضح من أنه إذا فُتح باب التجارب الدقيقة الخاصة باللاوعي أمام المناهج الأخرى فإن «كل أشكال الأشباح الفرويدية ستفتل من عقالها لتدخل إلى قلب المخابر المعرفية». وإذا كان علماء النفس من أصحاب المعسكر الأول يُعتبرون متهاونين لدرجة الانفلات والحماقة، فإن أصحاب المعسكر الثاني يُعتبرون بأنهم يبالغون في الإلزام والإكراه لدرجة الإفراط.

هذه النقطة المهمة إلى نهاية هذا الفصل. إلى أن يحين ذلك، ستساعدكم الأمثلة التالية (إضافة للفصل السابق) في الإجابة على هذا السؤال بأنفسكم.

يتعين علي أن أركز هنا على نقطتين منهجيتين مهمتين يجب ألا تغيبا عن البال مطلقاً لدى قراءة ما تبقى من الكتاب. النقطة الأولى، هي أن كل علماء اللغة والعلماء المعرفيين، يعتقدون، فعلياً، أن الزلات اللاواعية والتوريات هي، ببساطة، أخطاء كلامية مشروعة من الوجهة اللغوية وبالتالي فهي لا تحمل أي معنى لا واع. أنا أنفق مع هؤلاء في القسم الأول من رأيهم وهو أن الزلات مشروعة - لكنني أختلف معهم فيما يخص القسم الثاني - أنها بالتالي خالية من المعنى. هناك بعض الزلات التي لا تحمل معنى، وهناك زلات زاخرة بالمعاني. تلجأ الزلات التي تحمل معنى، إلى استعمال الآلية ذاتها التي تستخدمها الزلات الخالية من المعنى. باختصار، يبدو أن الحكايا المبطنة تستخدم كثيراً من الآليات المتضمنة في الأخطاء الكلامية وزلات السلوك، لكنها تحمل إحياء بوجود تَعَمُّد ضمني على الأقل في هذا النوع من «الأخطاء» و «الزلات» المبطنة.

هناك عالم معرفي مشهور، وهو برنارد بارس، يُعتبر استثناء من التعميم الذي ذكرته، أي أنه يؤمن بأن الزلات قد تحمل معنى، وهو مؤلف ومحرر كتاب «الزلات التجريبية والخطأ البشري». أجرى بارس وزملاؤه بعض التجارب المخبرية اللافتة على الزلات الفرويدية أو الزلات الناتجة عن

دوافع لا واعيّة. رغم أن بارس يلتزم الحذر إلا أنه يترك المجال مفتوحاً أمام احتمال وجود معنى لا واع. يقول بارس: «من بين النتائج التي توصلنا إليها... قد تكون النتيجة الأكثر مباشرة هي أن فرضية فرويد خاطئة تماماً. لكن ذلك يُعتبر تبسيطاً شديداً للأمور»⁽⁷⁾. يترك بارس المجال مفتوحاً أمام احتمال ظهور طرق جديدة ربما كانت أقل «حدة» (حسب تعبيره) من الطرق الحالية. هنا أود طبعاً أن أبرهن بقوة على أن طريقتي هي طريقة جديدة وأقل حدة للتقصي عن المعاني اللاواعية⁽⁸⁾.

النقطة الثانية التي يجب ألا تغيب عن البال تتعلق بالتأكيد ثانية على أن النقطة المنهجية الحاسمة والسؤال الذي يجب أن يُطرح بشأن كل أمثلة الكلام العميق هو التالي: من بين جميع الكلمات والتعابير الممكنة ومن بين جميع الموضوعات المحتملة التي يمكن اختيارها أثناء حديث ما، لماذا يجري اختيار تلك الكلمات والتعابير والموضوعات بالذات، ولماذا يتم اللجوء إليها في لحظة بعينها أثناء الحديث؟... من الناحيتين

(7) الكومونويلث ضد انتوني جونسون، محكمة الاستئناف في ماساتشوستس هامبردين. Sr. No. 96-p-0759 700 N.E. 2nd 270 cite as : 45 Mass. App. Ct. 473 700 N.E.2nd 270.

جرت المناقشة في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1997. تم إصدار الحكم في 17 أيلول/سبتمبر 1998. أود أن أشكر الأستاذ ويليام كابلين، كلية الحقوق في الجامعة الأمريكية الكاثوليكية لمساعدتي في العثور على هذه القضية. (8) ج. بير، ك. ريدين م. بير، القاموس الحقوقي الحديث، الطبعة الثانية. (بوفالو، نيويورك: ويليام آند هين، 1996).

المعرفية واللغوية يُعتبر هذا السؤال سؤالاً حاسماً لم يُطرح أبداً بشكل فعلي وبالتالي لم تجر الإجابة عليه.

إذا كانت زلات الأفكار تكشف فعلاً عن آراء ومواقف ومقاصد لا واعية، فهل يمكن أن تكون لهذه الزلات مضامين قانونية؟... ماذا لو صَدَرَتْ زلة، مثلاً، عن محام أو عن قاضٍ، وهذا أسوأ، وأدت إلى الإضرار بالمُدَّعي أو بالمتهم؟... هل يمكن للدعاء أو للدفاع استغلال مثل تلك الزلات؟... هل تعتقدون بأن ذلك بعيد الاحتمال؟... لِنَرِ إذاً.

الإصغاء العميق إلى الإعلانات التلفزيونية

من الواضح أن الكلام العميق لا يظهر فقط أثناء الأحاديث الخاصة. إنه يحدث في البرامج الإخبارية التلفزيونية أيضاً. كما نلاحظ وجوده في الإعلانات التلفزيونية والبرامج التي تستقبل ضيوفاً للحديث معهم.

لا يخفى أن المعاني اللاواعية تُستخدَم غالباً بشكل مقصود في الإعلانات التلفزيونية. كما أنه من المعروف بأن من يكتبون الإعلانات يلجأون إلى الأفكار الفرويدية «الشائعة» المتعلقة بالعقل اللاواعي والرموز الجنسية وذلك لتصميم إعلاناتهم (انظر الفصل الثامن)⁽⁹⁾. بالإضافة لذلك، فإن هؤلاء الكتاب يعرفون

(9) انظر و. كي، الإغواء ما دون الواعي (نيويورك: نيو أمريكيان لايبيراري، 1987).

جيداً الكيفية التي يقوم العقل بواسطتها بربط الأفكار، كما أنهم يمتلكون إحساساً قوياً باللغة وبالمعاني المزدوجة، وهم يفترضون أن المعاني اللاواعية أو شبه اللاواعية ستمارس تأثيراً عليك .

أحد الإعلانات الحديثة المخصصة للأقنية التلفزيونية Cable TV الخاصة بالمشتركين، يتحدث عن جميع الإعلانات المتعلقة بالأعمال في هذه القنوات ثم ينتهي بالقول: «بِئْسَ أمريكا يجري عن طريق الأقنية التلفزيونية الخاصة بالمشتركين» America is sold on cable عند مستوى ما، يعني ذلك أن «دور الأعمال الأمريكية تُجرى مبيعاتها بواسطة إعلانات الأقنية التلفزيونية الخاصة بالمشتركين». لكنه عند مستوى آخر يعني أن «أمريكا مقتنعة بفعالية الإعلانات في الأقنية»، أي تم إقناعها Sold on it. هناك إعلان آخر لنوع من الفيتامينات يدعى Nature Made ينتهي بصوت يردد شعاراً يمكن أن يفهم بطريقتين: Nature Made me أو nature made me، إذا فهم الشعار بالطريقة الأولى يصبح معناه أن الفيتامينات مُصنَّعة من قِبَل شركة Nature Made، وإذا فهم بالطريقة الثانية يصبح معناه أن الفيتامينات هي نتاج الطبيعة، أي أنها فيتامينات طبيعية. هذا المعنى المزدوج لا يمكن التعبير عنه بشكل مكتوب، إذاً، هذا النوع من الإعلانات يحاول التأثير عليك بشكل لا واعي.

قبل بضع سنوات، كنت أشاهد ما بدا لي يومها وكأنه إعلان تلفزيوني جذاب عن طعام للكلاب. لكنني أعتقد أنه إذا

صَدَقَ تحليلي للمعنى اللاواعي في الإعلان، تكون النتيجة أنه لم يكن جذاباً كما تصورت في البداية. كثير من الأشخاص ممن يربون حيوانات منزلية يريدون تقديم الأفضل لحيواناتهم المدللة. في إعلان تلفزيوني عن طعام للكلاب ظهرت سيدة عجوز صغيرة الحجم، يمكن لكل منا أن يرى فيها صورة جدته. أخذت السيدة تُعَدُّ مزايا نوع معين من طعام الكلاب كان مظهره أشبه بالهامبرغر. قالت الجدة العجوز الصغيرة ذات الشعر الشائب: «إنه أفضل من الهامبرغر»، عند نهاية الإعلان أضافت بلهجة تحمل شعوراً بالمفاجأة: «يا إلهي إنه أفضل من الهامبرغر» Better than hamburger, my word!

دعونا الآن ننحي جانباً فكرة ربط المُنتَج، بهذا الشكل الواضح، بشخصية الجدة الأمريكية، الأمر الذي يدفعنا للاستنتاج ليس فقط بأن طعام الكلاب هذا أفضل من الهامبرغر، ولكن، وهنا يأخذ الأمر طابعاً أكثر وطنية، بأن الإعلان نفسه هو تحفة من حيث التصميم. إن المعنى الحرفي لعبارة my word المرفقة بجملة «إنه أفضل من الهامبرغر» يبدو ببساطة وكأنه تعبير عن الدهشة، كما في عبارة «يا إلهي إنه أفضل من الهامبرغر» My goodness, it is better than hamburger. لكننا إذا ترجمنا العبارة إلى لغة الإصغاء العميق، نرى أنها تعني، إضافة لذلك: كيف لنا معرفة أنه أفضل من الهامبرغر؟... نعرف لأن الجدات صادقات فيما يقلن. إذاً عبارة my word هنا تعني «ثقوا بما أقول» take my word for it. كما أن عبارة

Better than hamburger, my word قد تجعلنا أيضاً نتساءل في العقل اللاواعي: ما هو أفضل من الهامبرغر؟... الجواب، رأيها هي. إذًا، الشيء الوحيد الأفضل من الهامبرغر هو رأيها. وبالتالي، لا بد أن يكون ذلك طعاماً ممتازاً للكلاب.

هنا يأتي دور المفاجأة الفعلية في الإعلان بكامله: لو فكرنا قليلاً لا بد وأن نتساءل: كيف لها أن تعرف أن طعام الكلاب أفضل من الهامبرغر؟... ما لم تكن، طبعاً، قد أكلت منه. قبل أن تعلقوا بالقول هذه الفكرة سخيفة بل ومضحكة، دعونا نأخذ بالاعتبار حقيقة أنه في الفترة التي ظهر فيها الإعلان كانت الأخبار تحمل قصصاً عن أشخاص مسنين فقراء يأكلون طعام الكلاب والقطط ليظلوا على قيد الحياة. هل كان هذا الإعلان عن طعام للكلاب، مُوجَّهاً بشكل مبطن إلى المسنين؟... في اعتقادي أنه كان كذلك.

التوريات في عملية إبراز المعنى

رأينا في كثير من أمثلة الكلام العميق، التي أوردناها حتى الآن، أن ما يُدعى بالتلاعب اللفظي - التورية - كان يشكل دائماً جزءاً لا يتجزأ من المعنى. المثالان التاليان يبينان بشكل أكثر جلاء كيفية استخدام صوتين أو كلمتين متشابهتين من أجل إبراز معنى ما. كما أن هذين المثالين يوضحان لنا كيفية التي يمكننا بواسطتها ضبط أنفسنا متلبسين بالحديث بكلام عميق.

خلال إحدى عطلات نهاية الأسبوع كانت كلوديت،

زوجتي حينذاك، تستعد لمغادرة المنزل لمدة أسبوعٍ للالتحاق بمدرسة للحقوق في ولاية مجاورة. كانت ابنتنا الصغيرة، ماليسا، في تلك الفترة تعيش معي في مين Maine، كانت، طبعاً، تشعر بالضيق لأن أمها ستتركها لمدة أسبوعٍ، كما أنني لم أكن أشعر بالارتياح لفكرة بقائي وحيداً لأرعى ابنتي. بينما كانت كلوديت تهتم بمغادرة المنزل قلت لها مازحاً: «إذاً، فأنت تتخليين عنا So, You are deserting us» ما كدتُ أنفوه بذلك حتى أدركتُ «حقيقة» ما قلته. لم تكن تلك الملاحظة تشير ببساطة إلى حقيقة أن كلوديت كانت ستتركنا وحيدَيْن لمدة أسبوعٍ. لقد كانت تورية، القصد منها إبراز معنى ما. لكي نفهم الكيفية التي أبرَزَتْ بها ملاحظتي المعنى المقصود، لا بد من إلقاء نظرة أكثر دقة على السياق الذي جاءت الملاحظة ضمنه.

من بين الاستعدادات التي قامت بها كلوديت للغياب عن المنزل لمدة أسبوعٍ، صنعتُ كمية من بسكويت الشوكولاته وقررتُ أن تأخذ معظم تلك الكمية معها. هذا البسكويت هو النوع المفضل لدي، بالتالي لم أكن سعيداً برؤية زوجتي وهي تأخذ الجزء الأكبر من الكمية الموجودة. الملاحظة التي أبديتها لم تكن فقط كلاماً عميقاً يتعلق بمغادرة كلوديت للمنزل، أو بتخليها deserting عنا، بل يتعلق أيضاً بحقيقة كونها ستأخذ الحلوى dessert التي أحبها، كانت في الواقع تحرمنا من الحلوى deserting، أي تأخذ الحلوى dessert معها. هذه ليست تورية بسيطة أو نوعاً من زلات اللسان، إنها أشبه بنافذة

تكشف أساليب عمل العقل المبطن. ما قام به عقلي هو إبراز معنى من تشابه الأصوات بحيث يتمكن من التعبير عن بعض مشاعري. صحيح أننا نستخدم أحياناً كلمة يتخلى عن deserting لدى وصف شخص يغادرنا، إلا أن استخدامها ليس شائعاً إلى هذا الحد. مرة أخرى، الفكرة هي كالتالي، لماذا يتم اختيار هذه الكلمة - من بين مفردات أخرى كثيرة - في تلك اللحظة بالذات؟ ...

قامت صديقة لي تدعى فيرجينيا بزيارة اختصاصي العناية بالأقدام. بينما كان يدلك قدميها وهي مستلقية على الأريكة، شرعاً يتجاذبان أطراف الحديث لتمضية الوقت. أخبرها أن زبائنه غالباً ما يحدثونه عن أمور شديدة الخصوصية تتعلق بهم عندما يستلقون على الأريكة. أجابت فيرجينيا أن الاستلقاء على الأريكة وتدليك القدمين يجعل المرء يشعر بالاسترخاء والارتياح وأن الأمر أشبه بالذهاب إلى عيادة الطبيب النفسي للعلاج، وبالتالي، من الطبيعي أن يشعر الناس بميل لأن يكشفوا له عما في أعماق أرواحهم bare their souls بمجرد أن قالت ذلك أدركت فوراً المعنى المزدوج لقولها: يكشفون عما في أعماق أرواحهم souls يعني أنهم يكشفون أمامه عن أخمص أقدامهم soles قد يبدو الأمر مجرد تورية بسيطة أو لعب بالكلمات، لكنه ليس كذلك. لنفكر بالأمر.

لفهم هذا الكلام العميق حول الأرواح souls، علينا أولاً أن نسأل (أ) لماذا تم اختيار هذا الموضوع بعينه للحديث و

(ب) لماذا صيغت تلك الكلمات بعينها في تلك العبارة بالذات . هناك كثير من الكلمات والعبارات الأخرى التي يمكن اختيارها للتعبير عن المعنى الذي كانت فيرجينيا تريد التعبير عنه : وهو أن زبائن اختصاصي العناية بالأقدام يخبرونه الكثير عن شؤونهم الخاصة . كان بمقدورها أن تجيب ، مثلاً ، أن زبائنه «يفرغون ما في قلوبهم» (يمكن استعمال هذه العبارة في عيادة اختصاصي أمراض القلب). أو كان بإمكانها الإجابة أنهم يقومون بإفشاء الأسرار الخبيثة داخل أحشائهم (يمكن استعمال هذه العبارة في عيادة اختصاصي أمراض المعدة والأمعاء) لكنها لم تقل ذلك ، ما قالتها بالتحديد هو أنهم يكشفون له عما في أعماق أرواحهم souls وهو ما يفعلونه حرفياً إذ أنهم يكشفون له عن أخمص أقدامهم soles .

مرة أخرى ، يفرض السؤال التالي نفسه : لماذا لجأت فيرجينيا إلى تلك العبارة بعينها ولم تستخدم إحدى العبارات التي ذكرتها أو إحدى العبارات الأخرى الكثيرة التي يحفل بها مخزون الأقوال المتداولة؟ . . . السبب الأول في عدم استخدامها لأي من العبارات الأخرى الممكنة - وهو السبب الأكثر وضوحاً - يعود إلى أن كلمتي bear و bare وكلمتي soles و souls ، التي تتسم بالتجانس الصوتي ، تناسب من حيث دلالاتها اختصاصي العناية بالأقدام . فكلمة bear تعني يحمل ويأوي ويتحمّل أموراً تثقل الكاهل كالكلام عما في أعماق الروح ومعنى bare ، بالطبع ، هو يَعرّض أو يُعرّي . السبب

الثاني، هو أن أخمص قدمها sole المُعرى أمام الأنظار يعادل من حيث الدلالة تعرية baring تَحْمُلُ bearing ما في أعماق روح soul المرء، أي كشف النواحي الشخصية الدفينة داخل نفسه. السبب الثالث، هو أن العبارات الأخرى التي كان بالإمكان استخدامها، والتي تحوي كلمتي قلوب وأحشاء، لا تنسجم من حيث الصوت والدلالة مع فكرة التماثل مع عيادة الطبيب النفسي مثل كلمة soul (علم النفس كما يفهمه الناس العاديون هو عبارة عن دراسة الروح). السبب الرابع، هو أن العبارات الأخرى لا تتوافق من حيث الدلالة مع الارتباط النَمَطي للأريكة الفرويدية مع الأريكة التي كانت تستلقي عليها في عيادة اختصاصي العناية بالأقدام.

الإصغاء العميق للكلام العميق عن الأحداث المادية

عندما نصغي بعمق فإننا لا نسمع فقط المعاني العميقة للحديث، فالأحداث المادية والأشياء الحسية، المحيطة بحديث ما غالباً ما يجري التعبير عنها أيضاً. ورغم أن هذه الأحداث والأشياء يتم إدراكها بشكل مادي إلا أنه قد لا تجري ملاحظتها بشكل واع أو اعتبارها مهمة أو ذات مغزى، لكنها غالباً ما تتداخل في ثنايا الكلام العميق بشكل لا واع دونما انتباه من المتحدث. إذا أصغينا بعمق، أمكننا سماع مجموعة متكاملة corpus من تلك المعاني اللاواعية.

مرة أخرى، أدين لصديقتي فيرجينيا بالمثل التالي. كانت

فيرجينيا في زيارة وداع قبل جنازة أحد أنسبائها. كان الجثمان مسجى في التابوت كالعادة، وقد تصالبت ذراعا المتوفى فوق صدره، وكما في مثل تلك المناسبات الرسمية الجليلة، وقف الحضور حول التابوت بصمت ووقار. بينما كانت فيرجينيا تقف مع باقي الحضور رأت المدير المسؤول عن تنظيم الجنازة، وهو شخص من معارفها لم تكن قد رآته منذ عدة سنين، كان يقف عند الباب الأمامي. تركت مكانها بجانب التابوت وذهبت لتجاذبه أطراف الحديث. فيما بعد، وعندما كانت تحكي لابنتها سارة عما حصل في الزيارة، أثير موضوع عما إذا كان من المناسب أن تترك مكانها إلى جانب التابوت لتتحدث مع مدير تنظيم الجنازة. قالت فيرجينيا: «كان ذلك أفضل من الوقوف هناك وقد تسمر جسمك وذراعاك معقودتان فوق صدرك».

من حيث حرفية المعنى، كان جوابها يعني ما تقوله الكلمات تماماً، فتبادل الحديث مع مدير تنظيم الجنازة كان أفضل من الوقوف إلى جانب التابوت بتلك الطريقة الرسمية. لكن، إذا لم يتضح لكم بعد المعنى المبطن المتعلق بالظروف المادية المحيطة بتلك المناسبة، فإليك المعنى: العبارة فيها إشارة إلى الجثمان الذي يرقد بصمت وقد تصلب منه الجسد وعقدت ذراعاها بشكل متصلب فوق صدره.

قد يعتقد المرء أن فيرجينيا ربما أدركت فيما بعد ما قالته بشكل مبطن، لكنها، شأن معظم الأشخاص، لم تدرك، وعندما أشارت ابنتها إلى المعنى المبطن في قولها شعرت، شأن

معظم الأشخاص أيضاً «بالذعر». إذاً، فتأثير المشاعر ودواعي القلق إزاء الظروف المادية المحيطة، يتداخل غالباً في الأحاديث الحرفية. لكن هذا المثال لا ينتهي هنا.

بعد عدة أسابيع، وعندما كنت أناقش هذا المثال عن المعنى المبطن مع فيرجينيا، أخبرتها بأنني عندما سأدرج مثال الجنازة هذا في كتابي سأضع له عنوان «مجموعة متكاملة [corpus] من المعاني». ضحكت فيرجينيا وقالت أنها تشعر بالدهشة لقيامي بربط لغوي بين تعبير corpus (جسد) وبين مثال الجنازة. توقفت قليلاً عن الكلام ثم شرعت تحدثني عن كاتب تعرفه، قالت إن للكُتّاب عقولاً غريبة وإن عقولهم تعمل بأسلوب مختلف عن الناس العاديين. عند ذلك، ودون أن تلتقط أنفاسها، أدركت فوراً وجود إشارة مبطنة إليّ لتضيف: «هذا لا يسري على الكاتب الذي أنا بحضرته طبعاً» ثم استرسلت في الحديث عن الكاتب الذي تعرفه. بمجرد أن تبدأ بالإصغاء العميق للمعاني المبطنة، تكتشف بأن عقول الجميع تعمل، فعلاً، «بأسلوب غريب».

كثيراً ما يتم التعبير بشكل مبطن عن الاختلافات الجسدية بين الأشخاص ولو حتى بشكل شديد التبسيط (انظر الأمثلة المتعلقة بالعنصرية في الفصل التاسع). كان أحد الطلاب الجدد يستفسر عن مكان مكتب إحدى السيدات من أعضاء الهيئة التدريسية، وعن الكيفية التي يمكنه بواسطتها أن يتعرف إليها. كان التعرف إلى تلك السيدة في الواقع أمراً في غاية السهولة،

فبالنظر إلى أن بشرتها كانت تفتقر للخضاب الطبيعي، كانت السيدة شديدة البياض، وكانت بشرتها وشعرها بلون الحليب. بالطبع، لم يشأ الشخص الذي أجاب على استفسار الطالب أن يصفها بكلمات مباشرة بل قال أنها كانت «ذات بشرة فاتحة جداً». خلال حديث مع الطالب، أثير موضوع اختيار المهنة، قال ذلك الشخص للطالب مازحاً: لماذا لا تصبح حلاباً؟... من الواضح أن مهنة الحلاب ليست بالاقترح الجدي. هنا يجب أن نتساءل لماذا تم اختيار مهنة الحلاب غير المناسبة إطلاقاً، من بين جميع الخيارات المهنية الممكنة الأخرى؟... من منظور الإصغاء العميق، يبدو من الواضح أيضاً أن تلك كانت إشارة مبطنة إلى السيدة البيضاء البشرة والشعر. ورغم وجود إمكانية إدراك حقائق الأمور فيما بعد، إلا أنه لا يخفى أن الشخص الذي تقدم باقتراح مهنة الحلاب لم يكن واعياً للمعنى المبطن.

الأمثلة التالية استقيتها من المجموعات التي عملت معها، حيث أعلمتُ أفراد تلك المجموعات بأنني سأقوم من حين لآخر بتصوير الجلسات بواسطة أفلام متحركة وذلك لأغراض دراسية بشكل أساسي، كما كنت أقوم بتسجيل كل جلسة على شريط بمعرفة الجميع وأخبرت أفراد المجموعات أن بإمكانهم الحصول على تلك الأشرطة. يجب أن أذكر هنا أن الجلسات كانت عادة ما تتم داخل غرفة تضم حاجزاً زجاجياً، أحد جانبيه عبارة عن مرآة. ضمن الموضوعات التي كانت «تَرْدُ عَرَضاً» أثناء

الحديث كانت هناك غالباً إشارات إلى مكتب التحقيق الفيدرالي FBI وإلى وكالة الاستخبارات المركزية CIA. بتعبير آخر، رغم وعي أعضاء المجموعة بوجود الحاجز الزجاجي ذي المرآة وبوجود آلة التسجيل، استمرت مشاعر القلق تشغل بالهم بشكل لا واع. الفكرة هنا هي حتى ولو لم أكن قد ذكرت المرآة وآلة التسجيل، فإن الأعضاء سيقومون بالإشارة إلى الـ FBI والـ CIA ضمن أحاديثهم. ما يؤيد قلبي هذا هو وجود ملاحظات غير مباشرة تتعلق بإشارات متكررة من هذا النوع إلى الـ FBI و الـ CIA وذلك في الأدبيات الأولى الخاصة بالمجموعات الصغيرة والعلاج الجماعي، وقد اعتُبرت في وقتها نوعاً من التعبيرات «المجازية» عن شعور القلق الذي كان ينتاب المريض خوف أن يجري تسجيل حديثه أو أن تجري مراقبته⁽¹⁰⁾.

في المراحل الأولى لإحدى المجموعات، كان موضوع الحديث هو الحانات غير المرخصة speakeasies وهي صالات شرب الكحول غير القانونية خلال فترة حظر بيع الكحول في مطلع القرن العشرين. إن مجرد الإشارة إلى تلك الحانات speakeasies هو كلام عميق ينم عن شعور أعضاء المجموعة

(10) انظر ر. ف. بيلز، الشخصية والسلوك بين الأفراد (نيويورك: هولت، رابنهارت آند وينستون، 1970)، د. ل. سميث، الحديث الخفي: مقدمة للتحليل النفسي التواصلي (لندن: تافيسوك/روتليدج، 1991)، د. س. ويتكار وم. ليبрман، العلاج النفسي عن طريق العملية الجماعية (نيويورك: أثيرتون، 1964).

بالقلق خشية وجود آلة تسجيل، المعنى المبطن لهذه الإشارة هو: تكلم بحذر speak easy حتى لا يسجل الجهاز ما تنفوه به. ضمن مجموعة أخرى، كانت لعبة التخمين بمساعدة الحركات التمثيلية charade هي موضوع النقاش. لا شك بأنكم تعرفون تلك اللعبة التي يجري فيها التواصل عن طريق حركات إيمائية - وبالتالي، طبعاً، تكون الدلالة المبطنة هنا أن جهاز التسجيل لن تكون له أية فائدة تذكر. كيف أعرف أن أعضاء المجموعة يشعرون بالقلق حيال أمور من هذا النوع؟... يمكنني معرفة ذلك، إلى حد ما، لأن هناك بعض المجموعات التي قام أعضاؤها، عند المستوى الواعي أو الحرفي، بالتعبير عن مشاعر القلق لديهم بشكل واع وذلك عن طريق الهمس والإشارة بصمت إلى جهاز التسجيل.

إليكم مثال آخر يوضح كيف أن العقل اللاواعي يقوم غالباً بالربط بشكل مبطن بين الأشياء المادية في الجو المحيط به مباشرة وبين الحديث. سأبدأ بذكر أحد أغرب الأمثلة التي صادفتها. قال لي أحد الأشخاص، وقد بدا قوله وكأن لا وجود لعلاقة مباشرة تربطه بنقاش حول تربية الحيوانات: «كان لدي فأر اعتاد اختلاس النظر إلى الحيوانات في المرآب». قد يتبادر إلى ذهنك أن عبارته تمثل جزءاً بسيطاً من نقاش دائر يتعلق بتربية الحيوانات، هذا صحيح - لكنها، بالإضافة لذلك، تحمل ما هو أكثر. هنا يجب أن نتساءل، مرة أخرى، لماذا يتم اختيار تلك العبارة بعينها في الحديث في تلك اللحظة التي قلت فيها

بالذات. إليكم الجواب: أثناء النقاش كانت هناك سيدة شابة ضمن المجموعة لم تكف عن التملل في مقعدها وهي تتوجه بنظرها نحو الباب في محاولة لرؤية شيء ما. ثم انفرج الباب قليلاً وبدأ شخص، كان في الردهة يسترق النظر عبر النافذة الصغيرة، بدأ باختلاس النظر إلى الغرفة.

كان معظم أعضاء المجموعة مدركين لما يحدث، لكن أحداً لم يشر إليه، إلا أنه، مع ذلك، ترك انطباعاً في أذهانهم بشكل واع وبشكل غير واع كما توضح الإشارة المبطنة إلى الفأر الذي اعتاد اختلاس النظر إلى المرآب. قد تبدو تلك العبارة أشبه بعبارة لجأ إليها الشخص بشكل واع لتصوير ما حدث بأسلوب ساخر، لكنها لم تكن كذلك. لقد تَحَقَّقْتُ من ذلك من الشخص نفسه بعد انتهاء الجلسة.

إن الأمثلة المذكورة لا تبين فقط المعنى العميق، لكنها، - وأكرر هنا - تبين أيضاً الكيفية التي يقوم العقل بواسطتها، أحياناً، بدمج ما يحيط به من أشياء مادية في اللغة وفي الأحاديث الاجتماعية، لم يسبق أن جرى التعرف إلى هذا الجانب من عملية الإدراك، أما الكيفية التي يمكن أن يتم بها ذلك، فتبقى بانتظار من يقوم بشرحها.

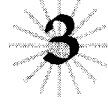
لاحظنا أنه بالرغم من أن زلات اللسان وما دعوته أنا بزلات الأفكار تتضمن الكشف عن المعنى اللاواعي، إلا أنهما ليسا بالشيء نفسه بأي شكل من الأشكال. فزلات اللسان

تتميز، إلى حد كبير، بزلات في المعنى لكلمات منفصلة، بينما تشمل زلات الأفكار ما هو أكثر. من الناحية اللغوية، غالباً ما تتطلب زلات الأفكار عبارات معقدة وجمالاً بأكملها وقصصاً كاملة وذلك للتعبير عن المعنى غير المقصود بشكل واع.

إن الإشارة إليها بكلمة «زلات» تكشف بوضوح الكيفية التي ننظر بها إليها: فنحن لا نرى فيها أكثر من أقوال غير سوية تثير الاستغراب، ولا نرى أنها تتضمن أكثر من ذلك وأنها تحمل معانٍ متماثلة بالإضافة إلى كونها تزيح الستار عن معطيات لغوية ومعرفية هامة بشأن الكيفية التي يعمل العقل بواسطتها. زلات اللسان هي مجرد «زلات» أو «أخطاء» معيارها الوحيد هو كونها تتناقض مع ما نعنيه ظاهرياً بشكل واع. وإذا أردنا التحديد بدقة أكبر، إنها ليست بزلات على الإطلاق. إنها وسيلة تواصل حقيقية. ، بالإضافة لما سبق، فإن الإشارة إلى زلات اللسان باسم «زلات» قد أعاق الأبحاث المتعلقة بمعناها الحقيقي.

منذ الآن فصاعداً، لن أقوم باستخدام تعبيرَي زلة لسان أو زلة أفكار لدى الإشارة إلى الكلام العميق. إذأ لماذا استخدمتُ هذين التعبيرين في الأصل؟... لقد استخدمتهما للانتقال بكم من شيء تعرفونه مسبقاً إلى شيء جديد أود أن أعرفكم به. لقد كانت معظم الأمثلة التوضيحية حتى الآن، مثل الزلات، مبنية على أساس أمثلة قصيرة نسبياً عن الكلام العميق تلجأ إلى اللعب بالكلمات وإلى العبارات القصيرة والمواضيع الطويلة. في الفصل التالي سأوضح لكم كيف أن الإصغاء العميق يكشف عن

عبارات أكثر تعقيداً أو عن جمل متكاملة وقصص كاملة وذلك
للتعبير عن معانٍ شاملة متطابقة.



حُسن الاستماع في العلاقات: ما لا يقوله لك الأصدقاء وزملاء العمل وأرباب العمل

لقد بذلتُ جهوداً مضمّنية في محاولة البرهان على أن أأخذ
أوسع أشكال التخطّط انتشاراً وأقواماً في التواصل البشري
هو السرد القصصي. بل إن التركيب السردى يكمن في...
التفاعل الاجتماعي قبل أن يتوصل لتحقيق تعبير لغوي.

جيروم برونر
مَهَمَّات المعنى⁽¹⁾

لاحظنا أن المشاعر الحقيقية للناس تكون عادة خافية
علينا، فالناس يُحجمون عن الكشف عن مشاعرهم الحقيقية،
وكثيراً ما تكون مشاعر الناس الدفينة خافية حتى على أصحابها.

(1) انظر ج. برونر، مَهَمَّات المعنى (كامبردج، ماساتشوسيتس: هارثرد

إن العجز عن الإصغاء العميق لتلك المشاعر الدفينة يمكن له أن يلحق بنا ضرراً بالغاً، كما أن نجاحك، سواء كنت رب عمل أو موظفاً قد يعتمد على معلومات عميقة كهذه.

في هذا الفصل سأقوم بالتوسع في فكرة القوالب الأدبية التي اكتسبها البشر خلال عهود طويلة من العلاقات بين الأصدقاء وزملاء العمل وأرباب العمل وسواهم من رموز السلطة. إن تلك القوالب الخاصة بالوجود الإنساني هي التي توفر المنبع العاطفي الشامل للتراجيديات الإغريقية ولروائع شكسبير وسواها من الأعمال الأدبية العظيمة الخالدة في كل أنحاء العالم، والأعمال الأدبية العظيمة إنما تتوجه إلينا من خلال هذه التجربة العاطفية المشتركة للصدمات والمشاكل في الحياة اليومية للعلاقات البشرية.

إلى جانب هذه القوالب الرئيسة، هناك قوالب أقل عمقاً وجودياً، بعضها دنيوي بل وحتى تافه. إذا أخذنا بالاعتبار تلك المشاعر التي تكاد أن تشمل البشر جميعاً، نرى من الطبيعي أن يجري التعبير عن معظمها وأن نلاحظ تواجدها في الأحاديث اليومية سواء بشكل حرفي أو بشكل مبطن. إن بعض الهموم التي تؤرق الناس خلال المسار اليومي للتفاعلات الإنسانية، هي هموم مشروعة، لكن بعضها الآخر يبدو خالياً من المنطق. لقد لاحظت، عبر السنين، أن تلك الهموم يجري التعبير عنها بشكل مبطن عن طريق عدد من القصص التي تبعث على الدهشة من حيث تماسكها.

تتضمن تلك الموضوعات التنافس والغيرة والمعايير المزدوجة والانفصال والفقدان، وسواها من الموضوعات الأكثر إيجابية، لكن الموضوعات الإيجابية لا تبدو بوفرة تلك السلبية منها. يتمحور كثير من تلك الموضوعات الخاصة بالعلاقات بين الأفراد حول الجنس gender والهموم العرقية أو الإثنية (انظر الفصلين الثامن والتاسع). وسواء كانت تلك الموضوعات عقلانية أم غير عقلانية فإنها تقوم على أساس تصورات ومشاعر الناس إزاء ما يعتقدون أو يشعرون بأنه يحدث من حولهم.

لا يمكننا، بالطبع، أن نتحدث عن رموز السلطة دون أن نقوم، في الوقت نفسه، بالحديث عن الأشخاص الذين تُمارَس عليهم السلطة: التابعون. بالتالي، فقد صادفتُ قصصاً تبعث على الدهشة أيضاً من حيث تماسكها، كان يرويها التابعون، تتناول الإحساس بشعور الأطفال، والطلبة والمرضى العقلين والمجرمين. إن موضوعات أو حيكات تلك القصص غالباً ما تتمحور حول الإحساس بسوء معاملة السلطة، وحول قضايا العدل والمعايير المزدوجة، كما تتمحور بشكل خاص حول الشعور بالتساؤل حول كفاءة القائد. إذاً، يتعين على كل شخص يشغل موقعاً قيادياً، سواء كان والداً أو مديراً أو مدرّساً، أن يصغي بعمق إلى ما يشعر به الأشخاص التابعون له. رغم أن الأمثلة التالية حدثت ضمن المجموعات التي أعمل معها وضمن مواقف في حياتي الاجتماعية، إلا أن بإمكانك أن تتقرب رؤية بقية فصولها وهي تسرع الخطى باتجاه مكان عمل أو أسرة

قريبين منك. إن تقديم القائد أو رموز السلطة في القصص الواردة هنا بشكل خيّر أو حاقّد يقرره الأسلوب الذي يتصور أفراد المجموعة بأنهم يعاملون به من قبل القائد أو رمز السلطة. هذا القلق بشأن القادة والسلطة يضرب بجذوره بعيداً، فقد تعلّم معظمنا منذ بداية حياته أن يكون حذراً بشأن ما يبوح به لوالديه، وأن يخفي قدرأ معيناً من مشاعره خشية العقاب. كما أن كثيرين منا قد تساءلوا - في بعض الأحيان على الأقل - ما إذا كانت تلك الرموز ذات القوة المطلقة تتمتع حقاً بالكفاءة. لابد وأنا كنا نأمل أن تكون كذلك.

نحن جميعاً نشغل مواقع قيادية وسلطوية في أوقات مختلفة من حياتنا، سواء بصورة شقيق أكبر أو رئيس فريق رياضي أو مشرف في مكان العمل، أو فرد يتمتع بمركز اجتماعي أرفع من مراكز أصدقائه. بالتالي، فإننا عندما نتحدث عن القيادة والسلطة، فإن «هم» تعني «نحن». ألا تود أن تعرف ما الذي يدور في خلد «هؤلاء» بشأننا نحن؟.. عن طريق الإصغاء العميق، بإمكانك معرفة ذلك.

عملية التواصل بين الناس هي عملية صعبة معقدة. إذا فكرنا بذلك لبرهة نرى أن كلاً منا هو، في واقع الأمر، أسير عقله الخاص، ولا تتوفر لدينا طريقة ندرك بواسطتها ما في عقل شخص آخر أو نشعر بما يشعر به هو. نحن، كما قال الفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني غوتفريد لينينتز (1646-1716)، ذرات Monads متفردة، وحدات مُغلقة على ذاتها

بالكامل، سابحة في أرجاء الكون دون أية وسيلة تُمكنها من رؤية ما بداخل عوالم الآخرين. نحن، مثلاً، غالباً ما نجهل متى يشعر الشخص الذي نتحدث معه بالملل، أو إن كان هذا الشخص منافساً لنا، كما نجهل كثيراً من الأمور الأخرى المتعلقة بالعلاقات بين الأشخاص. نحن لا نعرف كل ذلك لأن الآخرين، قد يكونون غالباً عاجزين عن إدراك مشاعرهم بشكل واع، أو لأنهم، ببساطة، لا يريدون إطلاعنا على تلك المشاعر. سواء كان السبب هذا أم ذاك، فإن بإمكان الإصغاء العميق للمعاني المبطنة أن يساعدنا في اكتشاف ما يدور في عالم شخص آخر. إن كلاماً من هذا النوع يمكن له أن يدور بين أشخاص تربطهم علاقة حميمة وبين أشخاص غرباء نسبياً. إذا نحن أصغينا بعناية إلى كلامهم، تتضح أماننا تلك الفوارق البالغة الدقة في أحاسيسهم.

ما الذي يحدث هنا، على أية حال؟...

عندما ننهمك في الحديث، يتخذ عقلنا اللاواعي، لا عقلنا الواعي فقط، وضعية الترقب والحذر للتقاط أية إشارة تفيد بوجود إهانة أو شعور الآخرين بالسأم منا، أو بالتبجح، أو بالظلم، أو بوجود أية سلوكيات أو مواقف تخرج عن نطاق توقعاتنا أو عن نطاق ما نعتقد أنه سلوك مقبول. بإمكان عقلنا اللاواعي التقاط تلك الانتهاكات الاجتماعية التي يعجز العقل الواعي عن التقاطها.

تذكرون طبعاً ما أوردته في الفصل الثاني عن تلك القصاصات الورقية الصفراء الصغيرة، التي كان قياسها 3×2 بوصة، والتي كنت احتفظ بها على الدوام لأدوّن الأفكار التي تخطر لي في أية لحظة. عندما كنت في المراحل الأولى من تطوير فكرة الإصغاء العميق، كنت أتردد إلى حلقات دراسية خاصة بالدراسات العليا وذلك كجزء من الدراسات التي كنت أعدها لنيل درجة الدكتوراه. أثناء تلك الحلقات الدراسية، كنت كثيراً ما أفرد تلك القصاصات الورقية الصغيرة الصفراء أمامي وأعبث بها باستمرار ثم أقفز من مكاني لأدوّن فكرة ما قبل أن تغيب عن ذهني. كنت ألاحظ، من حين لآخر، أن الأستاذ وبقية طلبة الدراسات العليا كانوا يرمقونني بنظرات يشوبها الاستغراب.

في إحدى تلك الحلقات، شرع الأستاذ، دون مناسبة ودون أن يكون لذلك أية علاقة بالمحاضرة، بالكلام عن زميل أحقق كان يعرفه. كان مضمون الكلام يوحي بأنه كلما دخل أحدهم إلى مكتب ذلك الزميل، كان يرى طاولة المكتب وقد غطتها «قصاصات ورقية» وكان هو يقوم «بالكتابة عليها»، حتى عندما يتحدث إليه الناس!.. المدلول هنا هو أن ذلك التصرف لا ينم عن تهذيب رفيع.

لا يتطلب الأمر هنا محلاً نفسياً لإدراك أن القصة التي رواها الأستاذ كانت إشارة إلى قيامي «بالكتابة على القصاصات الورقية الصغيرة» «بينما كان هو يلقي محاضراته». مع أن

ملاحظة الأستاذ قد تبدو تلميحاً واعياً غير مباشر إلي، إلا أن سياق الموقف يجعلها لا تبدو كذلك. من منظور حرفي، كان ذلك صفّاً تدريسياً حيث يُفترض بالطلبة أن يقوموا بتدوين الملاحظات، لذلك، لم يكن من المعقول أن يلمح الأستاذ بشكل واع إلى أنني كنت أتصرف دون تهذيب. ونظراً لأنني كنت مجرد طالب ذي منزلة متواضعة، لم يكن سؤاله له عن معنى ملاحظته أمراً وارداً، إضافة لأنه كان سيظن بأنني عُصابي. كما أنه كان، على أية حال، سينكر غالباً أنه كان يتناولني بالتلميح.

يشير هذا المثال بوضوح إلى أنه في كثير من الأمثلة المبطنّة، قد يبدو الشخص وكأنه مدركٌ فعلاً لما يقول، كما يشير إلى أن عبارات من نوع «لا أريد أن أسبب لك الملل» تعكس إحدى تلك المناسبات التي يكون المتحدث فيها واعياً لما يقول. يُظهر هذا التحليل أن هناك مواقف كثيرة يكون فيها المتحدثون غير مدركين لما قد يبدو تلميحاً غير مباشر رغم كونه واعياً.

ذات يوم، بينما كنا في أحد المطاعم، طرحت ابنتي ماليا - التي كانت في حوالي الخامسة من العمر في ذلك الوقت - عليّ وعلى زوجتي السؤال الأزلي بشأن كيفية ولادة الأطفال. كانت ماليا على الدوام شديدة الفضول. بدأنا أنا ووالدتها بشرح موضوع الحمل بأفضل ما يمكن لطفلة في الخامسة من العمر. عندما بدا لنا وكأننا وصلنا إلى نهاية مناسبة

في الشرح، صمتنا قليلاً ثم تابعنا الحديث حول أحداث ذلك اليوم. عندئذ جذبتني مالياً من كمي والتفتت إلي متسائلة، «أبي، كيف ترى قميصي؟». كان سؤالاً شديد البراءة. هل كان كذلك حقاً؟.. كان على قميصها رسم مطبوع - عند مستوى المعدة - لموزة بشكل طفل صغير. بلغة الإصغاء العميق، يمكنني القول بأن سؤال مالياً كان «مُحملاً» pregnant بالمعاني.

هل كانت ماليا تعني معنى قيامها بعرض الرسم المطبوع؟.. من الصعب الحكم على ذلك في ما يتعلق بالأطفال، لأن التمييز بين الوعي واللاوعي لا يبدو وكأنه ينطبق على الأطفال، فالأمر غالباً ما يختلط عليهم. سأخبركم الآن عن حديث آخر لماليا يحوي كلاماً عميقاً. جرت الحادثة عشية عيد جميع القديسين Halloween، كنت ألاعب مالياً وأعانقها وأقبلها وكانت هي منهمكة في فتح كيس هدايا العيد التي جمعتها من الجيران. عندما فتحت الكيس لمحت شيئاً في داخل الكيس وصرخت، «إنه أحد تلك الأشياء» doodaddy «كانت تعني إحدى تلك الطرائف التي لا تحمل اسماً محدداً». ما هو المعنى المبطن لتلك العبارة التي تبدو في ظاهرها حرفية؟... يمكنني أن أؤكد أنها كانت إشارة إلى قيامي بملاعبتها وتقيلها ومعانقتها، كانت هي تعبر بشكل لا واع عن أنني أقوم «بتلك الأمور التي يقوم بها الآباء» Those things that daddy's do، أو أشياء من قبيل doodaddy باعتقادي أن هذا

الكلام العميق لا ينطوي على تلك الدرجة من الوعي كالمثال السابق.

مهما يكن من أمر، فإن هذا النوع من الإصغاء العميق غالباً ما يكشف لك المعنى الخفي بشأن ما يظنه الناس فيك وبشأن الحديث الذي يتبادلونه معك. ذات مساء، كنا وزوجتي، حينذاك، في نزهة مسائية. بالنظر لكوني شخصاً مفرط النشاط، فإن كلماتي تعجز عن اللحاق بدماعي، كنت أتلثم وأنطق بكلمات غير مترابطة أتعثر بها، أخطئ في نطقها وأكرر مقاطعها. كنت قد فرغت للتو من قول إحدى تلك الجمل المتقطعة عندما مررنا أمام ساحة مسورة بسياج من النوع المؤلف من ألواح spokes أو شرائح خشبية عمودية، في تلك اللحظة قالت زوجتي من بين آلاف الأشياء التي كان بوسعها قولها «هناك سياج فيه لوح مكسور» broken spoke. إنها لم تكن فقط تقول حرفياً بأنها لاحظت أن إحدى الشرائح الخشبية في السياج مكسورة، لقد كانت، في الواقع، تعلّق بشكل لا واع، على أنني كنت أتكلّم spoke بشكل متقطع broken، من هنا جاءت عبارة broken spoke دون غيرها من العبارات. نرى في هذا المثال أن كلمة spoke قد استُخدمت حرفياً على أنها اسم، في الإشارة إلى قطعة من الخشب تصل بين أجزاء السياج، واستُخدمت بشكل لا واع على أنها فعل في الإشارة إلى الطريقة التي كنت أتحدث بها.

عندما نقابل شخصاً لأول مرة، غالباً ما يسترعي انتباهنا

مظهره، كما أننا نلاحظ بشكل خاص وجود أي صفات مميزة له. أحياناً، نعبّر عن ردود أفعالنا إزاء تلك الصفات بشكل مبطن. منذ سنوات كنت أشاهد برنامجاً تلفزيونياً يقدمه ميرف غريفين يستضيف فيه أشخاصاً للحديث معهم⁽²⁾. كان غريفين يقدم الممثلة فيرجينيا غراهام التي كانت سيدة ذات جسم ضخم مائل للسمنة. استهل كلامه بتقديم وصف لمسيرتها المهنية الطويلة وتعداد عطاءاتها المتميزة في مجال العمل الفني، كما هي عادته لدى الترحيب بضيوف برنامجه. بعد أن انتهى من سرّد قائمة تلك العطاءات أضاف، «إنها فنانة لها وزنها a real heavy weight s' She وهو يعني حرفياً أنها كانت من الشخصيات المتميزة في عالم الفن. لم يكذب يفوه بتلك الكلمات حتى أدرك فوراً مدلولات ما قاله بشكل مبطن وبدا عليه الإحراج. لقد ترك إدراكه لثقل وزنها «ينزلق» من بين شفثيه. قد يبدو هذا المثال على الكلام العميق، المأخوذ من وسائل الإعلام، وكأنه قد كُتب بشكل واع، غير أنني اكتشفت أن الأمور لا تجري على هذا النحو أحياناً. أعود للقول أن تحويل دلائل الكلام العميق البصرية والشفهية إلى وسيلة مطبوعة يُفقدنا قدراً كبيراً من المعلومات والإشارات اللازمة لتقدير ما إذا كان الشخص يقوم بشكل واع بإيجاد «الزلة» أو التورية.

(2) برنامج ميرف غريفين، 14 أيلول/سبتمبر، 1977.

هل أنتم أشخاص مملّون؟...

يتساءل معظمنا أحياناً عما إذا كنا نبعث الملل في نفس الشخص الذي نبادله الحديث. لكن حتى الزوج أو الصديق الحميم يندر، طبعاً، أن يواجهك بالحقيقة المرّة. لدى طرح سؤال كهذا فإن الجواب، على الأغلب، سيكون «لا بالطبع». نحن جميعاً قد كذبنا تلك الكذبات الاجتماعية الصغيرة من حين لآخر، كيف لك أن تعرف، إذاً، إن كنت تبعث الملل في نفس شخص آخر؟.. الجواب، عن طريق الإصغاء العميق لكلامه العميق.

ذات مساء، كنت وزوجتي، حينذاك، وصديق لنا من الزملاء نتبادل كعادتنا ما ظننّته أنا على الأقل، حديثاً يستغرق كل كيانتنا. كنت في اليوم السابق قد ابتعت جهاز تسجيل ستيريو جديداً له مكبرا صوت speakers رائعان. كان زميلي شخصاً واسع الاطلاع ومتحدثاً ماهراً، وكنا قد تحدثنا شطراً لا بأس به من الوقت، أطال صديقي الحديث بحيث لم يترك لي ولزوجتي فرصة لمشاركته. خلال محاضرتة الطويلة كانت زوجتي تجول بنظرها في أرجاء الغرفة وقد بدا عليها الملل واضحاً. فجأة قاطعت حديثه لتطرح سؤالاً - لا علاقة له قط بما كان صديقنا يتحدث عنه - سألت: «أين مكبر الصوت speaker الآخر؟ ...

من حيث المعنى الحرفي، كان السؤال «أين مكبر الصوت الآخر» يشير إلى مكبر صوت جهاز التسجيل الجديد. لكن،

وكما هو الحال دائماً، علينا أن نسأل أنفسنا لماذا جرى إقحام هذا الموضوع بعينه في الحديث في تلك اللحظة بالذات؟ .. الجواب واضح: هذا السؤال، كان يعني بكل وضوح، وبشكل مبطن، لماذا يستأثر الصديق بكل الحديث؟ .. لماذا لا يشارك شخص آخر في الحديث أيضاً؟ .. أين هو المتحدث speaker الآخر في هذا الحديث؟ ..

عندما يتصور الآخرون أنك شخص متبجح

من أفدح الزلات الاجتماعية، وهي زلة متعارفٌ عليها في معظم ثقافات العالم، أن يتبجح الشخص بما لديه من مزايا. والناس عادة ما يلتقطون بسرعة هذه الهفوات التي تتمحور حول الذات. تكمن المشكلة في أنه لا سلطان لنا على الكيفية التي يدرك بواسطتها الآخرون إن كنا نتبجح أم لا. فيما يلي إحدى تلك الحالات.

بينما كنت أجلس يوماً على الشرفة الأمامية لمنزلي أُقْلِبُ البطاقات التي أدوّن فيها ملاحظاتِي، صادف مرور أحد طلبتي السابقين في سيارته فتوقف لتبادل الحديث معي. ونظراً لأنني لا أُعْتَبَر مُحدثاً موهوباً بشكل خاص فيما يتعلق بالأحاديث السطحية، فقد استأثر هو بمعظم الحديث. كان كلامه ينساب دون ترابط أشبه ما يكون بتداعي الأفكار، وهو ما تكون عليه معظم الأحاديث السطحية من هذا النوع. توقف برهة لالتقاط أنفاسه ونظر إلى بطاقتي وسألني ماذا كنت أفعل، هل كنتُ

بصدد تأليف كتاب أو شيء من هذا القبيل؟... أجبتُ باقتضاب بلهجة واثقة: «نعم، أنا منشغل بإعداد عدة أشياء، كتاب ومقالة مهنية ومحاضرة لإلقائها في أحد المؤتمرات». قال هو: «هكذا إذا»، ثم صمت لحظة وعاد لمتابعة حديثه الحافل بتداعي الأفكار. أخذ يتحدث عن «رجل من معارفه كان لا يكف عن التبجح بشأن ما يقوم به من أعمال». من الواضح أنه كان، بشكل مبطن، يتصورني شخصاً متبجحاً. فوجئت بذلك وتساءلت في سري: «هل هذا ما تظن أنني أقوم به - أتبجح؟... أعتقد أنك أنت من سألني عما كنت أفعله». يكفي هذا للدلالة على مدى إمكانية التحكم بمُدركات الآخرين.

قد تبدو القصة التالية مألوفة لديكم أيضاً. قبل بضع سنوات ابتعت وزوجتي كوخاً صيفياً صغيراً شبه مهتم في مين Maine حيث نشأت وحيث كان لدي بعض المعارف. انقضت الصيفان الأولان ونحن مشغولان بمحاولة جعل الكوخ مكاناً لائقاً للعيش. كان علي أن أسوي المكان بالأرض وأعيد بناءه من جديد، بالتالي لم يكن لدينا وقت نخالط فيه أحداً. عندما أصبح الكوخ، في النهاية، مكاناً لائقاً لاستضافة الناس، دعونا بعض الأصدقاء القدامى إلى أمسية لتجاذب أطراف الحديث. ونظراً لأننا لم نكن قد رأينا ضيوفنا لعدة لسنوات، أخذ الحديث ينتقل بسرعة البرق من موضوع إلى آخر دون ترابط منطقي، شيئاً فشيئاً تحوّل الحديث إلى موضوع الكوخ، وهكذا شرعنا أنا وزوجتي بمرافقة ضيوفنا في «جولة كبيرة» في أرجائه.

خلال سياق الحديث، بدأت إحدى السيدات من الضيوف بالكلام عن حفل كانت قد دُعيت إليه قبل بضعة أسابيع. يبدو أن أصحاب الدعوة كانوا، مثلنا، قد فرغوا لتوهم من تجديد منزلهم. خلال حديثها عن الحفل وعن مواضيع أخرى عابرة، أَفَحَمَتِ الضيفة جملة «لقد أقاموا الحفل فقط لعرض ما قاموا به من تجديدات في المنزل». لقد كانت المشاعر اللاواعية للضييفة، بشأن الدافع الذي حدا بنا لدعوتهم واضحة، أكرر هنا بأنني واثق من أن ذلك التعليق لم يكن ملاحظة دنيئة واعية. «لقد أقمنا الحفل فقط لعرض ما قمنا به من تجديدات في المنزل». فيما يتعلق بدافعنا الحقيقي، فإننا كنا بالطبع نريد «عَرَضَ كوخنا»، لكن الدافع الإنساني عادة ما يكون أعقد من ذلك بكثير. لقد كنا نرغب أيضاً برؤية أصدقائنا القدامى. يكفينا الآن تباهاً بالكوخ. إن الجنس البشري نوع غريب.

حول الأساتذة والمخبولين

ذكرت في الفصل الأول أننا كثيراً ما نضبط أنفسنا متلبسين بكلام عميق. سأقدم الآن مثلاً آخر وجدت فيه نفسي متلبساً بذلك. سأورد السياق أولاً ثم أذكر الجملة التي تحمل المعنى المبطن. قبل عدة سنوات كنت أدرّس في كلية محلية. نحن الذين درّسنا في كليات فترة التعليم فيها سنتان، كنا نعتبر أنفسنا خلال مرحلة ما من مهنتنا أكاديميين «من الدرجة الثانية»، ونعتبر الأشخاص الذين درّسوا في معاهد فترة التعليم فيها أربع سنوات

هم «الأساتذة» الحقيقيون. خلال السنوات التي انقضت منذ تخرجي إلى أن أصبحت أستاذاً جامعياً، حافظتُ على علاقة مع زميل لي من أيام الكلية ذات العامين الدراسيين حيث عملت، استمرت هذه العلاقة عن طريق المكالمات الهاتفية من حين لآخر، وفي المدة الأخيرة، عن طريق البريد الإلكتروني. سأطلق على زميلي هذا اسم جاك. كان جاك يتمتع بمظهر يفرض حضوره، وبفطنة توازي مظهره، وكان يقرأ بنهم، ويثير مناقشات صاخبة كثيراً ما تدور حول قضايا نظرية أو فكرية أو اجتماعية.

لو أن جاك كان عضواً في هيئة تدريس جامعية لأصبح أستاذاً مرموقاً، فقد كان تدريسه في كلية محلية أشبه ما يكون بامتطاء سيارة فارهة لمجرد الذهاب إلى المخزن عند زاوية الحي. لم يقم هو، لسبب من الأسباب، بهذه النقلة. لكنه كان يشعر بأنه عالق في مكانه، أضِفَ إلى ذلك غرابة أطواره. كنت أتعاطف مع وضعه كما كنت طوال تلك السنين أخشى من أنه قد يصاب بالجنون يوماً ما. في إجاباتي على النقاشات التي كانت تدور بيننا عن طريق البريد الإلكتروني، كنت أرسل له أحياناً عنوان كتاب ما (وهذا ما كان يقوم به هو أيضاً). نادراً ما كنت أرسل له عنوان كتاب لمجرد أنه خطر ببالي وحسب، بل إن الكتب كانت لها عادة، علاقة بمراسلاتنا عبر البريد الإلكتروني. كنت قد فرغت مؤخراً من قراءة كتاب آسر، توجهت إلى الكمبيوتر وأرسلت عنوان الكتاب إلى جاك، كان

العنوان «الأستاذ والمخبول». كان الكتاب يتحدث عن قصة شخص أسهم بشكل أساسي في وضع قاموس أكسفورد للغة الإنكليزية، وقام بذلك أثناء وجوده في أحد المستشفيات العقلية، الأمر الذي كان يجهله الناشرون. هل كان عقلي اللاواعي يعبر عن جزء من أفكاره في ما يتعلق بجاك، من أنه كان «بشكل مجازي» يتحدث كمخبول؟.. بما أنني كنت أدرس في جامعة فترتها التعليمية أربع سنوات، فإنني بالطبع كنت أنا «الأستاذ» في العنوان (أو هكذا خيل إلي).

المجاملات وملاحظات التقدير

ربما كنتم قد لاحظتم أن معظم أمثلة الإصغاء العميق كانت، حتى هذه اللحظة، تتعلق إما بالتعبيرات الحياضية الخاصة بكيفية استخدامنا للغة أو تتعلق بالمشاعر أو المواقف السلبية. قد تتساءلون عما إذا كان من الممكن أن يدور كلام عميق حول مشاعر ومواقف أكثر إيجابية وبهجة. جوابي أن ذلك ممكن، هناك كلام عميق إيجابي، لكنه نادر أو أنه قد يبدو كذلك. أما السبب في أن المجاملات المبطنة تبدو نادرة فيعود على الأرجح إلى حقيقة أن أكثر الناس لا يخفون مشاعرهم الإيجابية نظراً لأنه لا وجود لضوابط اجتماعية تمنع التعبير عن المشاعر الإيجابية كما هي الحال بالنسبة للمشاعر السلبية. الأهم من ذلك، أن المشاعر السلبية، بخلاف تلك الإيجابية، تميل لأن تكون أكثر قوة، بالتالي، فإن تلك المشاعر الحبيسة تسعى

للانطلاق. ومع ذلك فإننا قد نميل أيضاً لإخفاء المجاملات دون أن نعبر عنها، إما بسبب شعورنا بالحرَج لأن كبريانا قد تُجرَح بسبب التعبير عن تلك المجاملات، أو لأننا لا نود أن نبدو مترلّفين، فأنت إذا وجهت مجاملة لمديرك، قد تبدو في نظر زملائك في العمل وكأنك تتملقه. فضلاً عن ذلك، فإنه لما كان معظم الناس، بمن فيهم أنا، يولون المشاعر السلبية انتباهاً أكبر، فقد يكون ذلك هو السبب في أنني لم ألحظ كلاماً عميقاً حول المشاعر الإيجابية قدر ملاحظتي للكلام العميق حول المشاعر السلبية.

إحدى المرات الأولى التي لاحظت فيها وجود كلام عميق إيجابي كانت أثناء قيامي بإعداد رسالة الدكتوراه. كنت جالساً في مكتب رئيس اللجنة أناقش وإياه مسألة تخص أطروحتي عندما ظهر عند باب الغرفة المفتوح أستاذ معروف عضو في مجموعة صغيرة لأبحاث الاتصالات. أدرك الأستاذ أن هناك نقاشاً دائراً ولاحظ أن هناك فترة صمت سادها الحرَج، كما يحدث عادة في مواقف كهذه. دعاه رئيس اللجنة للدخول قائلاً: «تفضل بالدخول، نحن نتجاذب أطراف الحديث فحسب». رمقني الأستاذ بنظرة خاطفة، تلى ذلك فترة صمت قصيرة أخرى سادها الحرَج عندما اكتفيت بالنظر إليه ثم أشحت بوجهي بعيداً.

قام الأستاذ ببعض الحركات العصبية التي تنم عن الارتباك للحظة، وهو لا يدري ما يقول، ثم قال لرئيس اللجنة: «هل

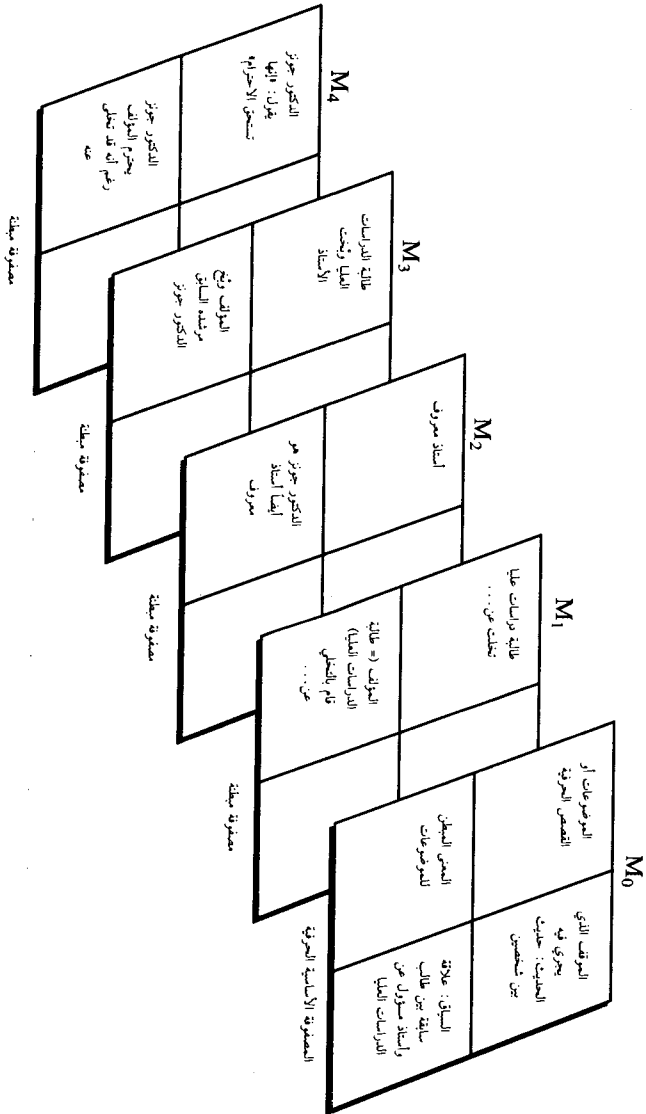
أخبرتُك بانضمام إحدى أجمع الخريجات من الطلبة إلى قسمنا - سادعوه أنا الدكتور جونز (وهو عالم معروف) - لقد تَرَكْتُهُ، أَخْبَرْتُهُ أين يستحق أن يذهب هو أيضاً. لم يَقم بذلك أحدٌ من قبل. إنها تستحق الاحترام لأنها لم تَنَحْنُ أمامه». عند ذلك رمقني الأستاذ ثانية بنظرة خاطفة، كما يحدث عندما تلتقي العيون لأجزاء من الثانية. بعد حديث قصير مع رئيس اللجنة، غادر الأستاذ الغرفة.

الآن، ما هو المعنى الحقيقي لهذه المحادثة؟... أعني ما هو معناها المبطن؟... هل كانت ببساطة معلومة حرفية جاء أستاذ مجموعة لأبحاث الاتصالات لإطلاع رئيس اللجنة عليها، أم أنها حديث عرضي أملاه الموقف الاجتماعي الواضح الحرج؟... أو أنها كلام عميق؟... إذا كانت كلاماً عميقاً كيف يتسنى للمرء تقييم هذه المحادثة الشفهية؟... (انظر الشكل 4 - 1).

لَمَّا كانت الكلمات لا «تعني» شيئاً إلا ضمن سياق، فإن فهمنا لمعناها الكامل يستدعي معرفة السياق الذي يدور فيه الحديث، لأن لهذا الحديث تاريخاً يتجاوز اللحظة الاجتماعية الخاطفة التي يدور فيها.

كان الأستاذ الذي دخل غرفة المكتب هو المُرشد الذي عملت معه ضمن مجال دراساتي العليا لفترة وجيزة، إلى أن رفضتُ أن أكون طالبة. أخبرته بأن علاقتنا لم يكن مكتوباً لها الاستمرار، فقد كنت منذ ذلك الوقت منشغلاً بوضع نظريتي

الشكل 4 - 1: مخطط مصفوفة مجاملة الأستاذ



حول الإصغاء العميق ولم أكن أنوي أن أسمح لأحد بصرفي عن متابعة هدفي للانضمام إلى برنامج أبحاث يقوم بها شخص آخر. كان هو أيضاً، كالأستاذ الذي ألح إليه في قصته، أستاذاً معروفاً ومحترماً ضمن مجاله كما أنه لم يكن معتاداً على رفض طلبة الدراسات العليا العمل معه. بل إن معظم طلبة الدراسات العليا كانوا يعتبرون اختيارهم للعمل معه شرفاً لهم.

إن مرشدي السابق في الدراسات العليا، لدى روايته القصة المتعلقة بطالبة الدراسات العليا اللامعة الذكاء التي تركت العمل مع الدكتور جونز وأخبرته أين يستحق أن يذهب، وتعليقه بأنه لم يسبق لأحد أن تصرف بهذا الشكل وبأن تلك الطالبة تستحق الاحترام لأنها لم تنحن للدكتور جونز، إنما كان يُقرُّ، بشكل مبطن، بأنه يحترم الاستقلالية في شخصي رغم أنني قد تخلّيت عنه واخترت العمل مع رئيس اللجنة. أعود لأكرر بأنني واثق من أنه لم يكن واعياً لما قاله بشكل مبطن، لأن كبريائه كانت ستمنعه من قول ذلك. على أية حال، شكراً لك يا دكتور.

إليكُم مثلاً آخر على الأفكار الخفية المتعلقة بالتقدير. كان أفراد إحدى الجماعات التي عملت معها يناقشون أمر الإحباط الذي كان يملكهم من جراء شعورهم ببطء مسارهم في التحول إلى مجموعة متجانسة. تقدم أحد أفراد الجماعة باقتراح مفاده أنهم «بحاجة لقراءة المزيد من المادة الموجودة في المنهاج». ومثلما يحدث عادة عند إبداء اقتراح بقراءة الكتاب التدريسي الذي أعدته أنا للمنهاج، ساد الصمت. تدخلت قائلاً إن

المجموعات غالباً ما تُهمل قراءة الكتاب وتطبيق ما فيه مراعاة للقاعدة التي تمنع «تباهي بعضهم على حساب بعضهم الآخر»، إضافة لأن المجموعات تلتزم بمقتضيات ما يسمى بقاعدة «الحطّ من القيمة». rate busting، ثم أوضحت أن هذا التعبير مأخوذ من عالم الصناعة، ومعناه أن يقوم أحد العمال بالعمل لدرجة يتجاوز معها أداؤه أداء زملائه من العمال، الأمر الذي يؤدي لتشويه صورتهم. عندها، قد يقوم العمال بفرض عقوبات على الزميل الذي حط من قيمتهم. صمت مطبق.

تجاهل أفراد المجموعة قولي لأن مناقشته من شأنها أن تؤدي إلى إثارة نزاعات في ما بينهم. لذا اكتفوا بالاستمرار في حديثهم. ثم اقترح أحدهم أن تقوم المجموعة بتفحص كيفية تواصلهم مع بعضهم، لكن هذا الاقتراح سرعان ما قوبل بالصمت. عندئذ تدخلت سيدة متقدمة في السن قائلة: «لماذا يصعب على الناس إبداء اللطف إزاء بعضهم؟... لماذا لا نتوجه بكلام لطيف إلى الناس عندما يقومون بشيء مفيد؟... أعقب ذلك صمت ثقيل. ما هو المعنى المبطن لكلام السيدة؟...»

في الجلسات السابقة كانت السيدة قد شكت من افتقار المجموعة للقواعد وشكت بشكل خاص من امتناعي عن الإسهام في الجلسات. رغم شكواها من أنها لا تتمكن من فهم ديناميكيات المجموعة دون مساعدة، إلا أنها لم تتجاوز حدود التهذيب واللياقة في تعبيرها عن تلك الشكوى، كما أنها لم

تكن تنفر من فكرة الاعتماد المتبادل على الغير كالأفراد الأصغر سناً. في الجلسة السابقة كنت قد رسمت على اللوح مخططاً شرحت فيه الديناميكيات الأساسية ضمن المجموعة. قمت بذلك بهدوء خلال فترة كانت تدور فيها بعض الأحاديث السطحية، ثم عدت إلى مقعدي دون أن أتفوه بكلمة.

كما يحدث عادة خلال المرحلة التي تبدأ فيها المجموعة بتطوير شعور بالاستقلال عني، تجاهل أفراد المجموعة المخطط الذي رسمته تجاهلاً تاماً. اكتفى بعضهم فقط بتسجيل ملاحظات مقتضبة عما كنت قد رسمته على اللوح، وحدها السيدة سجلت ملاحظات مستفيضة. في الجلسة التالية لم يأت أحد على ذكر المساهمة الفعالة التي قدمتها. لقد كان تساؤل السيدة «لماذا يصعب على الناس إبداء اللطف إزاء بعضهم؟... لماذا لا نتوجه بكلام لطيف إلى الناس عندما يقومون بشيء مفيد؟...» كان هو الأسلوب الذي لجأت إليه لتشكرني، بشكل مبطن، على المساعدة التي قدمتها لدى شرح الديناميكيات الحاصلة ضمن المجموعة.

وكما أفعل أحياناً، عندما يساورني الشك بأن الكلام العميق قد يكون حديثاً مُرَمَّزاً يقوله الشخص وهو يعي ما يقول، سألت السيدة إن كان بإمكانها أن تشرح لي لماذا جاءت ملاحظتها في تلك اللحظة بعينها من النقاش بما أن الملاحظة لم تبدد وكأن لها علاقة بما سبقها من ملاحظات. أجابت بأنها لا تدري لماذا تفوهت بها في تلك اللحظة. سألتها، عندئذ، عن

كيفية شعورها عندما رسمتُ المخطط على اللوح، أجابت: «كنتُ مُمتَنَّةً». عدت لأسألها عن شعورها عندما أبديتُ ملاحظة بشأن ديناميكيات المجموعة في أول الجلسة. أجابت: «شعرت بالراحة». ثم سألتها ثانية إن كانت ترى أية علاقة بين ملاحظتها وبين إسهاماتي التوجيهية التي جاءت قبل إبداء ملاحظتها، رغم هذا التلميح، هزت رأسها بالنفي. عندما شرحت لها تفسيري الكامل للأمر، اتسعت عيناها دهشة وشهقت بالقول: «يا إلهي، هذا صحيح». أعتقد بأنني قد تكلمت بما يكفي عن أننا السادة الواعون لمقاصدنا وأنا نحن من نقوم بتوجيه مسار لغتنا.

ما الذي يخفيه اسم ما؟...

لقد استهللت الفصل الأول بمثال عن اسم فرقة موسيقى الروك الشهيرة «الموتى الممتنون» الذي استُخدم ككلام عميق للتعبير عن الشعور بالملل أو «بالموت» خلال اجتماع عمل، وعن الشعور «بالامتنان» للخروج من الاجتماع وأخذ فترة راحة لشرب القهوة. كان ذلك مثلاً عن الكيفية التي يستخدم بها الناس الأسماء ككلام عميق للتعبير عن مشاعرهم. عليك إذًا، عندما تكون متيقظاً للإصغاء بعمق، أن تترقب ورود الأسماء في الحديث: أسماء الفرق الموسيقية أو أسماء أشخاص مرموقين أو عناوين أفلام سينمائية أو أسماء منتجات معروفة أو أسماء أشخاص يعرفهم المشتركون في الحديث معرفة شخصية.

قد تجمع الأسماء أحياناً بين علاقات صوتية أشبه بالتورية

وبين دمج اسم باسم آخر. كنت عصر أحد الأيام، مثلاً، في منزل صديق لي لحضور حفل شواء. عندما حان وقت وضع الطعام في الحفرة التي أعدها صديقي لهذا الغرض، أبدى أحدهم ملاحظة بأن الحفرة كانت أصغر من أن تتسع للطعام الذي يجب شواءه، وافق معظم الحاضرين على ذلك، بينما اكتفى الآخرون بالضحك. ثم قال أحدهم: إن حَفَرَ مثل هذه الحفرة الصغيرة كان من قبيل التهور الأحمق foolhardy، يعني ذلك حرفياً أن حفر حفرة صغيرة بهذا الشكل لإعداد الشواء هو تصرف أحمق foolish. ما يعنينا من حيث الإصغاء العميق هنا أن لقب صديقي كان Hardy. بعبارة أخرى، كم كان هاردي أحمقاً fool Hardy. رغم أن هذا المثال لا يزلزل أركان الأرض، إلا أنه يُظهر الآلية المعرفية في العقل وهي تمارس عملها.

إليكُم مثلاً آخر يتناول استعمال الأسماء ذات الأصوات المتماثلة للتعبير بشكل مبطن عن فكرة أو عن شعور إزاء شخص ما. استقيت المثال من إحدى المجموعات التي عملت معها وكان أفرادها يشعرون بالضييق حيال أحد زملائهم الذي كان يُجري بعض التجارب عليهم عن طريق اختبار أساليب مختلفة للقيادة والتواصل. كان بارعاً في تبني الأساليب المختلفة، الواردة في النصوص التي أعدتها أنا للقراءة من أجل إرساء قواعد علاقات ومشاعر طيبة بين أفراد المجموعة. وبما أنه لم يكن قد تجاوز مرحلة تعلُّم تلك الأساليب، كانت طريقته

تبدو «مُتصنَّعة» في بعض الأحيان. بعد فترة صمت قصيرة، بدأ أحدهم بالحديث عن الأفلام السينمائية.

تحدث الرجل بشكل خاص عن المخرج السينمائي ستانلي كابرليك Kubrick، الذي اشتهر بفيلمه Dr. Strangelove، إضافة لأفلامه الأخرى. هناك جانبان يثيران الانتباه بشكل خاص بشأن اختيار اسم ستانلي كابرليك من بين جميع الأسماء المحتملة للمخرجين المعروفين التي كان بالإمكان اختيارها للحديث عنها. الجانب الأول هو أن كابرليك كان آنذاك معروفاً بالتأثيرات الخاصة التي كان يستخدمها في أفلامه، الجانب الثاني، والأكثر مدعاة للاهتمام، هو أن لَقَّبَ الرجل الذي كان يسبب الضيق لأفراد المجموعة هو كاليك . Kulick إذًا، فقد كانت المجموعة تُعلّق بشكل مبطن على نوعية أساليب التواصل بين الأفراد، التي كان ذلك الرجل يطبقها عليها، والتي تحمل شَبهاً بالتأثيرات الخاصة. ربما كان ذلك الفرد من المجموعة، الذي اختار اسم ستانلي كابرليك، ليعلّق بشكل مبطن على استخدام كاليك لتلك الأساليب من أجل خلق مشاعر الود ضمن المجموعة، ربما كان يشعر بأن استخدام كاليك لتلك «التأثيرات الخاصة»، لإيجاد علاقات شخصية بين أفراد المجموعة، كان نوعاً غريباً strange من الحب love Strangelove .

يعود الفضل في المثال التالي إلى زميل لي كنت أدريه على قيادة المجموعات وعلى الإصغاء العميق. كنت غائباً عن جلسة المجموعة في اليوم الذي جرت فيه أحداث المثال. كانت

المجموعة مؤلفة من خليط من الأشخاص منهم من كان من جماعة الهيببي hippie، ومنهم من كان من الطلبة المتمين للطبقة المتوسطة، إضافة لاثنيين من رجال شرطة الولاية، كانا قد صرّحا عن هويتهما منذ البداية. كان أفراد المجموعة قد بدأوا لتوهم في التعرف على بعضهم، وكانوا يعبرون عن مشاعر الإحباط والغضب والحيرة التي كانت تنتابهم بسبب الغياب الواضح للهدف، وبسبب ما كانوا يتصورون أنه غياب القيادة. خلال تلك الجلسة، طُرحت عدة مواضيع بهدف النقاش، لكن موضوع المخدرات كان هو الموضوع الذي تم اختياره لإجراء نقاش مستفيض بشأنه. لدى الحديث عن المخدرات، طالب معظم الأفراد من جماعة الهيببي السماح ببيع المخدرات بشكل قانوني. كما تحدث أفراد المجموعة أيضاً عن «تدني نوعية الخدمات» في المجتمع بشكل عام، وعن قيام شركات المستحضرات الصيدلانية مثل أبجون Upjohn بنهب rip off الناس.

إن عبارة «تدني نوعية الخدمات» توحى، عند مستوى ما، بأن أفراد المجموعة كانوا يعتقدون أن غيابي، وتركهم مع مدرب حديث العهد، كان مثلي لا يميل للتوجيه، أدى «لتدني نوعية الخدمات ضمن المجموعة» أكثر من العادة، بالتالي فقد كان يجري نهب rip أفراد المجموعة. أي أن زميلي كان ينهب الطلاب تماماً مثلما كانوا يتصورون بأن شركة الأدوية Upjohn كانت تنهب الزبائن. الأمر الذي يحمل مغزى خاص هو اختيار

شركة Upjohn من بين جميع شركات المستحضرات الصيدلانية المعروفة التي كان بالإمكان اختيارها. علينا أن نتساءل، كالعادة، لماذا يُستخدم موضوع أو كلمة أو عبارة أو جملة أو قصة أو اسم بالذات ضمن سياق معين في وقت معين. إليكم الجواب: ليس من قبيل الصدفة أن اسم زميلي، المدرب الحديث العهد، كان جون John. ولمّا كان أفراد المجموعة لا يشعرون بالارتياح إزاء طلب العون بشكل مباشر من جون، كان اسم Upjohn يعني بشكل مبطن: «انهض يا جون Get up John» وباشر القيادة⁽³⁾.

بالإمكان أيضاً استخدام أسماء منتجات ذات علامات تجارية معروفة ككلام عميق للتعبير عن دواعي القلق. بدأت إحدى المجموعات «بمحض الصدفة» بالحديث عن نوع قديم من أدوية السعال يسمى «الأخوان سميث». لماذا اختير الدواء الذي يحمل هذا الاسم بعينه لإجراء نقاش بشأنه؟... إذا لم تكونوا قد بدأتُم فعلاً بالاشتباه بالجواب، فهو كالتالي: كان هناك «مدرّبان» في المجموعة، ومن هنا كلمة «الأخوان». لكن هناك ما هو أكثر. إذا كنتم تعرفون صورة الأخوين سميث المرسومة على العلبة، لا شك بأنكم ستدركون أيّ من الأخوين يُمثّل، بشكل مبطن، أيّاً من المدرّبين. كانت العلامة التجارية

(3) أود أن أشكر زميلي جون هيبس لتقديمه هذا المثال. انظر كتابي «بين السطور» من أجل المزيد حول الأسماء التي تستعمل بشكل مبطن.

للدواء في ذلك الوقت، هي صورة الأخوين سميث التي يظهر فيها رجلان ملتحيان، أحدهما لحيته سوداء والآخر ذو لحية ضاربة إلى الحمرة. بالتالي، ليس من قبيل الصدفة أن المدرب المساعد في ذلك الوقت كان ذو لحية سوداء، كانت لحيتي أنا ذات لون ضارب للحمرة. لم يكن ذلك من قبيل الصدفة بالتأكيد.

كما هو الحال بالنسبة للفيزيائي المتمرس الذي يعرف أن ظهور علامات معينة ذات دلالة في حجرة الفقائيع bubble chamber المملوءة بالغاز يعني وجود جسيم دون ذري subatomic particle محدّد، كذلك الأمر بالنسبة لشخص متمرس بأسلوب الإصغاء العميق، فهو يستطيع إدراك أن وجود علامات معينة ذات دلالة ضمن الأحاديث يعني وجود أفكار ومشاعر لا واعية أو دفيئة.

المشاعر إزاء القادة المفتقرين للكفاءة

هناك شك يساورنا على الدوام بأن الوالدين ومن يجسّدونهما من «القادة» أو «الزعماء» قد لا يعون ما يفعلونه بل إنهم قد يفتقرون للكفاءة. مما لاشك فيه أن الأشخاص الذين نشأوا في بيوت تعاني العائلات فيها من تفكك خطير، حيث لم يقيم الوالدان، أو لم يتمكنوا من القيام، بدورهما القيادي بشكل صحيح، هؤلاء الأشخاص قد يتحسسون بشكل خاص لدى ملاحظتهم الافتقار للكفاءة لدى رموز السلطة. ليس هناك، على

آية حال، فاصل كبير بين الإحساس بعدم فهم ما يقوم به (أو ما لا يقوم به) القائد وبين مشاعر الشك بافتقاره للكفاءة.

سأبدأ هذا المقطع بذكر مثالٍ نظريّ يرتكز على أساس مثال آخر. لنفترض أنك عُيِّنْتَ لإدارة حلقة دراسية أو سلسلة محاضرات تدريب مدتها أسبوع كنت أنت من «خطط لها وأعدّ المادة التدريسية» (التي كنت تستخدمها، ولنقل، مثلاً، أنها كانت كراساً يبين كيفية تعريف الموظفين بنظم الشركة وسياساتها المتعلقة بالتحرش الجنسي والمعايير الأخرى كالأساليب المقبولة في ارتداء الثياب. لنفترض أيضاً أنك تلقيت دورة تثقيفية حول التعلُّم المشترك، وهي طريقة للتعلُّم ضمن مجموعات صغيرة. كانت النتيجة «أنك قررت أن تدير هذه الحلقة أو هذه السلسلة من المحاضرات بطريقة تجعل معها المشتركين يعملون ضمن مجموعات صغيرة يتعلمون فيها المواد بأسلوب الاكتشاف الذاتي بدل قيامك بإلقاء المحاضرات عليهم». فوق ذلك، «كان مكان انعقاد تلك الحلقة أو سلسلة المحاضرات فندقاً قديماً أشبه بالكاتدرائية». لتتابع الافتراض أنه «عندما اقتربت الحلقة الدراسية من منتصفها بدأ بعض المشتركين بالوصول متأخرين كما بدأوا بالتباطؤ في العودة من استراحات شرب القهوة، وأنه كان يتعيّن عليك معالجة هذه المسألة». إضافة لما سبق، «كنت تشعر بانجذاب خفي، وإن كان متبادلاً، نحو إحدى المشاركات بالمحاضرات التدريبية». لدى حلول منتصف فترة الحلقة، «سألت المشاركين إن كانت المحاضرات تسير سيراً حسناً وإن

كانوا يتعلمون فيها أشياء مهمة». ولما كنت أنت المشرف عليهم أو على الأقل المكلف بالإشراف والتوجيه فإن «معظم الأشخاص لن ييوحوا لك بمشاعرهم السلبية». (حتى في حال تقارير التقييم الرسمية في نهاية برامج كهذه، والمسماة «صفحات الابتسام»، غالباً ما يمتنع الناس عن التعبير عن مشاعرهم الحقيقية، هذا مع افتراض أنهم يدركون تلك المشاعر).

لنفترض الآن أنك خلال استراحة طويلة لشرب القهوة، لدى اقتراب نهاية برنامج التدريب، تنهى إلى سمعك، دون قصد، حديث بعض المشاركين وهم يتكلمون عن « (أ) إله لا يساعد أحداً، (ب) أن الكتاب المقدس من تأليف البشر ولا يمكن اعتباره القول الفضل، (ج) لكي تكون متديناً لا يتوجب عليك التردد إلى الكنيسة، (د) تلك الكاتدرائيات الضخمة التي يجري التدريس فيها مهمتها الوحيدة هي غسل الأدمغة، (هـ) إذا تخلفت عن الذهاب للكنيسة سيجعلونك تشعر بالذنب، (و) هناك كثير من المسيحيين منافقون يشتهون زوجات وأزواج جيرانهم». إذا قارنا هذه الموضوعات التي تم اختيارها للحديث خلال الاستراحة مع سياق التدريب الذي وصفته للتو، هل أحتاج لقول المزيد بشأن ما قد يكون شعور المشاركين الفعلي؟... وهل هناك أية فائدة قد تترتب على فهمك لكلام عميق من هذا النوع؟... بإمكانك أن تكون واثقاً من ذلك.

سأقص عليكم الآن قصة حقيقية لأرى كيف يمكن لكم تطبيقها وذلك بأن تعتبروها نوعاً من القياس analogy أو الحكاية الرمزية parable لموقف سبق وأن مررت به أو لموقف تفترضون أنكم قد تمرّون به مستقبلاً. يبدو أحد أشكال القالب template العام المتعلق بعدم كفاءة القائد كالتالي: هناك تصوّر واسع الانتشار في مجتمعنا (لا يخلو تماماً من الحقيقة، لكنه أيضاً ليس صحيحاً بالكامل) بشأن أساتذة الكليات، وهو أن «أبحاثنا وكتبنا ليست في الواقع عملية» وأنا «نضع نظريات بمعزل عن العالم الحقيقي» لا تنطبق على الحياة اليومية. من هنا جاءت العبارة المعروفة «البرج العاجي» لتشير إلى الجو الأكاديمي.

خلال جلسة لإحدى المجموعات، أثير نقاش حول الزواج والمشاكل التي يواجهها أي شخصين يحاولان إنشاء علاقة. ثم تطرق النقاش إلى موضوع التنافس بين الأشقاء والمشاكل المتعلقة بتطوير هوية ضمن العائلات الكبيرة العدد. قال أحد أفراد المجموعة أنه «يعرف عن المشاكل المتعلقة بالهوية» لأنه كان «توأمًا». ومضى يقول أن «علماء النفس لا يعرفون أي شيء فيما يتعلق بالتوائم، فجميع الكتب التي قرأتها لا تتفق وتجربتي الخاصة». ثم أضاف أن «علماء النفس يقومون بتأليف كتب لا فائدة منها، مما يجعلني أتساءل عن مدى الجدوى الفعلية لكتاب دكتور سبوك» «هذه إشارة حرفية للكتاب الشهير الذي ألفه الدكتور بينيامين سبوك حول تربية الطفل». لقد كانت المواضيع الحرفية المتعلقة بالمشاكل القائمة في الزواج، وبإنشاء

العلاقات، وتطوير الشعور بالهوية الفردية ضمن العائلات الكبيرة العدد والتنافس بين الأشقاء، كانت كلاماً عميقاً حول المسائل ذات الصلة بالعلاقات والهوية والتنافس ضمن المجموعة في تلك اللحظة.

من الواضح طبعاً أن الموضوع الذي أعقب ذلك يرتبط بالتصور اللاواعي لعدم كفاءتي كقائد. فالكلام عن «علماء النفس الذين لا يعرفون شيئاً» هو، بالطبع، كلام عميق حول «جهلي بما يحدث ضمن المجموعة». والقول بأن «كل الكتب التي قرأتها لا تتفق وتجربتي الخاصة» يُقصد به أن «كل الكتب الخاصة بالمنهاج التي تُصَفُّ مجموعات التدريب لا تتفق وتجربته الخاصة ضمن المجموعة». أما ملاحظته القائلة بأن ذلك «يجعلني أتساءل عن مدى الجدوى الفعلية لكتاب دكتور سبوك» فهي كلام عميق يشكّل إشارة محددة إلى أن «الكتاب التدريسي الذي وضعته للمنهاج لا يتمتع بأية قيمة فعلية». إن ما يجعل هذا النقاش، الذي بدأ بمناقشة العلاقات والهوية والتنافس بين الأشقاء، ما يجعله مرتبطاً ببعضه هو اختيار ذلك الكتاب المحدّد المتعلق «بتربية الطفل». فالأساس الكامن تحت ذلك كلّهُ هو «قالب الوالد الذي ينطبق عليّ بوصفي والداً وينطبق على المجموعة التي كان أفرادها يشعرون كما يشعر الأطفال».

هناك مثال عام أخير على الإصغاء العميق يوضح كيف يقوم الناس، في العقل اللاواعي، بالتعليق على علاقتهم بك. ما هو المعنى الذي قد يحمله حديث المجموعة بأن «الوظيفة

الحكومية هي نهبٌ لأموال دافعي الضرائب؟... هل يمكن اعتبار ذلك مجرد كلام حرفي لا يعني سوى ما يقوله؟... أم أنه يحاول أن يخبرك بأمر قد يهملك؟... ليس من العدل في شيء أن أسألك عن معنى الحديث دون أن أعطيك فكرة عن السياق الذي جرى ضمنه. هل يفيدك أن تعرف أن ذلك الحديث قد أُثير في الواقع ضمن نقاش جرى بين أفراد المجموعة بُعيد «عودتي بعد أن تغيبْتُ لجلستين دون إنذار مسبق»؟... يجب أن يفيدك ذلك بالطبع. هذا الموضوع يعكس، على الأرجح، امتعاض أفراد المجموعة بسبب «غيابي عن الاجتماعات وبالتالي فهو يعكس شعورهم بأنهم لا يحصلون على مقابل ما لقاء ما دفعوا من مال» - تماماً كما يشعر بعض دافعي الضرائب غالباً بأنهم يتعرضون للنهب وذلك فيما يخص الصورة النمطية التي يحملونها عن موظفي الحكومة الذين لا يتعين عليهم العمل بجد رغم حصولهم على مزايا لا يحصل عليها عمال كثيرون في عالم الأعمال.

حاول أن تطبق هذا المثال على نفسك، وذلك في حال سماعك نقاشاً حول موضوع كهذا بعد عودتك إلى العمل إثر غياب طويل. ماذا تفعل برسالة لا واعية من هذا النوع؟.. قد يكون الجواب هو أن تقوم تماماً بما يتعين عليك القيام به إذا سمعت الناس يقولون حرفياً بأنهم مستاءون من غيابك عن العمل: عالج الموقف. لكن في هذه الحالة لا تعالج الموقف بشكل مباشر، لأنهم لم يوجهوا رسالة مباشرة. بإمكانك هنا أن

تكشف عَرَضاً عن سبب غيابك. ستصل الرسالة إلى عقلهم اللاواعي.

وتذكّر، كلما أُثير موضوع يتعلق بالأطفال، فقد تكون تلك إشارة إلى أن المجموعة تشعر إما بأنها خُذِلت من قِبَل القائد (الذي يعادل الوالد من الناحية العاطفية)، أو بأن القائد، بوصفه والدًا، لا يؤدي المطلوب منه وبالتالي فهو غير كفاء إضافة لشعور أفراد المجموعة بأنهم يعاملون كالأطفال.



اكتشاف حُسن الاستماع: ما لم يدركه فرويد، لكنه كاد أن يدركه

عندما تكتشف شيئاً كهذا، فإنك كمن يكتشف سناً سقطت
منه الحشوة. لا تستطيع إطلاقاً أن تتركه وشأنه.

روبرت بيرسنگ

رياضة زن الروحية وفن صيانة الدراجات النارية⁽¹⁾

في مطلع شبابي، بدأت أقرض الشعر وتخيل نفسي كاتباً
مبدعاً واعداداً. سحرتني اللغة المجازية في قصائدي والطريقة التي
كانت تتراصف بها الكلمات إلى جانب بعضها وأدت إلى تَفَتُّح
ذهني. أصبحت، ولسبب لا يخفى، مهووساً بالمجاز والتشبيه.
في كلٍ من أطروحتي التخرج والماجستير قمت بدراسة التفكير

(1) ر. بيرسنگ، رياضة زن الروحية وفن صيانة الدراجات النارية (نيويورك:

المجازي والتشبيهي، وكانا حينئذ يُعتبران، من قِبَل كثيرين، وسيلتين أدبيتين⁽²⁾.

إن نظرة ولو خاطفة إلى تاريخ العلوم تظهر مدى الاعتماد على التشبيه المجازي في التفكير الاستنتاجي. إحدى تلك التشبيهات المجازية المعروفة في مجال العلوم هو الصيغة القديمة التي وضعها عالم الفيزياء الإنكليزي إيرنست روجر فورد (1871 - 1937) وقارن فيها تركيب الذرة بالنظام الشمسي، حيث شبه نواة الذرة بالشمس وشبه الإلكترونات الدائرة حولها بالكواكب. نُطلق على هذا النوع من التفكير، ضمن مجال العلوم، اسم «بناء النموذج» model building⁽³⁾ بعد ذلك بوقت طويل بدأ الباحثون المعرفيون يدركون أهمية التفكير الاستنتاجي القائم على التشبيه والمجاز. ولا يزال العلم المعرفي ميالاً للانشغال بالجوانب الطححية البسيطة من التشبيه المجازي ضمن مجال العلوم وبالتفكير الاستنتاجي القائم على التشبيه والمجاز وصولاً إلى تحليلات لا نهاية لها، منها على سبيل المثال تحليل تشبيه روجر فورد⁽⁴⁾. منذ أن بدأ الجنس البشري بالتفكير بشكل

(2) ر. ي. هاسكيل، «تحليل القياس التمثيلي: نظرة جديدة»، Journal of Humanistic Psychology 8 (1968) 161 - 169.

انظر أيضاً ر. ي. هاسكيل، تحرير، المعرفة والبنيات الرمزية: علم نفس التحويل المجازي (نور وود، نيوجرسي: أليكس پابليشنغ، 1968).

(3) م. هيس، النماذج والقياسات التمثيلية في العلوم (نيويورك: شيد أند وورد، 1963).

(4) انظر، مثلاً، د. جنتنر «تحديد موقع البنية: إطار نظري للقياس =

منهجى، كان الفلاسفة من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو يمجّدون أهمية علاقات التشابه ضمن مجال الفكر⁽⁵⁾.

بالنسبة لي، تُعتبر الآليات المعرفية الكامنة في أساس الإصغاء العميق هي العملية الأساسية في نشوء ما ندعوه عادة بالتفكير الاستنتاجي القائم على التشبيه والمجاز وما ندعوه بنقل التعلّم⁽⁶⁾. فالسرد المبطن يمكن اعتباره نوعاً من المجاز الذي يشكّل فيه السرد الحرفي تعبيراً مجازياً عما يجري فعلاً ضمن حديث ما، أو تشبيهاً له. وهكذا، فإن اهتمامي المبكر بالتفكير الاستنتاجي القائم على التشبيه والمجاز، شكّل البدايات لما

= التمثيلي» Cognitive Science 7 (1983): 155- 170، م. ل. غيك وك. ج. هولويك، «حل المشاكل بالقياس التمثيلي». Cognitive Psychology 306-355 (1980): 12.

(5) قال سقراط: «أنا من أشد المتحمسين لعمليات التقييم والتعميم، فهي تساعدني على الكلام وعلى التفكير. وإذا عثرت على رجل يستطيع أن يرى «الواحد والكثير» في الطبيعة فسأبذعه وسأسير في إثره كما لو أنه كان إلهاً». انظر أفلاطون، Phaedrus، ترجمة و. ي. هيلمبولد و. ج. رابينوفيتش (نيويورك: بوبس ميريل، 1956). ردد أرسطو في ما بعد الفكرة ذاتها: «إن أعظم شيء حتى الآن هو أن تسيطر على المجاز. إنه الشيء الوحيد الذي لا يمكن تعلّمه من الآخرين. إنه علامة العبقرية». انظر ل. كوبر، بلاغيات أرسطو (نيويورك، أبلتون - سنتشري - كروفتس، 1960) 101.

(6) انظر ر. ي. هاسكيل، نقل التعلّم: المعرفة والتوجيه والتفكير (سان دييغو: أكاديميك پرس، 2000).

كنت بصدد اكتشافه⁽⁷⁾. ربما كنت مهياً بطبيعتي لفهم المعنى «المجازي»، كما أنني توصلت للاعتقاد بأن دماغنا قد أصبح، عبر التطور، مهياً لإيجاد مدلولات ثابتة لا تتغير.

بحثاً عن حلقة كولا الخاصة بالعقل

يجب أن يكون قد اتضح الآن بأننا لا نكون، في أغلب الأحيان، مدركين تماماً لما نقوم به ونقوله، ولما يقوم به الآخرون ويقولونه. بالتالي، فإن جزءاً كبيراً من حياتنا الاجتماعية يجري بصورة لا واعية، ونحن غالباً ما نشارك في مدلولات اجتماعية لا يخطر لنا بأننا نُسهم فيها. لقد توصلت إلى هذه الحقيقة الاجتماعية لدى التحاقني بدورة لدراسة علم الأجناس البشرية عندما كنت في السنة الثانية من دراستي الجامعية. ألقى علينا المدرّس محاضرة تحدث فيها عن اكتشاف داروين للتطور والاصطفاء الطبيعي في تاريخ البشرية وعن الاكتشافات المعروفة التي قام بها لويس وماري ليكي في Olduvai Gorge، حيث عثرا على مستحاثات تشبه المستحاثات البشرية تعود إلى ملايين السنين.

كما حدثنا المدرس عن عالم الأجناس البشرية العظيم برونيسلو مالينوسكي (1884 - 1942). قام مالينوسكي بأبحاث

(7) ر. ي. هاسكيل: التحوّلات الشبيهة: نظرية معرفية حول أصل وتطور تحوّل التكافؤ، الجزء الأول المجاز والفعالية الرمزية 4 (1989): 247 - 259.

في جُزُر Trobriand، وهي مجموعة من الجزر الصغيرة الواقعة جنوب المحيط الهادي. اكتشف مالينوسكي في تلك الجزر ما دعاه في ما بعد باسم حلقة كولا، وهي فعالية يقوم بها كل شخص من سكان الجزر مرة في العام. تشمل حلقة كولا نشاطاً تجارياً طقسياً ritual trading بأساور الذراع والقلادات المصنوعة من أصداق البحر. كان كل شخص من سكان الجزر يتاجر دائماً مع قريب له محدّد. وجد مالينوسكي أن القلادات كان يجري الاتجار بها على الدوام باتجاه عقارب الساعة حول الجزر، وأن أساور الذراع كانت تدور حول الجزر في الاتجاه المعاكس بشكل لا يتبدّل.

المثير في الأمر أن بين سكان الجزر لم يكن من يدرك بأن القلادات كانت دائماً تتحرك باتجاه عقارب الساعة، وأن أساور الذراع كانت تتحرك بشكل لا يتبدّل في الاتجاه المعاكس. ويبدو أن كيفية وسبب نشوء حلقة كولا هذه سيظلان لغزاً. سحرتني الفكرة. حملتني تلك القصة على التساؤل عما إذا كان هناك أمور تأخذ مجراها في حياتنا الاجتماعية اليومية تتجاوز مجال إدراكنا. فمثلما كان كل شخص من سكان الجزر يشارك دون أن يعي في فعالية اجتماعية، تساءلت أنا في ما بعد إن كنا نحن أيضاً نشارك في مدلولات لا واعية نقوم فيها بإيجاد نوع من حلقة كولا ضمن أحاديثنا.

العملية العلمية، غالباً، ليست عملية منهجية عقلانية بالصورة التي تُظهرها بها معظم الكتب الدراسية. ما تصفه

الكتب الدراسية العادية فعلياً هو ما يُدعى بـ «العلم الطبيعي»⁽⁸⁾. العلم الطبيعي هو ما يحدث عقب القيام باكتشافٍ أوليٍّ ما: فأنا لم أكتشف الإصغاء العميق عن طريق وضع فرضيات بشكل منهجي ومن ثم اختبارها، كما تقول الكتب العلمية الدراسية بأن العلماء «الحقيقيين» يفعلون. لقد جاءت ملاحظة تلك الأفكار نتيجة اهتمامي بعلم النفس المعرفي (أي الكيفية التي يعمل بها العقل)، ونتيجة التفكير الاستنتاجي القائم على المجاز والتشبيه (الذي كنت أعتبره، حتى في ذلك الوقت، بمثابة نوافذ أطل منها على مجريات عمل العقل) بالإضافة لاهتمامي بتصرفات أفراد مجموعات التدريب التي كنت أعمل معها. لدى إدارة تلك المجموعات كنت طبعاً أتساءل باستمرار: ما الذي يجري هنا؟... وبينما كنت أبحث عن جواب، بدأت ألاحظ أن بعض الموضوعات الواردة ضمن أحاديث المجموعات كانت تبدو وكأنها نوع من «نظام رموز مجازية» يمكن اكتشاف معانيه.

رحلة يوم طويل إلى قلب الليل: حول الرموز السرية والإصغاء العميق

في سنة 1972، على وجه التقريب، بدأت ألاحظ كيف أن أفكاراً «تشبيهية» أو «مجازية» معينة شديدة العمومية، كما دعوتها

(8) انظر ت. كوهن، بنية الثورات العلمية (شيكاغو: يونيفرستي أوف شيكاغو برس، 1970).

أول الأمر، كانت تُستخدم ضمن أحاديث المجموعات⁽⁹⁾. كما شرحت سابقاً، كان كثيراً ما يجري اختيار أفكار تتعلق برجل الشرطة لمناقشتها وذلك عندما يبدو أفراد المجموعة وكأنهم يشعرون بالقلق إزاء دوري السلطوي كمدرب. وسرعان ما اتضح لي أن تلك «التعبيرات المجازية» كانت تمثل أشكالاً من التواصل اللاواعي المتعلق بالمشاعر ودواعي القلق. لم يكن أفراد المجموعات يعون السبب الحقيقي الذي دفعهم لاختيار تلك الموضوعات، بل إنني كلما كنت أشرح لهم الفكرة وأسألهم عنها، كانوا يضحكون ويعزون الأمر للصدفة. لكنني كنت أعتقد أن ذلك الحديث الآسر كان أكثر من مصادفة، أكثر بكثير. كان السؤال يتناول ما إذا كانت تلك المعاني «المجازية» حقيقية أم أنني كنت أبالغ في تفسير معانيها.

إضافة لاهتمامي المبكر بالتعبيرات المجازية والتشبيه، فإن سعيي إلى فك رموز المعاني الخفية ربما كان قد تأثر أيضاً بتجربتي في الجيش الأميركي. ففي تلك الأيام التي كان فيها الشبان يساقون إلى الخدمة العسكرية رغماً عنهم، تطوعت في الجيش بُعيد تخرجي من المدرسة الثانوية، لعله يتاح لي مجال اختيارٍ أوسع للعمل الذي سيوكل إلي. بعد اختبار جدارتي وإمكاناتي، قرر المسؤولون في الجيش أنني أتمتع بجدارية

(9) ر. ي. هاسكيل «نموذج تشبيهي لسلوك المجموعات الصغيرة.

تؤهلني للعمل في مجال الإلكترونيات والكتابة بالشفرة، التي كانت تتضمن أيضاً فك رموز الرسائل السرية. اخترت الكتابة بالشفرة طبعاً، لم أختزها لاعتقادي بأن لها علاقة بالتفكير الاستنتاجي القائم على المجاز - فلم أكن حينئذ أعرف شيئاً عن هذا النوع من التفكير - بل اخترتها ببساطة لأنها بدت لي مثيرة. وهكذا تم تعييني في وحدة استخبارات تابعة للجيش وتلقيت تدريباً على فك الرموز السرية في وكالة الأمن القومي National Security Agency (NSA)، التي كانت قد نشئت حديثاً كما كانت مغلفة بالسرية الشديدة. في وقتنا الحالي، تجري معظم أعمال فك الرموز بواسطة أجهزة كمبيوتر ذات سرعات عالية.

كما هو الأمر لدى فهم معاني الكلمات، لا تقتضي عملية فك الرموز فقط فهم بعض القواعد اللغوية والمنطق، بل فهم سياق الرسائل أيضاً. على سبيل المثال، كانت معرفة تاريخ ومكان الوحدة التي جاءت منها الرسائل تساعد في فك رموز تلك الرسائل. كما أن التعرف إلى أسلوب الشخص الذي أرسل تلك الرموز كان يُعتبر أيضاً أمراً مهماً، فقد كانت كل مجموعة من الرموز تحمل نوعاً من «البصمات» التي يمكن التعرف إليها. كان عملاً شاقاً ومتعباً. ليس هناك من شك في أن التدريب الذي تلقيته على فك الرموز خلال عملي مع الجيش كان أحد العوامل التي ساهمت في ترسيخ ميولي لفك رموز اللغة المبطنة. فالكلام العميق، رغم كل شيء، يمكن اعتباره نوعاً

من الرسالة السرية الملعَّزة. وهكذا، تحوَّلت من الاهتمام بالشعر، في وقت مبكر من حياتي، إلى فك الرموز، وتبين فيما بعد، أنني كنت أكثر مهارة في فك الرموز مني كشاعر.

تعود نزعة المخلوقات البشرية لكتابة رسائل سرية بواسطة الألغاز، ولو بشكل واع على الأقل، تعود إلى بدايات التاريخ المدوَّن⁽¹⁰⁾ فاعتباراً من العصر البرونزي (3500 ق. م)، كان الناس في منطقة الشرق الأدنى يُدرَّبون على فك رموز النصوص الملعَّزة. يُدعى أحد أول وأبسط أشكال الكتابة بالألغاز acrostic. يمكن بواسطة هذا النوع من الكتابة فك رموز رسائل خفية عن طريق جمع الأحرف الأولى من كل سطر أو من كل بيت شعر في النص. وقد عُثر على هذا النوع من الكتابة في رقيم فخاري وُجدَ في العراق يعود إلى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد. النص الموجود على الرقيم هو عبارة عن قصيدة دينية مؤلفة من سبعة وعشرين بيتاً. لكن القصيدة كُتبت لتُقرأ من قِبَل شخص يعرف «المفتاح». كان جَمْع المقاطع الأولى لكل بيت في القصيدة يكشف رسالة خفية منفصلة. لكن ما كنت ألاحظه أنا لم يكن عملية واعية.

عندما كنت أحوّل الأحاديث التي كانت تدور بين أفراد المجموعات إلى محاضر مطبوعة، كان يتضح لي بشكل مطَّرد

(10) د. كاهن، أساليب فك الرموز: قصة الكتابة السرية (نيويورك: سكريبنر،

أن المجريات المعقدة والتراكيب الخاصة باللغة كانت، إلى حد ما، تشكّل مفتاح ألغاز تلك الرموز العقلية. وهكذا بدأت بتحليل تلك المحاضر سعيًا وراء العمليات اللغوية والمعرفية التي قد تساعدني في فك الرموز وفي اختيار وترسيخ فرضياتي المتعلقة بمعاني تلك الموضوعات «المجازية».

لدى قيامي بالتحليل، بدأت ألاحظ وجود عمليات لغوية ومعرفية غريبة لكنها - وهذه نقطة مهمة - متسقة وثابتة. لاحظت، مثلاً، أن الموضوعات المبطنة كانت تُطرح «فقط» من قِبَل أفراد كانوا مَعْنِين عاطفياً بالشأن الذي يعالجه الموضوع. فالأفراد الذين لم يكونوا مهتمين، مثلاً، بأمر «قيامي بتدوين ملاحظات»، لم يثيروا موضوعات حرفية سلبية تتعلق «بالصحفيين». موضوعات كهذه كان يثيرها فقط الأفراد الذين كنت أعرف أنهم يهتمون بأمر قيامي بتدوين ملاحظات بشأنهم. قادتني هذه النتيجة المهمة إلى اكتشافات أخرى تتسم بالثبات والمنهجية.

كما استوقفتني عملية أخرى مهمة وهي أن الشخصيات في القصص الحرفية كانت تتماثل ومكانة status الأفراد المشتركين في الحديث الدائر في تلك اللحظة، كان بالإمكان تَلَمُّس ذلك عن طريق معالم تشير إلى المكان أو الموقع. على سبيل المثال، شخصيات القصص الحرفية الذين كانوا يوصفون بأنهم «في الأعلى، في الأسفل، إلى اليسار، إلى اليمين» كانوا يماثلون من حيث المكانة أفراد المجموعة المشتركين في

الحديث الذين كان الموضوع يتناولهم بشكل مبطن. أي أن الشخصية (آ) في قصة حرفية، التي كانت توصف باستمرار بأنها «خلف وإلى الأسفل من» أو «إلى اليسار» تُطابقُ - وهذه نقطة مهمة - من حيث المكانة أحد أفراد المجموعة الموجودين في تلك اللحظة، تماماً مثلما تُطابق الشخصية (ب)، التي كانت توصف باستمرار بأنها «في الأمام وإلى الأعلى» أو «إلى اليمين»، من حيث المكانة فرداً آخر من أفراد المجموعة الموجودين في تلك اللحظة. مغزى هذا النوع من التعقب المكاني هو أن كون المرء «في الأعلى» و «إلى اليمين» كان دائماً يرتبط بالأفراد ذوي المكانة العليا، بينما يرتبط تعبيري «في الأسفل» و «إلى اليسار» بالإفراد ذوي المكانة الدنيا⁽¹¹⁾.

لاحظت أيضاً أن جنس الشخصية في القصة الحرفية كان يماثل جنس الشخصية المبطنة التي تناظرها في الحديث الدائر في تلك اللحظة. إن أقل ما يمكن أن يقال عن تلك النتائج هو أنها غريبة. غريبة بحيث دفعنتني رغماً عني إلى التحقق منها مرة بعد أخرى. بل إن هناك ما هو أكثر: لاحظت أن الأسماء المستخدمة في الأحاديث الحرفية كانت غالباً أشبه بتوريات. اسم العَلَم هاري Harry، مثلاً، كان يُستخدم بصورة لا واعية كصفة hairy (كثيف الشعر) يشار بها بشكلٍ صوتي

(11) ر. ي. هاسكيل، البنيات التجريبية للعقل: «المعرفة واللغويات

والتحول»، The Journal of Mind and Behavior 5 (1984): 29-48.

phonetically، إلى شخص ذي لحيه⁽¹²⁾. كما وجدت أن الأحرف الأولى من الأسماء والألقاب الواردة في القصص الحرفية تماثل الأحرف الأولى من اسم ولقب شخص ما من المشتركين في الحديث في تلك اللحظة.

في قصة تدور حول والت ديزني Walt Disney، مثلاً، قد يكون الاسم إشارة مبطنة إلى شخص مشترك في النقاش يبدأ اسمه ولقبه بالحرفين W.D. اكتشفت أيضاً أن الأسماء في القصص قد «يجري تذكرها بشكل خاطئ» بصورة لا واعية، أو أن «الأخطاء» اللاواعية قد تُرتكب بحيث تصبح القصة الحرفية مماثلة للموقف الذي تجري الإشارة إليه بشكل مبطن. فقد يجري، مثلاً، تغيير اسم صحفي معروف ليصبح مناسباً للقصد المبطن، وذلك إذا كان اسم ذلك الصحفي غير مناسب للمعنى المبطن الذي يُراد التعبير عنه. صدق هذا أو لا تصدق.

تعاظم شعوري بالقلق عندما اكتشفت أن الأعداد المستخدمة في الأحاديث كانت غالباً ما تُستخدم بشكل «مجازي» أو مبطن. إذا كان هناك أربعة أفراد، مثلاً، من المشتركين في الحديث هم الذين يهيمنون على الموقف، فإن الرقم «4» سيتكرر ذِكره في المناقشات (انظر الفصل التاسع). بعبارة أخرى، تنطبق تلك الأعداد على مجموعة فرعية تشترك

(12) ر. ي. هاسكيل، «القلب الأساسي لكلام المجموعة: منهج تجريبي للتحليل والإثبات». سلوك المجموعات الصغيرة 2 (1982): 419 - 443.

في الحديث الدائر في تلك اللحظة تتألف من نفس العدد من الأشخاص المذكورين في القصة الحرفية. هناك ما هو أكثر، فالقصة التي تُستخدم فيها تلك الأعداد لم تكن تُشير، وبكل بساطة، إلى أربعة أفراد. إن كل شخص في القصة الحرفية المؤلفة من 4 أشخاص كان يُماثل التركيبة الجنسية للأفراد الأربعة الفعليين المشتركين في الحديث الدائر في تلك اللحظة. بعبارة أخرى، إذا كان الحديث الاجتماعي يدور بين ثلاث سيدات ورجل واحد، فإن القصة الحرفية تكون حول ثلاث سيدات ورجل واحد - مرة أخرى نرى الاتساق والثبات⁽¹³⁾. أصبح الأمر أكثر غرابة.

كما اكتشفت أن الأرقام المركبة كانت تماثل الموقف في تلك اللحظة. فقد يتم اختيار رقم حرفي، ولنقل مثلاً 10,000، ليجري الحديث عنه في قصة تُروى ضمن مجموعة مؤلفة من «عشرة» أشخاص. من حيث المعنى المبطن، كان الرقم 10,000، يُمثل الأفراد العشرة المشتركين في الحديث الاجتماعي، كما كانت الأصفار الثلاثة تُمثل مجموعة فرعية مؤلفة من ثلاثة أشخاص. لدى تدقيق هذه النتيجة لأول مرة اكتشفتُ أن الأعداد في القصص الحرفية التي جاءت في ما بعد كانت تتغير لتتلاءم مع غياب فرد أو عدة أفراد في ذلك اليوم.

(13) ر. ي. هاسكيل، «البنية المعرفية والتحول: نموذج تجريبي للتوظيف اللغوية النفسية للأعداد في الحديث». سلوك المجموعات الصغيرة 13 (1983): 191-165.

لاحظت في ما بعد أن القصص المختلفة، ضمن سرد قصصي ما، كانت مجرد تنوعات للموقف الراهن في تلك اللحظة. من المهم ذكره هنا أنني وجدت أن تلك النتائج ظلت ثابتة ليس فقط ضمن حديث ما بعينه، لكن ضمن عدة أحاديث مختلفة يشترك فيها أفراد مختلفون وتطور في مواقف مختلفة. كما اكتشفت عدة عمليات «ترميز» encoding معرفية أخرى. قمت بتطوير كل تلك النتائج المنتظمة والمتسقة وجعلت منها منهجاً (انظر كتابي «بين السطور»).

عندما بدأت باكتشاف تلك العمليات المعرفية الغريبة الخاصة بفك رموز المعنى المبطن، راودني نفس الشعور الذي تخيلت فيه أن عالم الآثار المصرية الفرنسي، جان فرانسوا شامبليون (1790 - 1832)، لا بد وأنه قد أحس به عندما بدأ بفك رموز حجر رشيد الشهير، أو الشعور الذي تخيلت فيه أن العالم اللغوي الإنكليزي، مايكل جورج فينتريس (1922 - 1956)، لا بد وأنه قد أحس به عندما قام سنة 1952 بفك رموز نظام الكتابة Linear B، وهو نظام كتابة مقطعية syllabic مسمّية Mycenaean يُعتقد بأنها تعود إلى الفترة ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر ق.م. قواعد هذه الكتابة هي من التعقيد بحيث أن كلمة مكتوبة بحسب هذا النظام يمكن أن تُترجم وتُفسّر بعدة طرق مختلفة حسب الأبجدية الأوروبية الغربية. أما حجر رشيد، الذي عُثر عليه سنة 1799 من قِبَل جنود نابليون قرب مدينة رشيد في مصر، فهو لوح بازلتي نُقشت عليه أحرف

يونانية وأحرف هيروغليفية وأحرف أخرى غريبة. قدم هذا الحجر لشامبليون وللعلماء الآخرين مفتاحاً لترجمة الأحرف المصرية الهيروغليفية. بعد أن قضى شامبليون سنوات في دراسة الأحرف الهيروغليفية المنقوشة على اللوح الحجري، اكتشف أن تلك النقوش كانت تتألف من علامات صوتية phonograms (وعلامات - معنى ideograms). أثبت شامبليون أن الأحرف الهيروغليفية لم تكن لها معانٍ رمزية فقط، بل كانت أيضاً أبجدية لغة محكية. إن اللغة الموجودة ضمن الأحاديث السردية الحرفية كانت تنتظر فك رموزها المبطنة، تماماً مثل حجر رشيد ونظام Linear B.

اكتشفت فوق كل ما سبق أن الظنون بدأت تساورني بشأن ملاحظاتي - وحتى بشأن سلامة عقلي، مثلما بدأت تساور أشخاصاً من معارفي. فقد كنت، رغم كل شيء، ألاحظ أن أفراد المجموعات كانوا يتحدثون إلى بعضهم وإليّ برموز لا واعية، هكذا بدا الأمر. يا إلهي، هذه هي المادة التي تُشكّل الفصام العصابي. فكثير من الفصامين العصبيين مصابون بما يُدعى «بأوهام الإشارة delusions of reference»، فهم يعتقدون أن الأشخاص الذين يظهرون على شاشة التلفزيون إنما يتحدثون، في حقيقة الأمر، عنهم أو يعتقدون عندما يتناهى إلى أسماعهم حديث ما، بأن هذا الحديث يتناولهم. أما في ما يتعلق باعتبار الأعداد في الكلام محملة بالمعاني الخفية، فهو ما يُشكل جوهر استخدام الأعداد في السحر والتنجيم، أليس كذلك؟...

رغم الطريقة المنهجية المتמסكة التي كنت أعتمد عليها للتأكد من صحة النتائج التي توصلت إليها، إلا أن ما كنت أعرفه عن التاريخ وعن فلسفة العلوم وعن نظرية المعرفة epistemology (وهي دراسة الكيفية التي نعرف بها ما نظن أننا نعرفه)، كان أكثر مما ينبغي لي معرفته لكي أشعر بالأمان. هل من الجائز أن أكون قد وضعت منظومة معقدة - رغم تماسكها - لكنها تفتقر للصحة؟... استرجعت بأسى نظرية بطليموس المتعلقة بالنظام الشمسي من تاريخ علم الفلك. في القرن الثاني الميلادي، أوجد العالم الفلكي الإغريقي كلاوديوس بطليموس نظاماً للكواكب وَضَعَ فيه الأرض، لا الشمس، في قلب نظامنا الشمسي. كان بإمكان ذلك النظام بموجب تكوينه المعقد من الأفلاك الدورانية المدارية orbital epicycles الخيالية التي وُضعت خصيصاً لهذا النظام، كان بإمكانه دائماً التنبؤ بشكل جيد بحركة الكواكب ومواقعها بالنسبة لبعضها في أي وقت. لكننا ندرك الآن، أن نظام بطليموس كان نظاماً «يمكن الاعتماد عليه» ولو أنه ليس نظاماً «صحيحاً».

هل ما قمت به هو وضع نظام نفسي مشابه؟... تساءلت إن كان ما جئت به لا يعدو كونه نوعاً من الكيمياء المنهجية، نوعاً من العلم الزائف الذي يبدو، في ظاهره فقط، وكأنه يحوّل المعاني الحرفية إلى معاني مبطنّة، مثلما كان يفعل كيميائي القرون الوسطى، الذي كان يسعى لتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب أو فضة بأساليب غامضة.

عندما أبديت ملاحظاتي إلى زملائي، كان اعتقاد بعضهم أنني قد تجاوزت المدى المسموح به، إن صح التعبير، لكن معظمهم ضحكوا من تلك التفسيرات الغريبة، بل أسوأ «غير العلمية»، ووصفوها بالصُدَف الجامحة لا أكثر. عندما بدأ تحليلي للإصغاء العميق أصبح أكثر تعقيداً، أخذت المعاني المبطنة لتلك الأحاديث تصبح أكثر صعوبة، ومع تزايد صعوبتها بدأت، حتى أنا، أجد صعوبة في تصديق النتائج التي أتوصل إليها. كنت أعني، بالطبع، أن الأطباء النفسيين كانوا قد لاحظوا بعض الأمثلة الموجزة عن «التعبيرات المجازية» خلال العلاج واعتبروا بأنها تحمل نوعاً من المعاني الموازية للحالة التي كانوا يصدد علاجها، لكن ذلك لم يكن شيئاً تمكن مقارنته بما كنت أكتشفه، أو بما كنت أعتقد أنني أقوم باكتشافه⁽¹⁴⁾. إن تركيبة الكلام الحرفي في حديث ما، شأنه شأن حلقة كولا، تفرضها غالباً مجموعة أساسية من الأنشطة الذهنية الفردية لا يعي

(14) انظر، مثلاً، الأعمال القديمة التالية: هـ. فاين هـ. بوليو، س. سيمبكنسون «اللغة الرمزية والمجاز والعلاج النفسي» العلاج النفسي: النظرية والأبحاث والتطبيق 10 (1973): 87 - 91، هـ. ر. بوليو، ج. م. بارلو، هـ. ج. فاين، م. ر. بوليو علم النفس والأحاسيس الشعري في النمو. اللغة الرمزية في علم النفس والعلاج النفسي والثقافة (هيلز ديل، نيو جيرسي: لورنس إيرلوم 1977)، د. غوردون، التشبيهات المجازية العلاجية (كوپرتينو كاليفورنيا: ميتا پابليكيشنز، 1978) ي. روسي تحرير، الأعمال الكاملة لميلتون هـ. أريكسون، 4 مجلدات (نيويورك: إيرفنتون، 1980).

المشاركون في الحديث وجودها.

كان علي معرفة ما إذا كان ما أشعر به حقيقياً. تملكنتني فكرة إيجاد وسيلة أتحقق بواسطتها من صحة الإصغاء العميق، وإلا فلن تكون هناك وسيلة لاحتواء «التفسيرات» القائمة على التأمل والتفكير، كما أن زملائي سيستمرون في الضحك - هذا في أفضل الأحوال - . الأهم من ذلك هو إنني إن لم أجد وسيلة أبرهن بواسطتها على أن ما كنت ألاحظه كان حقيقياً، فلن أتمكن قطعاً من إقناع محرري الصحف من نشر مادة غريبة كهذه.

كنت بحاجة إلى منهجية منظمة، ولم يكن هناك شيء من هذا القبيل. بدأت بالافتراض العلمي أن الدماغ/العقل مرگب بطريقة منظمة، وبأن هناك نظاماً طبيعياً كامناً في أساس ما كنت أتوصل إليه من نتائج. لذا بدأت البحث عن مجموعة منظمة من العمليات المعرفية واللغوية يمكن لها أن تقوم بدور منهج منتظم لتحليل ما كنت أعتقد بأنني ألاحظه ولإثبات صحته. كان السؤال، أين أبحث؟...

آثار أقدام مألوفة في الرمال

بدأت البحث في أدبيات المعاني اللاواعية. اكتشفت أن الأدبيات المتعلقة بديناميكيات المجموعات الصغيرة، والعلاج النفسي الجماعي والمجالات الأخرى من البحث وبقية الممارسات الأخرى كانت تحوي من حين لآخر نُتفاً موجزة مما

كنت أدعوه بالمعاني المبطنة. أشارت بعض تلك الأدبيات، مثلاً، إلى أن الكلام عن قادة تاريخيين معروفين، مثل شارل ديغول في فرنسا، كان إشارة رمزية إلى قائد المجموعة. كانت أكثر الأعمال تطوراً هي الأعمال التي أنجزها روبرت بيلز، وهو عالم في مجال علم النفس الاجتماعي في جامعة هارفارد، ذاع صيته نتيجة أبحاثه المتعلقة بالعمليات التي تجري ضمن المجموعات الصغيرة. أطلق بيلز على الكلام الرمزي من هذا النوع اسم «الموضوعات الخيالية»⁽¹⁵⁾ *fantasy themes*. هناك باحثون آخرون عملوا معه ولاحظوا، بل وكتبوا عن، ظواهر من هذا النوع ضمن المناقشات التي كانت تجري بين أفراد المجموعات الصغيرة⁽¹⁶⁾. لدى استمراري في البحث ضمن

(15) ر.ف. بيلز، الشخصية والسلوك بين الأفراد (نيويورك: هولت راينهارت آند وينستون، 1970).

(16) ج. غيبارد وج. هارتمان، «مغزى الخيالات اليوتوبية ضمن المجموعات الصغيرة» : *International Journal of Group Psychotherapy* 23 (1973) : 125-147، ج. هارتمان وج. غيبارد، «مقالة في الموضوعات الخيالية في تطور ثقافة المجموعة». ج. غيبارد، ج. هارتمان، ر. مان تحرير، تحليل المجموعات. (سان فرانسيسكو: جوسي - باس، 1974)، ر. مان «أساليب التعامل بين الأفراد وتطور المجموعات (نيويورك: ويللي، 1967)، ب. سلاتر، العالم المصغر: التطور البنيوي والنفسي والديني ضمن المجموعات (نيويورك: جون ويللي، 1966)، ت. ميلز، تحوّل المجموعات (أنغلوود كليفس، نيو جيرسي: برنتيس - هول، 1964)، د. دانفي، «الأطوار والأدوار والأساطير لدى مجموعات التحليل الذاتي» - *Journal of Applied Behavioral Sciences* 4 , (1968) : 195-225.

الأدبيات لاحظت وجود ظواهر مبطنة شديدة البدائية متناثرة في مجالات أخرى، بما في ذلك مجال العلاج النفسي الجماعي⁽¹⁷⁾ ومجال التاريخ النفسي⁽¹⁸⁾ psychohistory وأشكال التواصل⁽¹⁹⁾ communications، أخذت طابع أمور غريبة لا يمكن تفسيرها. لم يكن هناك طريقة لتحليل أو إثبات صحة بعض الأمثلة على

(17) انظر هـ . ي. دوركين، نظرة معمقة إلى المجموعات (نيويورك: انترناشنال يونيفرستي پرس، 1964)، هـ . أزريل، «مقاربة تحليلية نفسية لعملية معالجة المرضى ضمن مجموعات»، Journal of Mental Science 774 - 779 (1950) XCVI، هـ . أزريل، «تجارب أثناء جلسة تحليل نفسي»، British Journal of the Philosophy of Science 29 (1956) 7، س . موروكو، «تطور ووظيفة المجاز الجماعي»، Journal for the Theory of Social Behavior 9 (1979) 15، 27، و . شوتز، لقد جاء الجميع: ثقافة الجسم والعقل واللقاء (نيويورك: هارو، 1971). س . هـ . فولكس وي . ج . أنتوني، العلاج النفسي الجماعي (بالتيمور: پنغوين، 1957)، ب . مولا هي، التحليل النفسي والطب النفسي بين الأفراد: إسهامات من هاري ستاك سوليفان (نيويورك: سيانس هاوس، 1970) د . س . ويتيكر وليبرمان، العلاج النفسي عن طريق العمليات الجماعية (نيويورك: أثرتون، 1964)، ي . يالوم، النظرية والتطبيق في العلاج النفسي الجماعي (نيويورك: بيسيك بوكس، 1970).

(18) ل . دوموس، «الخيالات الجماعية التاريخية»، Journal of Psychohistory 7 (1979) 1-70.

(19) انظر ي . ج . بورمان، «الرؤيا البلاغية والخيال: النقد البلاغي للحقيقة الاجتماعية»، Quarterly Journal of Speech 58 (1972) 396 - 407، ج . ب . مورمان «مقالة حول نقد فكرة الخيال»، The Quarterly Journal of Speech 68 (1982) 109 - 132، م . ب . فاريل، «الإسقاط الجماعي وبنية الجماعة: العلاقة بين الانحراف والإسقاط ضمن المجموعات»، سلوك الجماعات الصغيرة 10 (1979): 81 - 100.

التواصل المبطن كتلك التي كنت أكتشفها باستثناء فصل كتبه بيلز حول الموضوعات الخيالية. كما لم يكن هناك اعتراف بمدى تعقيد أشكال التواصل «الرمزية» من هذا النوع، أو بمدى أهميتها المعرفية، إضافة إلى أن تلك الظواهر لم تكن مفهومة ولم يجر تفسيرها إلا بموجب مفاهيم فرويدية عامة. في حوالي سنة 1979، توقفت الأبحاث المتعلقة بالتواصل اللاواعي - أو هكذا حُيِّل إلي. لكنها لم تتوقف فعلاً كما سنرى بعد قليل.

عندما علمت أن هناك آخرين كانوا قد أشاروا إلى نتائج مشابهة في مجال اللاوعي - رغم بدائية تلك النتائج - شعرت أخيراً أنني لم أعد وحدي، تماماً مثلما شعر روبنسون كروزو، الشخصية الرئيسية في رواية دانيال ديثو المعروفة حول بحار تحطمت سفينته ولجأ إلى جزيرة كانت تبدو مهجورة، عندما اكتشف أخيراً آثار أقدام غير أقدامه. إذا كان ما أعانيه هو مجرد أوهام، فقد كان هناك، على الأقل، أشخاص محترمون يشاركونني هذا، وذلك فيما يخص ملاحظاتي المتعلقة بالمعاني «المجازية» العامة على الأقل - بعث ذلك في نفسي بعض الغراء.

لا حاجة بي للقول أنني واجهت، لسنوات، صعوبات جمة في محاولة جعل المجلات المتخصصة مهنيًا تقبل أبحاثي. كان النقاد يطلقون على تلك الأبحاث أوصافاً «فصامية»، «عصابية»، «مضحكة»، وعندما يترفقون بي كانوا يقولون عنها «توريات جامحة» أو «مجرد صدفة». استرجعت في ذهني، وأنا أشعر

بالقلق، قصة الطبيب إغناز سيميليثايس (1818 - 1865) من فيينا، الذي حاول في أربعينيات القرن التاسع عشر إقناع زملائه بضرورة غسل أيديهم بعد تشريح الجثث وقبل معالجة المرضى منعاً لانتشار العدوى التي كانت تقتل مئات المرضى في ذلك الوقت. رغم نجاح سيميليثايس المتكرر في خفض معدل الوفيات عن طريق غسل يديه، كان زملاؤه يسخرون منه كما كان المرضى يبصقون عليه. أصبح سيميليثايس مختلاً عقلياً بعد أن نبذه الجميع وتوفي وحيداً في مصح عقلي. (حتى الآن لا أزال أنا مطلق السراح).

علمت بعد ذلك بسنوات، من أحد زملائي، أن سلامة تفكير أحد تلامذة فرويد المقربين أصبحت موضع شبهة بعد أن كتب بحثاً حول ما كان يعتقد بأنه أشكال تواصل لا واعية من قبل المرضى. رُفضت ادعاءاته بحجة أنه كان يعاني من «أفكار تتعلق بالاضطهاد»، أي أنها شبيهة بمشاعر شخص عصابي يظن بأن برنامجاً تلفزيونياً ما إنما يبعث له برسائل ملغزة⁽²⁰⁾.

ما لم يدركه فرويد لكنه كاد أن يدركه -

بل وكان عليه أن يدركه - بشأن الإصغاء العميق

يمكن القول أن رد فعل الناس، دون استثناء تقريباً، حيال الإصغاء العميق هو القول: ولكن «ألم يقل فرويد كل

(20) أقدم الشكر للدكتور ديفيد ليفينغستون سميث.

ذلك؟... «جوابي الأكيد هو: «لا لم يقل كل ذلك، لكنه كاد أن يقوله - بل وكان عليه أن يقوله». ولَمَّا كان فرويد يُعتبر، إلى حد ما، أحد أكثر الأسماء شهرة في العالم الغربي، يمكن لنا أن نفهم تماماً السبب الذي يجعل الناس يصرون على إطلاق اسم «فرويد» على كل ما يتعلق بالمعاني اللاواعية، لكن الفكرة خاطئة تماماً. إن سوء فهم أفكار فرويد والتعميم المبالغ فيه لهذه الأفكار قد تسربا بشكل كامل إلى الوعي الشعبي كما تسلا ليلفان هذا الوعي بحيث يبدو غالباً أن من المستحيل فصل اسم فرويد عن أي شيء يرتبط بعلم النفس، ناهيك عن القضايا المتعلقة باللاوعي. لقد جعل علم النفس، الذي يُقدَّم في وسائل الإعلام، جعل من فرويد صورة كاريكاتورية صحيحة عن نفسه. مع ذلك، أشعر بأنني أرتكب خطأ إذا لم أقدم له فروض الاحترام الواجبة لأن أعماله كان لها تأثير علي في بداية حياتي.

عندما قرأت فرويد لأول مرة، لم تُحدث نظرية التحليل النفسي، بوجه عام، أثراً كبيراً لدي. أما الكتاب الذي أثر في نفسي بقوة، فقد كان كتابه «تفسير الأحلام»⁽²¹⁾ The Interpretation of Dreams. لم يكن ما سحرني في هذا الكتاب هو تفسير فرويد للأحلام، بل الأسلوب الذي وُصف فيه الكيفية

(21) س. فرويد، «تفسير الأحلام»، الطبعة الإنكليزية الأولى (لندن: جورج ألين آند أنوين ليمتد 1954).

التي يعمل بموجبها العقل أثناء الحلم. إن فرويد نفسه يعتبر كتاب «تفسير الأحلام» تحفته، والواقع أنه أحد الكتب العظيمة في الحضارة الغربية. أدركت في ما بعد أن هذا الكتاب شكّل طليعة علم النفس المعرفي المعاصر، شأنه شأن كتابيه الآخرين: علم النفس المرضي في الحياة اليومية⁽²²⁾ The Psychopathology of Everyday Life، «والنكات وعلاقتها باللاوعي»⁽²³⁾ Jokes and Their Relation to the Unconscious. هذه الكتب تختلف تماماً عن بقية أعماله، وأنا أعتبرها ثلاثيته المعرفية.

إن أفكار علم النفس المعاصر المتعلقة بالعقل اللاواعي

(22) س. فرويد، «علم النفس المرضي في الحياة اليومية»، ترجمة ج. ستراتشي (نيويورك: و. و. نورتون 1960).

(23) س. فرويد، «النكات وعلاقتها باللاوعي»، ترجمة ج. ستراتشي (نيويورك: و. و. نورتون 1963). كان عليّ لسنوات أن أتعامل مع أفكار علم النفس الشائع لدى الطلاب في حلقاتي الدراسية. تتميز كتب علم النفس الشائعة بالتخمينات الجامحة التي تعتمد فقط على تجارب الحياة اليومية الشخصية لشخص يعمل في مجال الصحة النفسية، لا على الأبحاث. ويقوم بذلك أشخاص يُفترض بأنهم يدركون خطأ القيام بذلك. فضمن مجال علم النفس، على الأقل، لا تعتبر التجربة الشخصية أساساً صالحاً لمعرفة الكيفية التي يعمل العقل بواسطتها، أو يسير العالم بموجبها. أنا أعتبر علم النفس الشائع بأنه (1) معلومات تتعلق بعلم النفس، (2) جرت بعثرتها وتوزيعها على الناس العاديين (3) وهي مبسطة ومشوهة، (4) الأدلة الدقيقة التي تدعمها قليلة، أو أنها لا تمتلك أدلة كهذه، (5) لكنها تعتبر حقيقية.

ليست مُشتقة من النظرية الفرويدية بأكثر مما يمكن اعتبار الرياضيات الحديثة مشتقة من فيثاغورس، العالم الإغريقي الذي يُعتبر، بنظر كثيرين، الرياضي الأول. إن فرويد، بعكس التفكير الشائع، لم يكتشف اللاوعي⁽²⁴⁾، كما أنه لم يكتشف زلات اللسان. بل إنه لم يدّع ذلك. ما يحدث غالباً في الثقافة الشعبية هو أن كلمات أو أفكاراً معينة يجري ربطها حصراً بمؤلفين معينين. لقد أدرك من هم أكثر اطلاعاً مني على الأدب، كما أدرك غيرهم، منذ بعض الوقت أن شكبير قد وصف «الزلات الفرويدية» قبل فرويد بزمن طويل. ولا شك أن فرويد، وهو القارئ النهم، كان واسع الاطلاع على أعمال ذلك الشاعر وكثيراً ما استشهد بأقواله.

كما أن فرويد تأثر بالكتب القديمة التي تتناول الأحلام، والآتية من مختلف الثقافات، تلك الكتب التي كانت تركز على التوريات والتلاعب بالكلمات. كما كان واعياً لحقيقة أن الكتب «الشرقية» القديمة الخاصة بتفسير الأحلام، كانت تركز في كثير من تفسيراتها على تقصي أوجه التشابه بين الأصوات، والشبه المادي والمعاني المزدوجة بين الكلمات. وكان فرويد يعي أيضاً

(24) يمكن العثور على تاريخ مهم وشامل للعقل اللاوعي في كتاب هـ . إيلينبيرغر، «اكتشاف اللاوعي: تاريخ وتطور الطب النفسي الديناميكي (نيويورك: بيبك بوكس، 1970)، ل. ل. وايت «اللاوعي قبل فرويد» (نيويورك: مينتور بوكس، 1960)، د. ل. سميت، «فلسفة فرويد حول اللاوعي» (دوردرخت، هولندا: كلوير أكاديميك پابليشيرز، 1999).

مدى الأهمية الفائقة التي كانت تؤلى للتورية في الحضارات الشرقية القديمة (كما في حال الصوفيين في اليونان القديمة).

لاحظ فرويد أن الكتب الغربية التي تتناول تفسير الأحلام، التي كانت في معظمها ترجمات لتلك الكتب الآسيوية القديمة الخاصة بالأحلام، كانت تحذف كل ما يتعلق بالتشابه بين الأصوات والشبه المادي بين الكلمات. واستناداً إلى ما جاء في أبحاث فرويد، فإن التوريات وتغييرات صياغة الحديث نجدها تتكرر أيضاً في القصص البطولية Saga الاسكندنافية القديمة، يرى فرويد أن من النادر وجود حلم لا تلعب فيه التوريات دوراً كبيراً⁽²⁵⁾.

هناك أسطورة واسعة الانتشار تقول بأن ما يدعى بالأفكار أو الاكتشافات الجديدة ليست - إلى حد ما - ثمرة أفكار أخرى - كما يقول شكسبير. كان فرويد عالماً واسع الاطلاع وكان يعي وجود أفكار كثيرة، تتعلق بوظيفة اللاوعي، كانت تجري مناقشتها كما كان يكتب حولها في الوقت الذي بدأ هو بصياغة أفكاره الخاصة. لقد وضع فرويد أعماله، شأن أي باحث أو عالم، على أساس أعمال الآخرين، كان يوثق مصادره بدقة أحياناً ويغفل عن ذلك أحياناً أخرى. لقد أشار هنري إيلينبيرغر إلى أن هناك كثيراً من أوجه التشابه بين أفكار فرويد وأفكار علماء آخرين. كان فرويد، مثلاً، ضليعاً في الفلسفة،

(25) فرويد تفسير الأحلام.

بما في ذلك أعمال الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور (1788 - 1860)، الذي تحمل أعمال فرويد أوجه تشابه كثيرة مع أعماله. أورد إيلينبيرغر قولاً لتوماس مان، حامل جائزة نوبل الألماني، الذي كان قد قرأ أعمال شوبنهاور وقال لدى قراءته لأعمال فرويد بأن وجدانه قد امتلأ بشعور: «الألفة والإدراك لشيء معروف». شعر بأن وَصَفَ فرويد للجانب اللاشعوري من النفس id وللأنا ego كان يشبه بدقة وَصَفَ شوبنهاور للإرادة will وللعقل intellect، اللذين قام فرويد بترجمتهما إلى علم النفس⁽²⁶⁾. يبدو وكأن فرويد قد عَرَفَ بسخاء من أعمال الآخرين الذين قام بِذِكْر كثير منهم. لكن هذا ليس بالأمر الغريب ضمن مجال العلم.

لقد كانت الأفكار المتعلقة بالعقل اللاواعي والتوريات والمعاني غير المقصودة للكلمات والعبارات، تتناثر هنا وهناك قبل زمن طويل من قيام فرويد بالتقاط تلك الأجزاء. وأنا إذ أذكر كل هذا إنما أريد، بكل بساطة، أن أنوه بأن فرويد لم يأت بأفكاره من فراغ - بل الواقع أنه لم يقم باختراع معظمها. غير أن عبقرية فرويد تجلت في تنظيم وترتيب أفكار كانت موجودة سلفاً حول العقل اللاواعي وزلات اللسان والمعاني المزدوجة وأصوات الكلمات، وفي وضع تلك الأفكار ضمن قالب واحد من المفاهيم النظرية.

(26) إيلينبيرغر، اكتشاف اللاوعي، 209.

أجری کل من إدوارد کارو بریسو وستیفان وایت دراسة على الأطفال الموهوبين توصلا من خلالها للاستنتاج بأن ما يميز الموهبة هو ما يدعوانه بالقدرة على «التجميع الانتقائي Selective Combination»، أي القدرة على «جمع أجزاء من المعلومات، تبدو في ظاهرها منفصلة عن بعضها، ودمجها في كلٍ موحد» لم يره الآخرون قبلاً وتجميع «تلك القطع إلى بعضها بطريقة مفيدة مناسبة»⁽²⁷⁾. ومثلما تجاوزت الأفكار المتعلقة بالعقل اللاواعي فرويد، فقد تجاوزت الأفكار المتعلقة بالتطور، أيضاً، داروين. لكننا لدى مناقشة الأفكار الحديثة حول التطور، يتساءل بعضهم: «ألم يقل داروين كل ذلك؟...» أمر يثير الاهتمام، أليس كذلك؟..

ومع ذلك، فإن فرويد «هو» عالم النفس بالنسبة لمعظم الناس، وكل شيء آخر لا يعدو مجرد كونه حاشية تفسيرية. فرويد ليس علم النفس. وخلافاً للاعتقاد السائد فإن فرويد لا يتمتع على الإطلاق بذلك الحضور البارز في ميدان علم النفس. ليس الرأي العام وحده هو من يسيء فهم فرويد، بل إن هناك كثير من زملائي ضمن مجال علم النفس المعرفي، ممن يُعتبرون ضليعين من نواح أخرى، لا يزالون أسرى شبح فرويد. كما أن هناك كثيرين ممن لا يرغبون في ربط أنفسهم بأي شكل

(27) ي. ج. كاروپرسو وس. س. وایت، «التفكير المجازي والموهبة: مقارنة بين الأطفال المُعْتَبَرين موهوبين والأطفال غير المُعْتَبَرين»، Journal of

كان مع الأفكار الفرويدية. وهو أمر مفهوم لأن معظم أفكاره وأساليب التحليل لديه تظل حدسية إلى حد كبير كما تعتمد على التكهن لدرجة التهور.

لدى قيامي بتأليف هذا الكتاب، تلقيت رفضاً لمخطوطة كنت قد أرسلتها إلى مجلة معروفة خاصة بعلم النفس. كان المقال الذي أرسلته يتناول الأبحاث المعرفية المعاصرة والعمليات اللاواعية ونتائج أبحاثي في مجال المعاني المبطنة. في ذلك المقال، كنت قد تناولت بالتعليق أعمال باحث معين مشيراً إلى أن آراءه فيما يخص المعاني اللاواعية كانت أكثر تحرراً من معظم زملائه. تبين في ما بعد أن هذا الباحث كان أحد المراجعين الذين كلفتهم المجلة بنقد مقالي. جاء التأكيد التالي في التقرير المهور بتوقيعه - وهو أمر غير مألوف - : «إن حقيقة التزامي بمجال أوسع من العمليات اللاواعية... لا يعني أنني أسبرُ الأفكار الفرويدية». «أسبر الأفكار الفرويدية؟...» من أين جاء رد الفعل هذا؟... شعرت بالذهول عندما قرأت هذا التعليق لأنني كنت، لدى وصف أعماله في مقالتي، شديد الحرص في انتقاء كلماتي بحيث لا تشير ولو بشكل ضمني إلى أن لأعماله علاقة بأفكار فرويد. ماذا بوسعي أن أقول أكثر من هذا بشأن تأثير شبح فرويد والحاجة إلى التخلص منه؟.

لماذا لم يَعِ فرويد ما كان يقوم به

ضمن سياق آخر، قال المحلل النفسي الفرنسي جاك لاسان أن فرويد لم يَعِ مطلقاً ما كان يقوم به⁽²⁸⁾. رغم حقيقة أن فرويد لم يكن يعي تماماً ما كان يقوم به عندما اكتشف العمليات اللاواعية الشبيهة بالمعرفية، إلا أنه لا مجال للشك في عمق بصيرته. فعندما نقرأ ثلاثيته المعرفية اليوم، بكل ما فيها من أمثلة متعددة على التوريات والعبارات ذات المعاني المزدوجة وقيام العقل باستخدام الأعداد في الأحلام، والنكات وزلات اللسان اليومية (التي كان فرويد يدعوها parapraxes)، عندما نقرأ كل ذلك، لا يصعب علينا فهم السبب الذي يدعو مريديه والمعالجين العاديين المعاصرين للاعتقاد بأن فكرة فرويد عن العقل اللاوعي هي أن هذا العقل «ذكي»، بالتالي بإمكانه التواصل كالعقل الواعي. العقل اللاوعي ليس ذكياً. لكن اللاوعي المبطن ذكي، بل إنه شديد الذكاء.

رغم تسليم فرويد بأن زلات اللسان parapraxes تكشف معاني لا واعية، إلا أنه أخفق في إدراك مغزاها المعرفي الحقيقي، إذ كان يرى فيها خروجاً عن المؤلف ولم يكن يعتقد بأنها تعكس عمليات ذهنية معرفية ولغوية طبيعية. عندما كان فرويد، مثلاً، يقع أحياناً على أحلام تبدو وكأنها تُعبّر عن نشاط

(28) ج. لاكان، «الإصرار على المعنى الحرفي في اللاوعي». في كتاب جاك إيرمان، «البنوية» (جاردن سيتي، نيويورك: دابل دي أنكر بوكس، 1966).

فكري، كان يضطر لتجزئة تلك الأحلام واعتبارها أحلاماً من نوع خاص جاءت مقرونة بالعقل ما قبل الواعي *preconscious* الذي بإمكانه القيام بعمليات تفكير شبه عقلائي. كما أنه عندما كان يقع أحياناً على أحلام تحوي أعداداً وصوراً عكسية وتلاعباً بالكلمات وما إلى هنالك، كان يضطر لإنكار أن هذه الأحلام إنما تعبّر عن حسابات وأفكار شبه واعية.

على كل حال، إذا أخذنا بالاعتبار العصر التاريخي الذي كان يعمل فيه فرويد، ليس هناك من شك في أنه قام بعمل رائع بالنسبة لرجل لم يكن يعي (معرفياً) ما كان يقوم به. بل الواقع أن زميلي ديفيد ليفينغستون سميث وجد في استعراضه التاريخي للتحليل النفسي أن فرويد، في مناسبات عدة، قد اقترب كثيراً من اكتشاف أشكال التواصل اللاواعية لدى مرضاه. لكن ملاحظاته بشأن هذا الاحتمال لم تكن معروفة خارج نطاق عدد قليل من تلامذته⁽²⁹⁾. لنستعرض الآن الأسباب المختلفة التي

(29) لا يعتبر سميث فيلسوفاً فكرياً فقط، بل هو عالم في مجال تاريخ التحليل النفسي. الأهم من ذلك هو أنه متمرس في فلسفة العلوم. ونظراً لأنني لست خبيراً في ما يتعلق بفرويد، أقدم الشكر للدكتور سميث وأعتمد على معرفته وثقافته الشاملتين في مجال التحليل النفسي وتفسيراته الكثيرة ومناظراته، وأية أخطاء فادحة قد تظهر اعتبر نفسي السبب فيها. أود أن أبين هنا أنه بالنظر لكثرة التفسيرات المتعلقة بفرويد، هناك «خبراء» قلائل ممن يعتبرون حقيقيين وذلك في ما يخص ما قاله فرويد فعلاً، وخاصة ضمن مجال التواصل اللاواعي. انظر د. ل. سميث، «الأحاديث الخفية: مقدمة للتحليل النفسي التواصل» (لندن: تافيسوك/روتليدج، 1991).

حالت دون اكتشاف فرويد للإصغاء العميق .

أولاً، لم يطور فرويد ملاحظاته لأن نظريته، منذ البدء، لم تستطع - أو أن فرويد لم يكن يريد - أن توفّق بشكل منهجي بين ملاحظاته بشأن معطياته الفعلية وبين نظريته حول اللاوعي القائمة على التحليل النفسي . بالتالي، فاتته الفرصة . يشير سميث مؤكداً: «إن كون المحللين النفسيين لا يفسحون صدورهم لنظرية تحكي عن الإدراك اللاوعي لا يُعتبر مجرد سهوٍ من جانبهم . فهذه الفكرة متأصلة في أعماق فلسفة العقل التي أسهم فيها فرويد»⁽³⁰⁾ . هذا يعني أن فرويد كان يعتقد - وهذه نقطة مهمة - أن «جميع المعلومات الموجودة في العقل اللاوعي لا بد وأن تكون قد مرّت أولاً عبر العقل الواعي» (هذه فكرة حديثة جداً بالمناسبة) . وهي فكرة تستبعد، بحد ذاتها، وجود لا وعي ذكي يفكر ويحكم الأمور كالعقل الواعي . كما يشير سميث إلى أن نظرية فرويد تتميز غالباً بعدم الترابط .

ثانياً، حرصاً من فرويد على إنقاذ نظريته الأولى المتعلقة باللاوعي غير العقلاني، فإنه كان مصمماً على البرهنة على أنه مهما تكن الآليات شبه المعرفية التي كان يقع عليها في الأحلام والنكات والزلات parapraxes، فإنها كانت آليات مختلفة تماماً عن تلك الموجودة في الإدراك الواعي في حال اليقظة . لقد كان

(30) سميث «الأحاديث الخفية»، 52 .

التأكيد على هذا الفرق بين الأفكار اللاواعية والأفكار الواعية في حال اليقظة يشغل موقعاً مهماً في تفكير فرويد. لم يكن فرويد يعتقد، مثلاً، أن الأعداد التي كان يقع عليها في الأحلام، وفي زلات اللسان أحياناً، كانت تؤدي وظيفة حسابية على غرار ما تفعل في حال الوعي، بل كان يعتقد أن الأعداد كانت تُستخدم، ببساطة، كرموز، شأنها شأن أي مجموعة أخرى من الرموز. لا بد أن المضامين اللغوية والمعرفية للزلات كانت تورق مضجعه، لأنه قام في ما بعد بالتأكيد على نظريته التي ترى أن العقل السابق للوعي يقف ما بين الوعي العقلاني وبين اللاوعي غير العقلاني. يخبرنا فرويد أن هذا العقل الجديد السابق للوعي يتمتع بكثير من خصائص العقل الواعي⁽³¹⁾. ومع هذه الضبابية في وضع الحدود بين العقل اللاواعي والعقل السابق للوعي والعقل الواعي، نرى قدراً كبيراً من التفاعل يجري في ما بين الثلاثة.

تكمن أهمية هذه الضبابية وهذا التفاعل في أن فرويد أصبح يمتلك الآن كل العناصر اللازمة لكي يتعرف بشكل منهجي ونظري إلى أشكال التواصل اللاواعي لدى مرضاه، لكن المناطق العمياء blind spots لديه، العلاجية منها والنظرية، ظلت تحول بينه وبين القيام بذلك (انظر المقطع المُقتبس عن

(31) س. فرويد، «اللاوعي» (1915)، في الطبعة النظامية لأعمال سيغموند فرويد في مجال التحليل النفسي. المجلد 14، ترجمة وتحرير جيمس ستراتشي (لندن: هوغارث برس، 1901)، 174.

فرويد في الصفحات الأولى من الكتاب). إليكم بإيجاز كيفية التي كان بإمكان فرويد أن يتوصل بواسطتها إلى ذلك الهدف.

أولاً، كان بإمكان فرويد استخدام فكرته التقليدية عن اللاوعي غير العقلاني وذلك لتأمين القاعدة العاطفية والتحريضية التي تكمن في أساس المعاني المبطنة. ثانياً، كان بإمكانه اعتبار مفهومه اللاحق عن عقل «سابق للوعي» على أنه يشكل مخزناً للأفكار والأحاسيس المتعلقة بمواقف ماضية وأخرى راهنة، تلك الأفكار والأحاسيس التي يجري إنكارها رغم عقلانيتها، عندها يصبح هذا المخزن هو مصدر المعاني المبطنة. ثالثاً، إلى جانب اللاوعي غير العقلاني، كان بالإمكان استخدام الجوانب اللاواعية من الأنا ego، التي تشمل المنطق والتفكير العقلاني واللغة والإدراك الحسي والتعديلات الثانوية، كان بإمكانه استخدام كل ذلك كمخزن للأفكار والأحاسيس التي يجري إنكارها. رابعاً، كان بإمكانه اعتبار بعض الجوانب المعينة، اللاواعية والسابقة للوعي، من الأنا العليا Superego، بأنها تشكل مخزناً للأفكار والأحاسيس المتعلقة بمواقف ماضية وأخرى راهنة، تلك الأفكار والأحاسيس التي يجري إنكارها، بالتالي يمكن عندها أن يجري التعبير بشكل مبطن.

بنتيجة ذلك كله، تتأثر اللغة، بطريقة أو بأخرى، ليجري تشكيل استخدام محدّد للجمل والعبارات والكلمات، إضافة لاختيار موضوعات محدّدة، مما يؤدي للتعبير لغوياً عن معانٍ لا واعية عن طريق استخدام التوريات والأعداد أو آليات لغوية

وشبه معرفية أخرى نجدها مفسّرة في ثلاثية فرويد. رغم أن فرويد أقر بوجود زلات اللسان، وما شابهها من الزلات parapraxes الأخرى، إلا أن فكرة وجود قصص كاملة ذات معانٍ لا واعية موازية، لم تكن تبدو ممكنة بالنسبة له (إلا بمعنى شديد الغموض لتفسير الأحلام، ربما).

وفي رأيي أن ما حال، أيضاً، بين فرويد وبين الإدراك الكامل لما كان يراه من منظور العمليات شبه المعرفية هو أنه كان يتوجه باهتمامه بشكل أساسي نحو إيجاد علاج لشفاء المرضى من المشاكل التي كانوا يواجهونها، إضافة لاهتمامه بتطوير نظرية حول السلوك البشري. لم يكن غرضه الأساسي، إذاً، هو دراسة العملية المعرفية بحد ذاتها، بل كان هدفه علاجياً. إن القول المأثور: «من الصعب خدمة سيدين»، لا يتردد عبثاً.

يقول ديثيد سميث، إن البحث المهم الذي أجراه فرويد حول الأحلام كان متزامناً تقريباً، وذا علاقة واضحة، ببحث له يدور حول نوع من العمليات شبه المعرفية التي أطلق عليها اسم Fehlleistungen، وتعني «الإنجازات الفاشلة»⁽³²⁾. لقد تُرجم هذا النوع من العمليات شبه المعرفية إلى اللغة الإنكليزية الدارجة ليصبح معناه الزلات الفرويدية، وذلك كما نراه في كل

(32) د. ل. سميث، «الأحاديث الخفية: مقدمة لتحليل النفسي التواصلي» (لندن: تافستوك/روتليدج (1991).

أجزاء ما أدعوه بثلاثيته المعرفية. من المفارقة فعلاً أن ينطبق معنى الإنجازات الفاشلة على فشل فرويد في اكتشاف أشكال التواصل اللاواعي بشكل منهجي وعلى فشله في إدراك الأهمية المعرفية للعمليات المتضمنة في ثلاثيته. وهكذا أعود إلى السؤال الذي بدأت به هذا الفصل: ألم يقل فرويد كل هذا الكلام عن المعاني اللاواعية، لأعود للقول: الجواب هو: لا، لم يقل ذلك لكنه كاد أن يقوله. كلمة «كاد أن» لا تؤخذ بالاعتبار. بإمكانكم أن تسألوا ألفرد راسل واليس.

بلاقبوس فرويد

ينبغي أن يكون قد اتضح الآن أنه بالرغم من وجود عدة أوجه للتشابه السطحي بين ظاهرة الإصغاء العميق والرمزية الفرويدية، إلا أنهما أمران مختلفان تماماً. إن التشابه بين الإدراك المبطن والمعاني المبطنة وبين نتائج أبحاث فرويد هو أنها جميعاً مصنوعة من مادة معرفية متماثلة.

لكن علينا أن نلزم جانب الحذر لدى الجدل بشأن أسس التشابه. فكما يعرف علماء البيولوجيا التطورية، يمكن لأوجه التشابه بين حيوانين أن تكون قائمة على أساس أصل مشترك، ويمكن لها ألا تكون كذلك. هذا خطأ يتكرر أحياناً لدى الجدل، من هنا الاعتقاد الخاطئ الواسع الانتشار بشأن نظرية التطور من أننا ننحدر من سلالة القروود. فوق ذلك، فإن التشابه الذي يكاد يصل لدرجة التطابق في العينين بين حيوانات شديدة

الاختلاف، كالأخطبوط والإنسان مثلاً، لا يعني أن هذين الحيوانين ينحدران من نموذج أولي prototype مشترك. فنحن نعرف أن العينين قد تطورتا بشكل مستقل في أماكن مختلفة ولعدة مرات عبر آلاف السنين.

وفي حين أن الكثير مما هو فرويدي قد يعكس رمزية لا واعية، إلا أنه ليس كل ما هو لاواع أو رمزي هو فرويدي بالضرورة. أكرر أن علينا أن نلزم جانب الحذر فيما يخص التشابه: فإذا كان المخلوق يتهاذى في مشيته كالبطة ويصيح كالبطة ويبدو في مظهره، إلى حد كبير، كالبطة، فإن ذلك لا يعني أنه بطة: إنه قد يكون حيوان بلاتبوس platypus الأسترالي.

من السهل الآن القول إنه لو طال العمر بفرويد، لكان قد قام باكتشاف وتطوير اللغة المبطنة والإدراك المبطن. ربما كان سيقوم بذلك. لكن هناك اعتراضاً واحداً، لم يقم بذلك - ولو بشكل منهجي على الأقل - أحد ممن اتبعوا مدرسته رغم أنهم، مثل فرويد، كانوا يمتلكون جميع المعطيات اللازمة لهذا الغرض.

مستقبل الإصغاء العميق

إن مستقبل الإصغاء العميق لم يكد يبدأ، ولكي نفهم هذا المستقبل تمام الفهم علينا أن نعود قليلاً إلى الماضي القريب. في بدايات سبعينات القرن العشرين، اكتشف أحد أتباع مدرسة فرويد الفكرية ما أسميه أنا بالتواصل المبطن أو الكلام العميق. كما أشرت سابقاً، فإن الأبحاث المتعلقة بفكرة الإصغاء العميق

كادت أن تتوقف حوالي سنة 1979. أو هكذا خيّل إلي. في سنة 1997، اتصل بي بيرز ميرز، وهو طبيب نفسي إنكليزي، وسألني إن كنت قد اطلعت على أبحاث الطبيب النفسي روبرت لانغز. كان ميرز قد اطلع على أبحاثي الخاصة بالتواصل المبطن وقال إنها شديدة الشبه بأعمال لانغز. بُعِدَ ذلك، اتصل بي ديفيد ليفينغستون سميث، الذي كان قد كتب عما توصل إليه لانغز من نتائج بشأن التواصل اللاواعي. وفي نفس الوقت تقريباً الذي كنت فيه بصدد اكتشاف ما كنت أدعوه حينئذ بالموضوعات «المجازية»، كان روبرت لانغز، وهو طبيب نفسي من مدرسة التحليل النفسي، يكتشف، لوحده، شكلاً مماثلاً من أشكال التواصل اللاواعي لدى مرضاه⁽³³⁾. لم يَدُرْ أحدنا بأبحاث الآخر حتى وقت قريب.

يطلق لانغز على أشكال التواصل اللاواعي لدى مرضاه اسم «المُشْتَقَّات» derivatives وذلك لأنها «مُشْتَقَّة» من اللاوعي، وهو يعتقد أن ما أدعوه بأشكال التواصل المبطن يمكن استخدامه علاجياً. بالتالي، لقد قام لانغز بإرساء قواعد مدرسة جديدة في العلاج النفسي تُدعى بالعلاج النفسي

(33) للحصول على فكرة عامة، انظر كتابي، «بين الأسطر» الفصل الثاني عشر، وكتاب ر. لانغز، «التواصل اللاواعي في الحياة اليومية» (نيويورك: جيسون أرونسون، 1983)، انظر أيضاً ر. لانغز، «الطب الاكلينيكي وهندسة العقل» (لندن: كرنك بوكس، 1995)، ر. لانغز، «العلاج النفسي المقوّى» (لندن: كرنك بوكس، 1993)، ر. لانغز، «العلوم والمنظومات والتحليل النفسي» (لندن: كرنك بوكس برونر/مزل، 1992).

التواصلية Communicative Psychotherapy تقوم على أشكال التواصل اللاواعي.

كنت أعي وجود أدبيات تتزايد باستمرار تتعلق باستخدام المرضى «للتعبيرات المجازية» أثناء العلاج النفسي، كما تتعلق بإمكانية استخدام تلك الفكرة لأغراض علاجية، ولكن نظراً لأنني لست معالِجاً نفسياً، لم أُلْقَ بالآلاً لاحتمال أن يكون للسرد المبطن تطبيقات علاجية بمفهوم لانغز. إذا كان لانغز مصيباً، فإن ذلك يُضفي بُعداً آخر على التواصل المبطن والإصغاء العميق: بإمكان الإصغاء العميق أن يكون مفيداً لمستشاري الصحة النفسية وذلك كطريقة للحصول على معلومات من زبائنهم لا يمكن الحصول عليها منهم بطريقة أخرى، إضافة لكونه أسلوباً جديداً لممارسة العلاج النفسي.

فيما يلي مثال على مُسْتَقَات لانغز: بعد الاستماع إلى تفسير خاطئ قدمته إحدى المحللات النفسيات أجاب المريض بشكل واع أن التفسير يبدو منطقياً، توقف برهة عن الحديث ثم تحوّل إلى الحديث في موضوع يبدو في الظاهر مختلفاً، فقد حكى قصة عن زوجته. قال: زوجتي متحدثة فاشلة في المجتمعات⁽³⁴⁾. برأي لانغز، أن ذلك يشكّل تواصلاً لاواعياً موجّهاً للمعالِجة يخبرها من خلاله بأن تفسيرها لم يكن صحيحاً. فقد تمثّلت المعالِجة بشكل لاواع بزوجة المريض،

(34) من كتاب سميث «الأحاديث الخفية»، 146.

موضوع القصة، وكون الزوجة متحدثة فاشلة في المجتمعات، يمثل التفسير الخاطئ الذي قدمته المعالجة. لقد طور لانغز طريقة للتحقق من صحة المشتقات، فهو يفترض أنه لدى تقديم تفسير صحيح، يأتي المريض بقصة أكثر إيجابية.

عندما علمت بأمر اكتشاف لانغز لأشكال التواصل اللاواعي وإمكاناتها العلاجية، وجدت نفسي في مأزق. من جهة، شعرت بالرضى لأن الإصغاء العميق كان يجري بحثه وتطبيقه بأسلوب آخر يحمل في طياته مغزى، فقد كانت فكرة لانغز، القائلة بأن السرد المبطن يمكن أن يستخدم للعلاج، تحمل إثارة. ومن جهة أخرى، كان لانغز يشير إلى أسلوبه الجديد في العلاج النفسي باسم التحليل النفسي التواصل. كان ذلك يبعث على القلق. لقد كنت (وما أزال) أخشى من أن يصبح الإصغاء العميق مرتبطاً بالعلاج النفسي الشائع وبالتحليل النفسي الفرويدي⁽³⁵⁾.

ينبغي أن أوضح هنا أن الإدراك المبطن والتواصل المبطن لا يعتمدان بأي حال على النظرية الفرويدية، بل على النقيض

(35) ضمن أفضل الظروف، الحديث عن المادة اللاواعية في وسائل الإعلام وفي الثقافة الشائعة يعني بشكل عام أن الشخص «إنسان منطو shrink» أي أنه طبيب نفسي. هذا ما يعنيه علم النفس في الفكر الشائع في وسائل الإعلام. علم النفس ليس على هذا النحو. إن معظم علماء النفس ليسوا أطباء نفسيين. كما أن كون الفرد «shrink» لا يشكّل سوى جزء بسيط من مهنة عالم النفس.

من ذلك، إنهما يشكّان القاعدة المعرفية الأساسية التي تُبنى عليها أفكار كثيرة تتعلق بالتحليل النفسي⁽³⁶⁾. أنت لا تستطيع أن تقرأ فرويد دون أن تلاحظ موهبته في الجدل الذي يعتمد على التشبيه والمجاز، لقد كان أستاذاً في التشبيه وفي المجاز⁽³⁷⁾.

بالرغم من وجود تاريخ طويل لباحثين وأطباء نفسيين مختلفين كانوا يدركون، من حين لآخر، وجود لغة شبه مبطنة، إلا أن أمثلة كهذه كانت تتسم ببداية شديدة، كما كانت تنطوي على معانٍ شبه مجازية أو على موضوعات عامة. ولا تزال كذلك حتى اللحظة. كما أن مغزاها المعرفي كان يمر دون أن يلاحظ نظراً لاعتبارها خارجة عن المؤلف. وكما قال عالما النفس العظيمان، هانز وارنر وبرنار كابلان⁽³⁸⁾ في كتابهما الرائع «تشكيل الرمز»، إن الظواهر التي تبدو وكأنها شاذة وغير قياسية هي التي تكون غالباً شديدة الأهمية من الناحية النظرية. المثال هنا هو دور الخداع البصري ضمن مجال الإدراك الحسي، أو دور الأخطاء الكلامية في علم اللغة النفسي psycholinguistics. إن الأبحاث التي أجريت على كلٍّ من تلك الظاهرتين غير

(36) انظر ر. ي. هاسكيل، «التواصل اللاواعي: التحليل النفسي التواصلية والمعرفة المبطنة»، Journal of the American Academy of Psychoanalysis 27, (1999): 471-502.

(37) انظر مقالتي: «ر. ي. هاسكيل، «النظرية القياسية والتحليلية النفسية»، The Psychoanalytic Review 55 (1969): 662 - 680.

(38) ه. ويرنر و ب. كابلان، «تشكيل الرمز: مقارنة تطورية منتظمة للغة وللتعبير عن الأفكار» (نيويورك: ويلي، 1963).

القياسيتين قد أوجدت الأساس لزيادة معارفنا المتعلقة بالإدراك الحسي وباللغة. ينطبق الأمر نفسه على ظاهرة المعنى المبطن. فهي ستقوم بتعزيز فهمنا للغة وللكيفية التي يعمل العقل بواسطتها.

لقد كانت اللغة المبطنة بانتظار نظريتها الخاصة بها وبمنهجها الخاص وذلك لشرح ماهيتها وكيفية عملها وسبب حدوثها وكيفية نشوئها. لا يزال هناك كثير من العمل الذي يتوجب إنجازه. تتضمن الخطوات التالية تطوير نظرية تركز على الدماغ تشرح الكيفية التي تصبح اللغة المبطنة ممكنة بواسطتها، كما تتضمن تلك الخطوات إجراء بعض التجارب⁽³⁹⁾. قد يتبين في النهاية أن اكتشاف الإصغاء العميق كان من أكثر القصص أهمية في تاريخ العلوم المعرفية.

(39) هناك، حسب ما لدي من معلومات، تجربتان فقط لهما علاقة مباشرة بالإصغاء العميق، انظر م. ب. فاريل، «الإسقاط الجماعي وبنية المجموعة: العلاقة بين الانحراف والإسقاط ضمن المجموعات» سلوك الجماعات الصغيرة 10 (1979): 81-100، م. هورفيتز و د. كارتر، «أسلوب الإسقاط لتشخيص خصائص المجموعة» Human Relations 6 (1952): 397 - 410.



تدابير احترازية، أخلاقية وقانونية

من الصعب أن تجعل المنهج موضوعياً، لكن بالإمكان البدء بفهمه وتطبيقه. بصفته منهجاً، فإنه يُعتبر حاداً لدرجة تقارب الخطورة، بإمكانه أن يقطع إلى أعماق لا تصل إليها المناهج الأخرى، بالتالي، يجب التعامل معه بكل عناية واحترام.

روبرت فريد بيلز

الشخصية والتعامل بين الأشخاص⁽¹⁾

إن الأمثلة التي قدمتها في هذا الكتاب تُظهر بجلاء أن الإصغاء العميق يمكن أن يكون ممتعاً، و قد يحمل بعض الطرافة أحياناً. كما يمكن له أن يكون أداة فعالة لاكتشاف أحاسيس وتجارب دفيئة شديدة الخصوصية في حياة الأشخاص.

(1) ر. ف. بيلز، الشخصية والسلوك بين الأفراد (نيويورك: هولت، رابنهارت آند ونستون، 1970)، 139.

بل إنه يتضمن، من حيث الواقع، إمكانات بالغة القوة لدرجة أشعر معها بالتزام أخلاقي يدفعني لقرع ناقوس الخطر لدى وصولنا إلى منتصف الكتاب. يتعلق التحذير الذي أود إطلاقه بجانبين مختلفين، رغم تشابكهما، من جوانب الإصغاء العميق، كلاهما مثير للجدل. يتضمن الأول القضايا الأخلاقية المرتبطة بالكشف عن الإصغاء العميق، ويتضمن الثاني تقييم معنى المعاني اللاواعية.

يتحمل العلماء مسؤولية أخلاقية فيما يتعلق بأعمالهم، أو على الأقل هذا ما أعتقد أنه وأنا وبعده كثيرون غيري. السؤال الذي يجب أن يُطرح هو التالي، ما هي المبادئ الموجّهة لهذه المسؤولية الأخلاقية وما هي الحدود الخاصة بها؟... يمكن اعتبار مشروع مانهاتن، الذي تم بموجبه تطوير القنبلة النووية التي أسقطت فيما بعد على هيروشيما وناغازاكي في الحرب العالمية الثانية، بأنه يمثل ثمرة الأخلاقيات العلمية في العصر الحديث، فقد بعث كل من أينشتاين، عالم الفيزياء العظيم، وج. روبرت أوبنهايمر، مدير المشروع، برسالة إلى رئيس الجمهورية يعبران فيها عن مشاعر القلق التي تنتابهما، من الوجهتين الأخلاقية والمعنوية، إزاء مسألة السلاح النووي.

كما أن الجدل الأخلاقي الذي لا يتوقف حالياً بشأن البيئة واستخدام الحيوانات في التجارب والاستنساخ البشري وزرع الأعضاء وربط الجينات gene splicing، يلفت الأنظار بوضوح إلى الأخلاقيات المتضمنة في البحث العلمي. لقد أدت مشاعر

القلق تلك إلى ظهور منظري أخلاق محترفين، وهم خبراء مزعمون يقومون بالتحليل وإصدار الأحكام بشأن ما هو «جيد» وما هو «سيء» في الوقت الذي تمضي فيه التكنولوجيات بكل أنواعها، كالاستنساخ مثلاً، في مسارها مخلفة وراءها مجموع ما تراكم لدينا من قواعد السلوك الأخلاقية منها والقانونية. الإصغاء العميق هو أيضاً تكنولوجيا من نوع ما، إذأ، ما هي المبادئ التي توجه عملية الكشف عما تسمعه بشكل مبطن؟..

أخلاقيات الكشف عن نتائج الإصغاء العميق

عندما كنت طالباً في السنة الأولى من الدراسات العليا، أذكر أنني التحقت بحلقة دراسية تبحث في أخلاقيات العلم. قمت خلال الحلقة بطرح السؤال التالي: ماذا لو أنني اكتشفت صيغة كيميائية معقدة لحبة دواء تسمح لأي كان بقراءة أفكار الآخرين؟... فكروا بمضامين اكتشاف كهذا. السؤال الأخلاقي هنا يصبح كالتالي: هل أنشر هذه الصيغة أم أتخلص منها برميها في المرحاض؟... كان هناك كثير من الطلاب الذين رأوا وجوب التخلص من الصيغة. أما أنا فكان رأيي، ولا يزال، ضرورة المحافظة على الصيغة، وذلك لأننا نعرف من خلال تاريخ العلوم أن شخصاً ما سيكتشفها في نهاية الأمر وقد يحتفظ بها سراً من أجل الحصول على مكاسب شخصية أو قومية. لقد كان هتلر يعمل سراً لإنتاج القنبلة النووية قبل أن تبدأ الولايات المتحدة بذلك.

لا شك بأن السؤال الذي طرحته في الحلقة الدراسية حول الصيغة التي تسمح بقراءة أفكار الآخرين يحمل طابعاً تهكيمياً. لكنني أجد نفسي حالياً وقد توصلت لا إلى صيغة كيميائية تسمح بقراءة أفكار الآخرين، بل إلى منهج سيكولوجي يشبه تلك الصيغة من عدة أوجه.

إن الكتاب المبدعين يواجهون أيضاً تلك المعضلة الأخلاقية المتعلقة بتمويه مواقف الحياة الواقعية في أعمالهم. هل تذكرون فيلم وودي آلان «تفكيك هاري Deconstructing Harry» الذي يحكي قصة كاتب نشر في رواياته كل المعلومات الشخصية التي أفضى بها أصدقائه إليه، والتي كان من الواجب أن يحتفظ بها سراً؟... رغم أنه ليس هناك من بأس في تسلق جبل لمجرد أن الجبل موجود، إلا أنه، وبخلاف المكتشفات العلمية، ليس من الملائم دائماً كشف المعنى المبطن أمام شخص ما أو أمام الآخرين لمجرد أنك توصلت إلى هذا المعنى، فهناك كثير من القصص المبطنة التي وقعت عليها من الأصدقاء والزملاء والتي لم أقدمها في هذا الكتاب، ذلك لأنني لم أفلح في تمويهها بما يكفي للحيلولة دون كشف الموقف أو الشخص من قبل من يروي القصة أو من قبل القراء. ففي الفصل التاسع، احتفظت لنفسني باسم مؤلف يمكن لكتابات أن تتكشف عن موقف عرقي سلبي لا واع، لأنني شعرت بأن إثبات صحة فكري بشأن الإصغاء العميق لا يبرر المخاطرة بطعنه على الملأ.

مما لا شك فيه أن مجرد الإيحاء بتوافر اللاوعي ضمن حديث ما، يثير مشاكل أخلاقية بالنسبة لبعض الأشخاص وبخاصة، على ما يبدو، إذا تضمن ذلك إيحاء بوجود تحامل عرقي. هناك واحد على الأقل من زملائي (السابقين) يعارض ذلك من الوجهة الأخلاقية، فبعد أن أرسلت إليه مسودة الفصل التاسع - إضافة لاستفسار عن طريق البريد الإلكتروني - لم أتلق أي رد. أنا أنفهم أسباب معارضته، لكنني لا أتفق مع تلك الأسباب (لسوء الحظ أننا لا نستطيع ببساطة أن نتفق على أن يكون لكل منا رأي مختلف).

هناك عدد من الأسباب التي تدعو للتفكير قبل الكشف عن معلومات من هذا النوع. السبب الرئيس هو أن الكشف قد يلحق الضرر. أولاً، المعنى الخفي الذي نكتشفه في الحديث المبطن يكون غالباً قد أُخفي لسبب ما. فالعقل الواعي للشخص المعني إما أنه لا يريد أن تعرف أنت أو يعرف الآخرون بم يفكر أو بماذا يشعر، أو أن العقل اللاوعي لا يرغب في أن يكشف ذلك للعقل الواعي. في الحالتين هناك مسائل ترتبط بالخصوصية. الإصغاء بشكل مبطن، إذًا، هو أشبه بقيام شخص ما باثتمانك على سر. النقطة الثانية، إن كشف نتائج الإصغاء العميق قد يسبب الإحراج للشخص المعني، كما أنه قد يلحق ضرراً شخصياً أو اجتماعياً.

توضح الحادثة التالية، التي جرت ضمن جلسات إحدى المجموعات، كيف أنه من غير اللائق أحياناً كشف نتائج

الإصغاء العميق. أوضحت إحدى السيدات من أفراد المجموعة عن أحاسيسها وأفكارها الحقيقية بشأن صديق لها كان على فراش الموت. وبما أن بقية أفراد المجموعة لم يكونوا على دراية بكيفية التعامل مع موضوع كهذا بأسلوب مباشر، كان هناك كلام عميق محمّل بالإشارات إلى الموضوع. باعتقادي أنه لم يكن من اللائق أن أقوم - حتى ضمن ذلك الجو التعليمي - بسؤال المجموعة، أو السيدة التي كان لها صديق يحتضر، عما إذا كانوا قد تعرفوا إلى الارتباطات المبطنة بين موضوع الصديق الذي كان على فراش الموت وبين النقاشات التي جرت في ذلك الوقت بين أفراد المجموعة.

رغم أن السيدة كانت قد طرحت طوعية موضوع صديقها الذي كان يحتضر، ورغم أن ذلك كان سيقدم مثلاً إضافياً لأفراد المجموعة يجعلهم أكثر تفهماً للمعنى اللاواعي في الحديث ولما يكشفه ذلك المعنى بشأن الديناميكيات المحركة للمجموعة، إلا أنني لم استطع، من الوجهة الأخلاقية، تقديم مبرر تعليمي لتصرفي كهذا. لو كانت المجموعة هي مجموعة لتقديم المشورة، تقوم بمناقشة مسائل من نوع الانفصال أو فقدان الأحبة أو مشاعر الحزن، فإن ربط المعنى المبطن للمواضيع التي أثّرت بالقصة التي روتها السيدة والتي تدور حول صديقها المحتضر، هذا الربط لن يُعتبر تصرفاً ملائماً فقط، بل إنه قد يقدم تجربة علاجية فعالة. لكن مجموعات التدريب ليست مجموعات لتقديم المشورة. رغم ذلك، فإن

إشراك شخص آخر في معاني الإصغاء العميق، ضمن ظروف ملائمة، يمكن له أن يكون ذا نفع كبير. ألسنا جميعاً، رغم كل شيء، نسعى لمعرفة ما بداخلنا؟...

كيف نجوب فضاءنا الداخلي لتفسيره

«ماذا تعني؟...»

كم مرة تعرضت لهذا السؤال، أو، كم مرة طرحت أنت هذا السؤال على شخص تجاذبه أطراف الحديث؟... نحن لا نضطر «لتفسير» الكلام العميق فقط، ولكن لترجمة المعاني الحرفية اليومية أيضاً. هذه نقطة بالغة الأهمية لأنني غالباً ما أتَّهم برؤية معانٍ حيث لا توجد تلك المعاني، قد أفعل ذلك، أحياناً. لكننا جميعاً نفعل ذلك. الواقع أن تفسير معاني الكلمات والجمل يُعتبر مشكلة في غالب الأحيان. لكن ما يحدث عادة هو أننا إما أن نخفق في إدراك وجود مشكلة ما، وبالتالي نفترض معنى لم يكن هو المقصود فعلاً، أو أننا نخطئ في إدراك المعنى الحقيقي لما قاله الشخص أو أننا نقوم بكلا الأمرين معاً. نحن غالباً نعتبر معنى ما يقوله الشخص أمراً مفروغاً منه وهنا يكمن الخطأ. فلنكني نفهم (أعني: نفسّر) أي حديث، علينا دائماً أن نقوم بذلك على أساس السياق المحيط بذلك الحديث.

إن كلمة، أو عبارة، ما ضمن سياق أو موقف معين قد تعني شيئاً مختلفاً تماماً ضمن سياق آخر. كم مرة قال لك

أحدهم، مثلاً: «ولكن لم يكن ذلك ما قلته. لقد قلت أنني مخادع». تجيب أنت: «لم أقل ذلك مطلقاً». ليعود الشخص ويقول: «قد لا تكون تفوهت فعلاً بتلك الكلمات، لكن كان من الواضح أنك تقصد ذلك». في مواقف عادية من هذا النوع يقوم الشخص بتفسير كلماتك العادية المألوفة وبالتالي بتفسير المعنى الذي رميت إليه. لا يوجد فرق كبير بين «تفسير» الكلام العميق وبين فك رموز هذا الكلام، كل ما في الأمر أننا لا نعي «تفسير» الحديث اليومي بالقدر نفسه الذي نعي فيه تفسير الإصغاء العميق.

إن الكتاب و الكوميديين المبدعين يعرفون أن السياق هو الذي يحدد تقييمنا لمعنى الحديث. لنأخذ المشهد التالي من إحدى مسرحيات كوميديا المواقف: تدخل الزوجة إلى غرفة حيث ترى زوجها يقف قرب سيدة جذابة وتسمعه يقول لهذه السيدة: «يالله من صدر رائع». لدى إمعان النظر، يرى النظارة صحناً على الطاولة قربهما يحوي صدر دجاجة. (تتصاعد ضحكات مكبوتة).

يقول سفر التكوين: «في البدء كانت الكلمة» - لكن معناها، لسوء الحظ، لم يأت معها. لقد جاء إيجاد المعاني نتيجة تفسيرنا للكلمة. فالكلمات المنطوقة، بحد ذاتها، لا تزيد عن كونها تتابعاً اعتباطياً لأصوات تبحث عن معنى، مثلما أن الكلمات المكتوبة لا تعدو كونها تتابعاً لعلامات أو لخطوط اعتباطية تبحث عن ترابط منطقي. لا يمكن لتلك الأصوات أو

لتلك الخطوط الاعتبارية أن تتوصل لاكتساب معنى مقبولاً إلا عن طريق اتفاقات اجتماعية وارتباطات تتسم بالتماسك والثبات. مع ذلك، فإن المعنى اليومي المتعارف عليه لا يقدم لنا سوى النزر اليسير من تلك الاتفاقيات والارتباطات.

إن المعنى المُتَّفَق عليه اجتماعياً لتلك الأصوات والخطوط الاعتبارية لا يتمتع بالدقة الكافية. نحن نصنع معانينا، بالتالي، تصبح معاني الكلمات التي نستخدمها أثناء الحديث بحاجة مستمرة للتفسير ضمن السياق المحدد الذي يجري فيه استخدام تلك الكلمات. فالرجال يعنون شيئاً واحداً لدى استخدامهم كلمات بعينها قد تعني بها النساء شيئاً مختلفاً تماماً، والأشخاص الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية - اقتصادية وجماعات عرقية مختلفة قد يستخدمون نفس الكلمات بمعان مختلفة.

كما أن الشخص الذي ينتمي إلى مهنة محددة قد يعني أشياء محددة لدى استخدام كلمات بعينها وذلك بالمقارنة مع أشخاص لا ينتمون لنفس المهنة. عندما كنت أقوم بإعداد مسودة كتاب «بين السطور»، كان أحد الناشرين لا يتوقف عن مراسلتي بالبريد الإلكتروني قائلاً: «روب، اكتب بأسلوب أقل تحليلاً Rob, be less clinical» ونظراً لأنني لم أكن أجد استخدام أمثلة مستقاة من مجال العلاج النفسي لم أفهم ما رمى إليه تماماً، لذلك قمت بحذف معظم المفردات الخاصة بعلم النفس. لكن رسائله الإلكترونية لم تتوقف قائلة: «ما زلت تبالغ

في التحليل». بدأ صبري ينفذ، لجأت إلى القاموس وأنا أفكر، سأنتقم منه سأرسل له تعريف كلمة clinical. انظروا ماذا وجدت، كان أحد معاني الكلمة كالتالي: «المبالغة في الموضوعية والتحليل». فهمت أخيراً ماذا كان يقصد. عندما يقول أحدهم لعالم نفس كلمة clinical فإنها تكتسب تداعيات آلية تربطها بلغة العلاج النفسي وقضاياها.

إن السياق المحدد - أي الموقف بحد ذاته - الذي يدور ضمنه حديث ما، يمكن له أن يكشف لنا معنى ذلك الحديث ضمن سياق معين. ورغم أننا لا نعي ذلك، إلا أنه يتعين علينا أن نقوم بتفسير أبسط العبارات اليومية. فعبارة I am going to get into the pool، مثلاً، لا معنى لها بحد ذاتها. فهي قد تعني (أ) سأغطس في حوض السباحة I am going to get into the swimming pool أو (ب) سأشارك في المراهنات على كرة القدم I am going to join the football pool، أو (ج) سأشارك مع مجموعة من الأشخاص في استخدام سيارة بشكل جماعي join the car pool، وإلى ما هناك من معان، وذلك حسب السياق الذي تقال فيه العبارة. عندما نتفوه بعبارة كهذه، فإن الظروف المحيطة بالحديث تقوم بدور الموجّه الذي يدلُّنا على المعنى الواجب اختياره من بين المعاني الكثيرة الممكنة. من الواضح طبعاً أنه إذا كانت درجة الحرارة 98°؟، وكنتَ تجلس على حافة حوض السباحة، بإمكانك الافتراض بكل ثقة أن الشخص الذي تفوه بالعبارة لا يقصد المراهنات على مباريات كرة القدم.

لنأخذ مثلاً عبارة well done، ماذا تعني هذه العبارة؟... إنها لا تعني أي شيء قبل وضعها ضمن سياق ما. الآن، ماذا لو عرفنا أن هذه العبارة قد قيلت ضمن سياق الحديث عن الطعام، هنا أيضاً قد تحمل معنيين مختلفين. أولاً، يمكن أن يكون معناها «أحسنّت صنعاً»، أو «أود أن يكون الطعام مطهواً بشكل جيد»، أو يمكن أيضاً أن يكون معناها: أود أن يكون اللحم ناضجاً تماماً. نحن نقوم على الدوام بتفسير المعاني.

أخيراً، رغم قيامي بتطوير أسلوب منهجي لتحليل الإصغاء العميق والتأكد من صحته، إلا أن التحليل المبطن لجزء من حديث حرفي قد لا يكون صحيحاً، وذلك نظراً لأن الأسلوب لا يُعتبر أسلوباً علمياً دقيقاً. هنا تلتقي الأخلاقيات المتعلقة بكشف نتائج الإصغاء العميق مع عملية التأكد من صحته.

دفاعاً عن المومسات (حكاية التحذير)

كنت أتحدث هاتفياً مع أحد أصدقائي، وهو عالم أحياء وزميل لي (سأدعوه جون). قادنا الحديث إلى رواية كان يقوم بتأليفها، سألته عن عنوانها فأجابني أنه لم يختار لها عنواناً بعد، كان جوابي أنني أقوم دائماً باختيار العنوان قبل أن أشرع بالكتابة. بعد أن تابعت الإلحاح عليه، أجبني بشيء من التردد قائلاً، بأسلوب بدا لي غريباً، أنه كان يفكر بعنوان، وكان العنوان: «دفاعاً عن المومسات».

ما هو المعنى المبطن لقوله هذا؟.. لكي يفهم المعنى الخفي الكامن خلف الكلمات في عنوان الكتاب يتعين فهم سياق علاقتنا.

أولاً، أنا وجون نتبادل المزاح دائماً بأسلوبٍ يمكن اعتباره المعادل الأكاديمي للعبة كلامية يلعبها الرجال وتسمى dozens (تعتمد على سرعة البديهة، أول من بدأ بها هم الشباب السود في أمريكا، يقوم فيها المشتركون بالتباري في إهانة بعضهم بعضاً).

ثانياً، خلال الأسابيع القليلة التي سبقت الحديث كنا نناقش بإيجاز بأسلوب يشبه لعبة dozens كتابي السابق الموجّه للعامة حول المعاني اللاواعية في الأحاديث.

ثالثاً، كنت أحاول إقناعه بتأليف كتاب يوجّه للعامة حول قضايا البيئة، بحيث يدرك عامة الناس رأيه في المشكلة البيئية الذي جاء ثمره الأبحاث. كنت غالباً ما أعبر له عن شعوري بالضيق من علم النفس «الشائع» الذي يدعو إليه الأطباء الذين لا يستطيعون إجراء الأبحاث أو فهمها، وكان يقول لي أن مجال عمله يعاني مشكلة مماثلة وذلك فيما يتعلق بالعاملين في مجال البيئة الذين يتبادلون المشورة مع رجال الأعمال.

رابعاً، كان هو يرفض على الدوام أن يؤلف كتاباً كهذا لأن ذلك يشكل برأيه «تنازلاً» عن قيمه كعالم. وقد كانت العبارة التي استخدمها سابقاً هي أن تأليف كتاب كهذا سيكون ابتذالاً للنفس prostituting one's self.

خامساً، أثناء قيامي بتأليف كتابي، كان هو يوبخني، على سبيل الدعابة، على خيانتني التي كانت تصب في خانة صالح علم النفس «الشائع».

سادساً، عندما ذَكَرَ عنوانه بشكل متردد، بدا وكأنه قد توصل إليه للتو نتيجة دفع متصل من الأفكار.

أعتقد الآن، و بعد أخذ تلك الدلائل القرينية الست بالاعتبار، أن عنوان كتاب «دفاعاً عن المومسات» كان إشارة مبطنة إلى قيامي بتأليف كتاب شعبي، أي أنني «مومس» أكاديمي باع نفسه في الساحة العامة في السوق. إن الجانب الظاهر من المعنى المبطن لعنوانه يشير إلى أنه كان يدافع عن «المومسات» إلى حد ما، فهو إذاً، بهذا المعنى، نوع من (الإطراء التهكمي موجّه إلي) (وقد يكون اعترافاً لاواعياً بإمكانية وجود ميزة ما في تأليف كتب شعبية) ما نفع الأصدقاء، إذاً، إذا لم يجدوا فيك قيمة خلاصية حتى ولو لم يوافقوك تماماً على ما تقوم به. (هناك احتمال أن يكون هو واعياً لذلك عندما وضع العنوان. عندما تحدثت إليه في ما بعد بدا وكأنه غير مدرك للكلام العميق. لكن هذا المثال على أية حال، وضمن أسوأ الاحتمالات، يمكن له أن يكون مثلاً أولياً افتراضياً هدفه التوجيه).

قد يبدو أن معنى الكلام العميق الذي قاله جون كان واضحاً. لكن، وكما نرى في كثير من المعاني المبطنة،

الوضوح ليس دائماً هو ما يبدو في الظاهر. أنا لا أقوم هنا بالتراجع عما قلته بشأن تحليل قصة صديقي، بل بتوضيح القصد من تلك القصة، فالمعنى المبطن لقصة ما والهدف المقصود من تلك القصة ليسا أحياناً الشيء نفسه. هذه الفكرة بالغة الأهمية ضمن سياق فهمنا مضامين حديث مبطن فهماً كاملاً، فالعقل البشري، شأنه شأن الدوافع البشرية، معقد لدرجة لا يمكن تصديقها. حيث يتعلق الأمر بالكائنات البشرية، هناك أمور قليلة - هذا إن وجدت - يمكن اعتبارها بسيطة بالقدر الذي تبدو عليه أو بالقدر الذي نود نحن أن تكون عليه.

لدى مواجهة الأشخاص بالكلام العميق الذي يتضمنه حديثهم، يحتج معظمهم ويقولون بعناد: «لم يكن ذلك ما قصدته على الإطلاق، لم أكن أفكر بذلك أبداً». إن عقلنا يتكوّن من مستويات عدة. فرغم أن المعنى الواعي لعبارة «دفاعاً عن المومسات» التي قالها زميلي، كان هو المعنى الحرفي الذي رمى إليه، إلا أن هناك بالطبع، مستوى الكلام العميق الذي لم يكن هو يعي وجوده.

عندما أوضحت له المعنى المبطن لحديثنا، اعترض قائلاً، «كيف تصورت أنني أنتقد كتابك الذي ساهمت فيه عن طريق الترويج له ضمن حرم الجامعة؟..». لا شك بأنه قام بذلك ولكن، أعود هنا لأكرر، قام به بأسلوب هزلي يتسم بالإهانة كما في لعبة dozens وعن طريق البريد الإلكتروني. على أية حال، النقطة الأهم أنه بالرغم من صحة تحليلي (كما أعتقد)

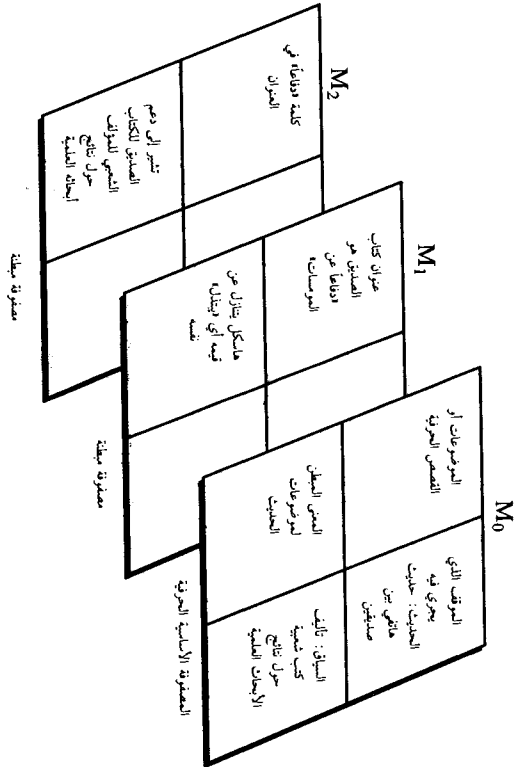
لكلامه العميق على أساس الإصغاء العميق، وذلك في ما يتعلق بوجود توازٍ بين فكرة المومس وفكرة قيامي «بالتنازل» لدى تأليف كتاب شعبي، إلا أن المدلول المعتاد، المتعلق بوجود نية سيئة ينطوي عليها الكلام العميق، ليس صحيحاً على الأغلب.

إن اللحظة التي نقوم فيها بتحليل هذا الجانب من الموضوع، هي اللحظة التي يتعين فيها التزام أقصى درجات الحذر. فالفكرة الثانية لا تنتج منطقياً عن الفكرة الأولى بشكل آلي. سأشرح الآن لماذا لم يكن صديقي يُضمّر تلك النية السيئة التي يبدو تحليلي القائم على الإصغاء العميق وكأنه ينطوي عليها. (انظر الشكل 6-1).

أولاً، قام جون بتعريف زملائي ضمن حرم الجامعة بكتابي، وكانت تلك بادرة غير مألوفة من شخص أكاديمي. ثانياً، نحن نتبادل الاحترام من الناحية المهنية. ثالثاً، لم يكن هناك داعٍ لشعوره بالحسد، فقد نُشرت له عدة مقالات بحثية وكتب لأقت ترحيباً كبيراً، وقُبِلَ عضواً في الجمعية الأميركية لتطوير العلوم AAAS، إضافة لأنه -كما كنا نقول غالباً على سبيل المزاح - يُعتَبَر، بحكم كونه عالم أحياء، عالماً «حقيقياً» بالمقارنة مع عالم نفس.

النقطة الأخيرة، والأهم، هي أنني اكتشفت في معظم الأحيان أن الكلام العميق لا ينطبق غالباً على ما نعرفه عن الشخص الذي يتحدث. إذًا، ماذا يمكن أن نفهم من الموقف

الشكل 6 - 1: مخطط مصفوفة دفاعاً عن المؤسسات



المسلي الظاهري المتضمن في العنوان الذي اقترحه صديقي
«دفاعاً عن المومسات»؟... الجواب كالتالي:

نحن نتعرض جميعاً لعملية إشراط ثقافي cultural conditioning، وذلك فيما يخص المعتقدات الاجتماعية والنماذج النمطية stereotypes والمواقف وإلى ما هنالك من أمور (انظر الفصل التاسع). يجري غرس تلك الأمور في اللاوعي عبر سنوات من التعرض للمفاهيم الموجودة في الأفلام السينمائية ولصور المجلات ومن سماع تعليقات الآخرين (يمكن لكل ذلك أن يجري في الوقت نفسه، عند المستوى الواعي). بدأت في إدراك هذه الفكرة لدى الإصغاء إلى قصص مبطنة تدور حول النساء وحول الأقليات الإثنية. كان بعض الأشخاص الذين يتدعون تلك القصص من الأشخاص الذين أعرف بأنهم لا يؤمنون بالتمييز الجنسي أو بالتحامل العرقي. لكن سنوات من التعرض للإشراط (رغم كل شيء) القائل بأن النساء مخلوقات انفعالية لا عقلانية وبأن الأمريكيين السود كسولين وأقل ذكاء من البيض، يوفر للمرء مخزوناً كبيراً من اللاوعي العميق يؤدي لإحداث «تداعيات» لا إرادية تتبدى بشكل آلي أثناء الكلام العميق. لقد اكتشفت أن تلك النماذج النمطية والمعتقدات المغروسة فينا بعمق قد تعكس أحياناً وجود تحامل، لكنها في أحيان أخرى قد لا تعكس سوى إدراك وجود اختلاف بيننا وبين الشخص أو المجموعة اللذين تجري الإشارة إليهما بشكل مبطن.

بإمكاننا أن نقول الشيء ذاته فيما يخص مصدر الكلام العميق الذي قاله جون. هناك كثير من الأكاديميين الذين غُرسَتْ في أذهانهم فكرة عدم احترام من يقومون بتبسيط نتائج الأبحاث العلمية بحيث يفهمها العامة. يعود ذلك لعدة أسباب، أحدها هو الاعتقاد بأن من الواجب تبسيط النتائج الشديدة التعقيد للأبحاث العلمية بحيث يفهمها العامة من غير العلماء. لكن هناك من يظن أن القيام بذلك التبسيط يقتضي إجراء تنازلات تمس جوهر الدقة العلمية والحقيقة. هناك سبب آخر وهو أن وسائل الإعلام غالباً ما تستخلص من تلك النتائج العلمية مدلولات مثيرة تكون خاطئة تماماً. لكن الاعتقاد بأن تلقّي المال يسيء إلى استقامة العالم قد يكون أفضح ما يخطر بالبال من آراء سلبية (لسوء الحظ تحوي تلك الآراء على قدر من الحقيقة يكفي لدعم الموقف السلبي إزاء جَعْل العلم في متناول العامة). إذًا، فيما يخص الكلام العميق الذي قاله جون، لا بد وأنه كان مجرد انعكاس لتلك النماذج النمطية والمفاهيم والمعتقدات الأكاديمية المغروسة داخل الأذهان بعمق.

أودُّ الاعتراف هنا أن من الممكن أن تكون تعليقات جون قد عكست شعوراً بالحسد والرفض، يقبع عند مستوى لا واع عميق الغور (لكنني أشك بذلك). وقد رأينا في الفصل الرابع، الذي يتحدث عن العلاقات البشرية، أن مشاعر المنافسة تسري بصورة أساسية في أعماق النفوس. لا شك بأنني خبرت الإحساس بوخزات الحسد في نفس الوقت الذي كنت أتمنى فيه

الخير، بكل إخلاص، لأحد زملائي. في داخلنا جميعاً، هناك برامج كثيرة تعمل بشكل متزامن.

هناك ملاحظتان إضافيتان بشأن معنى الكلام العميق: الأولى، إن وخزات الحسد الموجودة داخلنا في الأساس لا تحمل أي مغزى فعلي فيما يخص العلاقات بين الأشخاص. الملاحظة الثانية، إن إضفاء مغزى على تلك «الاحتمالات» دون توافر دلائل خارجية واضحة تدعمها، يعتبر مجرد تخمينات هوجاء. لو كانت هناك دلائل سابقة على إحساس جون تجاهي بالغيرة والمنافسة المهنية، لكان من الممكن اعتبار عنوان «دفاعاً عن المومسات» بأنه يحمل مغزى فيما يتعلق بالنوايا، لكن لم تكن هناك أية دلائل من هذا النوع على الإطلاق.

لاشك بأن مجتمعنا يحوي سلفاً ما يكفي من التخمينات الهوجاء بحيث لا توجد ضرورة لإضافة المزيد. ومهما حاولت التأكيد على أهمية هذه الحكاية التحذيرية في عملية تحليل معنى الكلام العميق فلن أصل حد المبالغة. من الواضح إذاً أن هناك (أ) إصغاء عميقاً يبدو وكأنه يحمل معنى مبطناً، ولو أنه لا يحمل مثل هذا المعنى، و(ب) إصغاء عميقاً يحمل معنى مبطناً، لكن ذلك لا يحمل أي مغزى فيما يخص العلاقات بين الأشخاص. هذا ما يدعونا لالتزام أقصى درجات الحذر عندما ننسب لكلام شخص ما معنى لا واعياً.

الأهم من ذلك أن تلك «التفسيرات» المتعجلة يمكن لها

أن تفضي إلى نتائج خطيرة لا على المستوى الشخصي والاجتماعي فحسب، بل على المستوى القانوني وذلك في محكمة الرأي العام.

و. ج. يحلم في كاليفورنيا

الحادثة التي سأرويها لا يمكن لها أن تحدث، وبخاصة ضمن قاعة محكمة، إلا في كاليفورنيا. لا أعتقد أن هناك بين قراء الكتاب من لا يذكر القضية الجنائية التي اتُهم فيها و. ج. سمبسون بقتل زوجته السابقة وصديقها. رغم أن القضية لا تتعلق بالمعاني المبطنة، إلا أن لها علاقة بعلم النفس الشائع، وبفرويد وبقيام العقل اللاواعي بكشف المعاني الخفية. قد تذكر أن، خلال سير القضية، سمح القاضي لانس إيتو بأن تُدخل ضمن الأدلة شهادة قدمها أحد أصدقاء و. ج. السابقين قال فيها أن و. ج. كان قد أسر له بأنه شاهد حلماً قام فيه بقتل زوجته. إضافة إلى ما يُجمع عليه معظم علماء النفس الذين يقومون بإجراء الأبحاث من أن السماح بإدخال حلم ضمن الأدلة يعتبر قراراً شائناً من قِبَل المحكمة، كان ما أثار ذهولي هو أن أفراد فريق الدفاع عن و. ج. Dream Team لم يعترضوا بقوة (لو أنهم فعلوا ذلك لما كان قد سُمح، بكل تأكيد، بإدخال الحلم ضمن الأدلة).

حسب رأي التحليل النفسي وعلم النفس الشائعين، يمكن الافتراض بأن الحلم يعني أن و. ج. كان، في اللاوعي، يُضمر

رغبة دفيئة بقتل زوجته. قد يبدو هذا التفسير منطقياً بالنسبة لكثير من الناس. ألم يقل فرويد رغم كل شيء، أن الأحلام هي نتيجة الرغبات اللاواعية؟... نعم، لقد قال هذا، إلى حد ما، بل نوعاً ما. لكن هناك عدداً لا يتجاوز أصابع اليد من المحللين النفسيين المعاصرين ممن يتفقون مع نظرية الأحلام «القائمة على الرغبة» التي قال بها فرويد. على أية حال، إن إدخال حلم من هذا النوع ضمن محضر جلسة دعوى قضائية يعتبر، من حيث الواقع، أمراً منافياً للمنطق. أقول ذلك رغم أنني لا أنكر تماماً - مثل كثير من زملائي علماء النفس العاملين في مجال التجارب - أن بعض الأحلام قد تحمل معنى، مع التأكيد على كلمة «قد»، والتأكيد على عبارتي «ضمن ظروف خاصة» و«لأغراض معينة»؛ ربما.

إن تفسير المعاني اللاواعية للأحلام، رغم الكتاب الذي ألفه فرويد حول هذا الموضوع والذي كان بمثابة نقطة الانطلاق، هذا التفسير يحمل معه مشاكل عويصة - ضمن أفضل الظروف - مهما كانت تلك الظروف⁽²⁾. هناك ما يزيد عن 160 مدرسة فكرية مختلفة يمكن تفسير الأحلام على أساسها والخروج بمعان لا تقتصر على كونها مختلفة، بل ومتعارضة أيضاً. ربما كان و. ج. يُضمر نوازع تدفعه لقتل زوجته السابقة، لكن هناك أيضاً احتمال أنه لم يكن يضمر مثل تلك

(2) ر. ي. هاسكيل، تحرير، بحث في المعرفة والأحلام (New York: Institute of Mind and Behavior, 1986)

النوازع. حتى ضمن مجال التحليل النفسي الشائع، قد يقول تفسير ما أن الحلم لجأ، ببساطة، لاستخدام «صورة مجازية» للقتل كرمز لرغبة و. ج. بقتل مشاعره تجاه زوجته، أو ليعكس «رغبة» بالانفصال.

السؤال هو ماذا يمكن أن يكون رأي فرويد بشأن استخدام هذا الحلم في قاعة المحكمة؟... هل كان سيتفق مع الأفكار العامة المتعلقة بما يعتقد الناس أنه سيقول بهذا الشأن؟...

إعفاء فرويد من المسؤولية

في سبيل تجنب التفسيرات أو الاقتباسات المتنازعة التي لا تنتهي بشأن ما يمكن أن يكون رأي فرويد، وذلك على أساس آرائه العامة المتعلقة بالأحلام وبالمعاني اللاواعية، قمت بتنقيب دقيق ضمن مؤلفاته - دون كبير أمل بأن أجد ما كنت أبحث عنه - وذلك في محاولة للعثور على حلم يشبه حلم و. ج. ، تضمنت حيثياته جريمة قتل ومحاكمة، لكنني لم أعر على حلم كهذا.

وجدتُ حلمًا يتعلق بجريمة قتل، لكن القائلين بالفكر الفرويدي الشائع لن يعجبهم ما وجدت. في الفصل الأول من كتاب تفسير الأحلام لفرويد، حيث يقوم باستعراض الأدبيات المتعلقة بالأحلام السابقة لسنة 1900، يستشهد فرويد بقول أحد الباحثين من أن إمبراطوراً حكم على أحد رعاياه بالإعدام لأن الرجل كان قد رأى حلمًا قام فيه بقتل الإمبراطور. لكن فرويد،

للأسف، لم يقل إن كان يعتقد أن الحلم يرر للإمبراطور إعدام الرجل⁽³⁾. تابعت التنقيب. في الصفحات الأخيرة من الكتاب، جاء تعليق فرويد على هذا الحلم. كان هذا ما قاله: «أعتقد... أن الإمبراطور الروماني ارتكب خطأ عندما حكم على أحد رعاياه بالإعدام لأن هذا الأخير حلم بأنه يقتل الإمبراطور»⁽⁴⁾. كان فرويد على الأغلب ليقول الشيء نفسه بشأن إدخال حلم و. ج. ضمن الأدلة. لكن لا يمكننا أن نتأكد من ذلك على أساس ملاحظة واحدة أبداها فرويد.

بما أنني كنت أتصرف مدفوعاً، إلى حد ما، بشيء يتجاوز إرادتي تابعت التنقيب في مؤلفات فرويد أصارع الأمل في العثور على حلم تبعته جريمة قتل ومحاكمة. رغم أنني لم أعثر على حلم كما كنت أرغب تحديداً، إلا أنني وجدت في الصفحة 73 من مؤلف فرويد «مقدمة عامة للتحليل النفسي» مثلاً عن زلة قلم اعتبرت مناسبة للموضوع بما أننا نتحدث عن المعنى الذي يجب أن نضفيه على المعاني اللاواعية⁽⁵⁾. يتضمن المثال دعوى قضائية إضافة لما قاله فرويد نفسه بشأن ما إذا كان من الواجب اعتبار الزلة دليلاً قانونياً. كانت القضية تتعلق بطبيب كان يجري أبحاثاً حول أمراض شديدة الخطورة، ولكي يستطيع الاستمرار

(3) تفسير الأحلام، 67.

(4) نفس المكان، 620.

(5) من س. فرويد، مقدمة عامة للتحليل النفسي، ترجمة ج. ريفيير (نيويورك، واشنطن سكوير پرس 1961).

في عمله، كان عليه أن يطلب عينات يجري استنباتها في المخبر. اشتكى الطبيب للعاملين في المخبر الذي قام باستنبات العينات بشأن عدم فعالية المواد المُستنبطة التي كانوا قد أرسلوها. في الشكوى التي أرسلها، كانت هناك زلة قلم، فعوضاً عن أن يكتب «في تجاربي على الفئران والخنازير الهندية Mausen und Meerschweinchen» كتب الطبيب: «في تجاربي على الأشخاص» menschen. يقول فرويد أن هذه الزلة لفتت أنظار الأطباء في المعهد لكنهم لم يستخلصوا منها أية نتيجة. ثم يتساءل: «ما رأيكم؟...» هل يتعين على زملاء هذا الطبيب الأخذ بزلة القلم هذه كدليل على عمل إجرامي وفتح تحقيق معه؟ ...

تبين فيما بعد أن الطبيب كان فعلاً يقتل أشخاصاً بواسطة عيناته من المستنبات المميتة. يضيف فرويد: «لا شك بأن زلة قلم كهذه كانت ستثير الشك لدي». هل تتبدى أماننا أطياف محاكمة و. ج.؟... ليس تماماً. ثم يمضي فرويد في تقييم المعاني الممكنة لهذا المعنى اللاواعي، فيقول:

هناك معارضة قوية لاعتبار تلك الزلة بمثابة اعتراف. الأمر بسيط. لا شك بأن تلك الزلة تعتبر دلالة، لكن لا يمكن لها أن تبرر وحدها فتح تحقيق. إنها تكشف، بما لا يدع مجالاً للشك، بأن الرجل كانت تراوده أفكار بشأن نقل العدوى إلى كائنات بشرية، لكنها لا توضح بشكل أكيد إن كانت تلك الأفكار تشكّل خطة

محددة لإلحاق الأذى أو أنها مجرد تهيؤات لا تحمل
أية أهمية عملية⁽⁶⁾.

لقد تعرّف فرويد بوضوح شديد إلى المشكلة الأساسية
التي تكمن في عملية تحديد أهمية معنى أشكال التواصل
اللاواعي. فسواء كانت تلك الأشكال تأخذ شكل أحلام أو
شكل زلات لسان أو زلات قلم: لا يجب اعتبارها دليلاً
قانونياً.

كما أدرك فرويد أن من الصعوبة بمكان التمييز إن كانت
أشكال التواصل هي مجرد تهيؤات أم أن لها أساساً واقعياً. لو
كان القاضي إيتو قد استقى معلوماته على نحو واف من علماء
النفس الذين يقومون بإجراء الأبحاث لا من علماء النفس
العاملين في العيادات المدللين لدى وسائل الإعلام الشعبية. لو
أنه فقط لم يكن يعاني من «تناذر فرويد» Freud Syndrome
الشائع شعبياً. كيف لنا الآن أن نقيّم المثال المذكور في الفصل
الأول، حيث زل لسان القاضي وهو يتحدث إلى لجنة المحلفين
بشأن «التسليم بذنب» المتهم؟... أعتقد أن الجواب واضح.

إن حذرَ فرويد واستنتاجاته بشأن عدم التسرع في الوصول
إلى النتائج فيما يخص أشكال التواصل اللاواعي، يمكن تطبيقها
بشكل مباشر من أجل البرهنة على صحة المعنى الذي نجده
لدى قيامنا بالإصغاء العميق.



الأرقام في الحديث: التفكير عبر الأعداد

يختبئ أصل نشوء الأعداد خلف حجاب كثيف من العصور
التاريخية السحيقة. نتساءل: هل نشأ مفهوم الأعداد نتيجة
التجربة، أم أن التجربة لم يتعد دورها توضيحاً ما كان في
الأصل كامناً في العقل البدائي؟...

توبياس دانتزيغ
العدد: لغة العلم⁽¹⁾

أستهل هذا الفصل والخشية تملأ قلبي، لأن القول بأن
الأعداد الواردة في الحديث تحمل معنى لا واعياً يُصنَّف، في
أفضل الأحوال، في خانة التفسيرات الأكثر جموحاً في التحليل
النفسي، وفي أسوأ الأحوال - وهو الأرجح - في خانة

(1) ت. دانتزيغ، «العدد: لغة العلوم» (جاردن سيتي، نيويورك: دوبلدي

استخدام الأعداد في السحر والتنجيم numerology سواء في العصر القديم أم في العصر الحديث. ما من شك بأن القول بوجود معنى لا واع للأعداد الواردة في الحديث قد يثير الشك بوجود نوع من الخيمياء alchemy النفسية. إذا أخذنا بالاعتبار تاريخ كل من التحليل النفسي واستخدام الأعداد في السحر والتنجيم، يصبح خوفي حينئذ أمراً مفهوماً. بالرغم من كل ذلك، فقد اكتشفت أن الأعداد الواردة في الحديث يمكن لها أن تلعب دور صور رقمية؛ بيانية «of speech» figures مبطنة⁽²⁾.

كيف يمكن لك، إذًا، أن تفسّر تكرار ورود العدد (5) في حديث لا يشترك في المناقشة فيه سوى خمسة أشخاص؟... أو أن تفسّر تكرار ورود العدد (14) في ما يبدو وكأنه حديث عَرَضي، عندما يكون عدد المشاركين فيه أربعة عشر شخصاً بالتحديد؟... أكثر من ذلك، كيف يمكن لك أن تفسّر تغيير العدد (14) ضمن القصص الحرفية ليصبح (13) بعد استئذان أحدهم ومغادرته المكان قبل بقية الحضور؟... لا يستدعي الأمر عالم رياضيات لإدراك أن هناك عملية طَرْج لا واعية تجري في الخفاء. إضافة لما سبق، ماذا يعني، وكيف تفسّر، تكرار أعداد أخرى تَرُدُّ «بالصدفة» في القصص أو ضمن أحاديث لا تبدو ظاهرياً مترابطة، بحيث تنطبق تلك الأعداد بدقة على

(2) ر. ي. هاسكيل، التحول والبنية المعرفية: منهج تجريبي للتوظيف التحليلية النفسية للأعداد في الحديث»، سلوك الجماعات الصغيرة 13

المجموعات الكثيرة التي ينقسم إليها الحضور المشاركون في الحديث؟ ...

سأبيّن في هذا الفصل أن الأعداد الواعية الحرفية الواردة في القصص والموضوعات التي تتضمنها الأحاديث غالباً ما يجري اختيارها في الحديث، بشكل لا واع، نظراً لأنها تعبّر عن دواعي القلق إزاء المجموعات المتعددة التي ينقسم إليها الحضور المشاركون في حديث اجتماعي. نرى بالتالي، أن العدد (5) يَرُدُّ في حديث ما نتيجة شعور بعض المشاركين بالقلق لأن هناك خمسة أشخاص يستأثرون بالحديث. فالأعداد، شأنها شأن الكلمات والموضوعات، تلعب دور الكلام العميق، والناس لا يعون، كما هو حالهم لدى استخدام لغة مبطنة، معنى الكلام العميق الكامن في الأعداد التي يستخدمونها «بمحض الصدفة» في أحاديثهم.

يبدو فهمُ وظيفة الكلام العميق للأعداد، من بعض نواحيه، أكثر أهمية من التعرف إلى المعنى المبطن للكلمات والعبارات والقصص، وسبب ذلك في رأيي هو أن الكلمات تتمتع بسمعة لا تُحسد عليها من حيث كونها غامضة، فهي عُرضة على الدوام لأن تُنسب إليها معان مختلفة. بينما نرى الأعداد، في المقابل، بالغة الدقة، محسوسة، ذات حدود واضحة. بالتالي، يُعتبر تحليل المعاني الخفية للأعداد أقل إثارة للمشاكل؛ ولو أنه، من الناحية الفعلية، أكثر إثارة للجدل إلى حد ما.

لا تكمن أهمية الأعداد المبطنة فقط في معناها اللاواعي، إن لها وظيفة أخرى لا تقل شأنًا: فهي توفر بُنيةً وإطاراً محسوساً للتدقيق والتحقق من صحة تحليل اللغة المبطنة. تلعب الأعداد المبطنة دور الخريطة المعرفية، نظام شبكي من نوع ما يساعدنا في العثور على مسار في محيط معاني الكلمات المبطنة.

ونظراً لأن معظم الأشخاص ذوي الاختصاص المهني والناس العاديين، على حد سواء، ينظرون شذراً إلى فكرة كون الأعداد تحمل معنى «رمزياً»، يتطلب الأمر تقديم طريقة لا تتسم بكثير من التعقيد والشمول وذلك بغية القيام بتحليل منهجي، والتحقق من صحة الإصغاء العميق للإشارات العددية في الأحاديث. وعن طريق وضع إطار محسوس للتدقيق والتحقق من صحة الكلام العميق، يُبين لنا هذا الفصل كيف يقوم العقل بإيجاد تركيبة من المعاني المبطنة تتصف بالمنهجية والتماسك لدرجة يصعب تصديقها.

قبل معرفة «الكيفية» التي تحمل فيها الأعداد «معنى» مبطنًا، من المفيد هنا، وأعتقد أنه من الممتع أيضاً، أن نتعرف إلى الكيفية التي كان يُنظر بها إلى الأعداد، عبر التاريخ، على أنها تُعبّر عن معنى رمزي. الهدف الرئيس من إلقاء نظرة سريعة على التاريخ هو إجراء فصل واضح بين تحليلي المبطن للمعنى اللاواعي للأعداد، وبين أي تلميح إلى استخدام الأعداد في السحر والتنجيم في العصرين القديم والحديث أو أي من تلك

التفسيرات الماكرة للأعداد التي تجري غالباً بأسلوب التحليل النفسي. أنا أتحدث هنا عن عمليات معرفية.

نظرة موجزة إلى الأعداد بوصفها تحمل معنى رمزياً خفياً

لم يعترف كل من علم اللغة النفسي psycholinguistics وعلم النفس الخاص باللغة والمعرفة، وهو أوسع مجالاً، بأن الأعداد تحمل معنى يتجاوز الشيء المشار إليه حرفياً في الحديث أو الموضوع الحرفي الذي تشكل الأعداد جزءاً منه: فخمسة تفاحات تعني ببساطة خمس تفاحات، لا أكثر ولا أقل. سأقوم بتصنيف الأدبيات الشحيحة المتعلقة بالمعنى النفسي للأرقام في خمس زمر أساسية. لقد كانت أربع من هذه الزمر، نظراً لخاصيتها الغامضة أو شبه الغامضة، هي المسؤولة عن إهمال العلم للأعداد كمعطيات معرفية صحيحة.

لقد أدّت الطبيعة التي تتسم بالغموض للمقاربات السابقة لمعاني الأعداد، إضافة لغياب منهج مناسب للتحقق يمكن بواسطته إجراء تحليل منهجي للأعداد والبرهنة على صحته، أدّياً، بطبيعة الحال، إلى إحجام أي عالم معرفي «محترم» عن التفكير بإجراء دراسة حول المعنى اللاواعي للأعداد - أعني حتى هذه اللحظة.

المجال الأول الذي يُعنى بالمعنى الأعداد هو المجال الذي سأطلق عليه اسم: «الخفي» mystical أو «الكوني»

cosmological، ويشمل الاعتقاد القديم بالمعاني السرية الخفية للأعداد. كان الفيلسوف وعالم الرياضيات الإغريقي، الذي سبق عصر سقراط، فيثاغوروس (582 - 507 ق.م) هو الذي جاء بهذا الاعتقاد. فقد طُبّق الرياضيات في دراسة الإيقاع الموسيقي harmony والهندسة، وهما العلمان اللذان كان فيثاغوروس يعتقد بأنهما يعكسان تركيبة الكون (هل تذكر نظرية فيثاغوروس التي درسناها في المرحلة الابتدائية: مجموع مربع طول ضلعي المثلث القائم يساوي مربع طول الوتر؟...). يُعتبر فيثاغوروس، عموماً، أول عالم رياضيات، وقد تحولت المدرسة التي أسسها إلى أخوية سرية غامضة. كان أتباعه يؤمنون بتقمص الأرواح كما اكتشفوا العلاقات العددية بين الأنغام الموسيقية والأعداد. كانوا يؤمنون، أيضاً، بأن الأعداد متضمّنة في جوهر كل الأشياء، وبأن كل العلاقات، بما فيها المفاهيم المجردة كالعدالة مثلاً، يمكن التعبير عنها بواسطة الأعداد⁽³⁾.

مع كامل تقديري لفيثاغوروس - ولكل المؤرخين الذين يفوقوني علماً - إلا أنه انطلاقاً من هذا الاعتقاد القديم بالخاصية الخفية للأعداد نشأت جماعات سرية، سواء في العصور الوسطى أو في العصر الحديث، تؤمن بأن للأعداد معانٍ كونية خفية. ويعرف ذلك باسم «استخدام الأعداد في السحر والتنجيم» numerology وهو الاعتقاد بأن لكل عدد معنى

(3) انظر كتاب توبياس دانتزيغ القيم: العدد: لغة العلوم (غاردن سيتي - نيويورك. دوبلدي آنكور، بوكس، 1930).

كونياً. منذ العصور القديمة وحتى عصرنا الحالي، كانت الأعداد ترتبط بالأحرف الهجائية، وبالأسماء وبتواريخ الميلاد وإلى ما هنالك، لدرجة الاعتقاد بأن «روح» كل شخص كانت تحمل رقماً.

المجال الآخر لمعنى الأعداد هو المجال الذي يمكن أن يُطلق عليه اسم الأسطوري mythical ويتضمن معاني الأعداد المستخدمة في الأساطير البدائية والتراث الشعبي، حيث يُعتقد بأن الأعداد تمتلك مغزى كونياً ومغزى محسوساً⁽⁴⁾.

إضافة للمعنيين الخفي والكوني، كان يُعتقد أن للأعداد معنى نفسياً psychological. أحد المجالات هنا هو المجال المسمى بـ «المَرَضِي» pathological، ويتضمن عمليات التفكير الفصامية، حيث يُعتقد غالباً بأن الأعداد تمتلك مغزى شخصياً وكونياً⁽⁵⁾. هناك مجال آخر وهو الرأي القائل بالمعنى «التحليلي النفسي» Psychoanalytic العام للأعداد، ويتضمن دور الأعداد في الأحلام إضافة لتفسيرات أخرى تعتمد التحليل النفسي. تاريخياً، كانت الفكرة القائلة بأن الأعداد تمتلك معنى نفسياً تشغل موقعاً لا بأس به في صلب نظرية التحليل النفسي،

(4) انظر مثلاً ي. كاسيرير، «التفكير الميثولوجي» (لندن: ييل يونيفرسيتي برس، 1955).

(5) من أجل أمثلة على الاستخدام الباثولوجي للأعداد في الفصام، انظر كتاب كاسانين القيم، ج. س. كاسانين، تحرير، «لغة وأفكار الفصام» (نيويورك: و. و. نورتون، 1964).

فبالإضافة لفرويد، هناك محللون نفسانيون آخرون ممن لاحظوا وجود أمثلة على أن للأعداد معانٍ رمزية⁽⁶⁾. لكن تفسيراتهم، عموماً، كانت تأخذ منحى يفيد بأن للأعداد معانٍ رمزية شاملة universal. فالعدد (5) على سبيل المثال، قيل بأنه يُمثّل التكامل النفسي. إن الأمثلة المستقاة من هذا الأسلوب في المقاربة لا تتميز بقلة عددها فقط، بل إن تحليلها قد جرى بواسطة تداعيات حرة لا يحدها قيد، قام فيها المحلل بوضع القواعد الخاصة بالربط والتحويل والانتقاء والجمع والضرب والطرح، وذلك حسب ما ارتآه مناسباً نتيجةً حَدْسه. فالمحلل النفسي إميل غوثيل⁽⁷⁾، مثلاً، يقول أن الرقم (3) معادلٌ للأعضاء الذكورية. هناك محللون آخرون يخلعون على الأعداد معانٍ تركز على أساس التشابه في الأصوات، الرقم fifty (50) مثلاً، يعادل filthy (بذيء).

إذا ابتعدنا عن مجال استخدام الأعداد في السحر والتنجيم، نرى أن فرويد في كتاب «تفسير الأحلام»⁽⁸⁾ كان أول

(6) ن. فودور «علم نفس الأعداد»، 8 Journal of Clinical Psychopathology

525-556 : (1947) س. ج. يونغ، «الأحلام» ترجمة ر. ف. س. هال

(فرنستون، نيو جيرسي، فرنستون يونيفرسيتي برس، (1974)، و. ستيكيل، «تفسير الأحلام»، (نيويورك، ليفرايت، 1943).

(7) ي. غوثيل، «مبادئ تحليل الأحلام» (نيويورك، ليفرايت، 1951).

(8) س. فرويد، «تفسير الأحلام»، الطبعة الإنكليزية الأولى (لندن: جورج آلين آند أنوين ليمتد، 1954).

من اكتشاف أن للأعداد معنى نفسياً. لكن بما أن هدفه اتسم أساساً بطابع علاجي، يبدو أنه لم يول اهتماماً زائداً بفكرة أن للأعداد مغزى معرفياً حقيقياً خارج نطاق قيامها بتمثيل الأفكار الواردة في الأحلام. تُعتبر نتائج أبحاث فرويد محدودة فيما يخص طريقة التعرف إلى أهداف تلك الأعداد ومعانيها اللاواعية، وذلك بسبب مواطن ضعف منهجية جدية إضافة لقلة عدد الأمثلة. كان النهج الذي اتبعه فرويد للتحقق من صحة المعاني اللاواعية للأعداد يأخذ طابع التداعيات الحرة الطليقة من كل قيد. وقد لاحظنا فيما سبق أنه كان هناك اعتقاد سائد، سبق فرويد بفترة طويلة، بأن للأعداد معان دينية وكونية، لكن محاولة فرويد تحليل تلك المعاني من منظور التحليل النفسي تُعتبر رائدة في هذا المضمار.

هناك مجال معرفي أكثر حداثة يمكن أن نطلق عليه اسم مجال الاصطفاء الترابطي associative selection يشمل بضعة دراسات علمية إحصائية تتناول التداعي⁽⁹⁾، هنا لا يُسبب للأعداد أي معنى نفسي. أخيراً، تُظهر نتائج الأبحاث التي أجريتها أن الأعداد لا تقتصر على كونها تحمل معان لا واعية، تعكس الهموم الآتية في الأحاديث الاجتماعية، بل إنها، بالإضافة لذلك، تستخدم عمليات معرفية تتسم ببعض التعقيد.

(9) انظر، مثلاً، ر. ن. شيفارد، د. و. كيلباتريك، ج. ب. كانيغهام، «التمثيل الداخلي للأعداد»، علم النفس المعرفي 7 (1975): 82 - 138.

الأعداد في الذهن

بدل تقديم قصص تضم عدة أعداد مأخوذة من أحاديث مختلفة، سأقدم عوض ذلك، عدة إشارات إلى عدد واحد مبطن أُخِذَتْ من حديث واحد مستمر. السبب هو أن تقديم أمثلة كثيرة من حديث واحد يسمح لي بإظهار الكيفية التي ترتبط بها الأعداد بشكل بنيوي متكامل مع جوانب مبطنة أخرى من الحديث. كما أن ذلك يُمكنني من تقديم برهان بسيط على نجاح الطريقة التي اتبعتها للتحقق من صحة النتائج، ويسمح لي، إضافة لما سبق، بأن أُبين لكم كيف يمكن للأعداد المبطنة أن تساعد في التحقق من صحة الإصغاء العميق لما قد يبدو مجرد كلمات وتعبيرات وجمل حرفية. قد يبدو تحليل الأعداد مخادعاً أحياناً، أسألكم قليلاً من الصبر فالأمر يستحق ذلك.

التحليل التالي للأعداد يتناول مجموعة فرعية كانت تشترك في حديث جرى بين أفراد إحدى المجموعات التي عملت بها. تميّز الحديث بتكرار الرقم (3) في عدة أفكار وقصص روتها المجموعة خلال الحديث. كان عدد القصص (13) قصة، قمت أنا بتقسيمها إلى أربع مجموعات. إن الأساليب المتنوعة لاستخدام الرقم (3) تعكس بمجموعها شعوراً أساسياً بقلق عاطفي يحسُّ به المشاركون المسالمون في النقاش إزاء الأفراد الثلاثة المهيمنين، وهي مشاعر تعكس الغيرة والتنافس بين الزملاء كما تعكس الخلاف القائم بشأن كيفية إدارة المجموعة. الواقع أن القصص جميعها تشكّل فكرة لا واعية واحدة تركز

على شعور واحد بقلق عاطفي إزاء الأفراد الثلاثة المهيمنين في المجموعة. سأطلق على هؤلاء الأفراد الثلاثة اسم «الثلاثي Triad».

الموضوع العددي الأساسي للعدد (3) هو مجرد عدد واحد، من بين مجموعة من الأعداد الواردة في نفس الحديث، ينطبق بشكل مبطن على عدد أعضاء المجموعات الفرعية التي ينقسم إليها الحضور حسب نوع العضوية وتتضمن، بالإضافة لي، إثني عشر شخصاً كانوا موجودين في تلك الجلسة، أي أن مجموعنا كان ثلاثة عشر شخصاً. إذا جزأنا هذا العدد، نرى أن نوع العضوية يتوزع كالتالي: سيدة واحدة متقدمة في السن، بالغة الحيوية و10 شابات (بين الثامنة عشرة والعشرين من العمر)، أي أن المجموع هو 11 سيدة. خمس من الشابات، إضافة للسيدة المتقدمة في السن، كن يتمتعن بالحيوية، أي أن المجموع 6 سيدات يتمتعن بالحيوية. كان مجموع الأفراد الذين يتمتعون بالحيوية هو 7، إذا أُضِفْتُ أنا يصبح المجموع 8 أفراد. كان هناك رجلان، بالإضافة لي. خلال المناقشات التي كانت تجري بين أفراد هذه المجموعة، كان هناك ثلاثة أشخاص يهيمنون على الحديث: رجل متقدم قليلاً في السن، وسيدة متقدمة في السن وأنا.

تناولت الأفكار العامة التي وردت في المناقشات خلال الجلسة موضوع الحانات وشرب الكحول والسكر، وقد اكتسبت هذه الأفكار أهمية مع مرور الوقت خلال الجلسة. بإمكانني

الآن، بعد تقديم هذا الشرح، أن أبدأ بإيضاح الأفكار الثلاثية Triadic الثلاثة عشرة المحددة.

يتعين علي أن أشير هنا إلى أن هناك أعداداً أخرى ورد ذكرها في الجلسة. تشكل هذه الأعداد، مع الرقم 3، مصفوفة Matrix شديدة التعقيد من الموضوعات المترابطة بشكل متكامل والمتعلقة بالأعداد والمفردات. تلعب هذه المصفوفة من العلاقات بين الأعداد دوراً بارزاً في عملية إثبات صحة الفكرة. كما أنها تشكل منظومة من العلاقات المتشابكة بين الأعداد لم تكن لتوجد لو كانت الأعداد مجرد مصادفة أو كانت تخلو من المعنى المبطن. هذه المنظومة هي جوهر الطريقة التي أتبعها للتحقق من صحة الفكرة.

سأقتصر في هذا الفصل بشكل أساسي، على العدد (3) لأن تناول الأعداد الأخرى يُكسِبُ الأمرَ طابعاً تقنياً مُضنياً، رغم أن من الواجب شرح بعض الأعداد الأخرى التي ترتبط معه بعلاقات متكاملة.

توضيح الكلام العميق المتعلق بالأعداد

قضيت فترة طويلة بذلت فيها مجهوداً شاقاً بغية التوصل إلى أسلوبٍ لتقديم تلك الأعداد المبطنة، لأنني لو قدمت منهجي بالكامل لبدا بالغ التعقيد. لكنني، من ناحية أخرى، إذا لم أقدم ما يساعد على التحقق من صحة الفكرة، لبَدَتْ الأعداد لا مجرد اعتباطية فحسب، بل لبدت أغرب من أن تعبّر عنها الكلمات.

إن تقديم الأعداد بتفصيل أكبر سيؤدي إلى إرهاق تفكيركم بأكثر مما يتطلبه إيضاح المعاني المبطنة لتلك الأعداد، لأنني أعرف أن تتبّع تلك المصنوفة الشاملة من الأعداد المبطنة لا يزال يرهق فكري حتى بعد كل تلك السنين.

المقطع التالي، المُقسّم إلى أربعة أجزاء، يقدّم ملخصاً نهائياً لكلٍ من الأفكار الثلاث عشرة التي تشمل العدد (3):

1 - (1) نحن قمنا بتقليص عدد الخيارات إلى «3 خيارات مختلفة»⁽¹⁰⁾

(2) حانة «المواقع الثلاثة المحظوظة»⁽¹¹⁾

(10) الفكرة الحرفية «نحن قمنا بتقليص عدد الخيارات إلى 3 خيارات مختلفة» تشير بشكل مبطن إلى ظهور ثلاثة أفراد مهمين. من وجهة النظر اللغوية النفسية، من المهم أن نلاحظ هنا أن الشخص الذي يقوم برواية القصة هو أحد أفراد هذا الثلاثي، كما تدل القصة الحرفية «نحن» (وتعني بشكل مبطن الأفراد الثلاثة المهمين) «قمنا بتقليص عدد الخيارات» (ويعني بذلك جميع أفراد المجموعة) إلى 3 «خيارات» (ويعني ظهور ثلاثة أفراد مهمين). لو أن أفراداً آخرين غير أولئك الثلاثة طرحوا هذه الفكرة مستخدمين نفس الكلمات «نحن قمنا بتقليص» لما اعتُبرت الفكرة منسجمة مع الموقف في تلك اللحظة لأن هؤلاء لا سلطان لهم على الأفكار التي كانت تُناقش ضمن المجموعة، بالتالي، فهم لم يقوموا بتقليص عدد قادة المجموعة إلى ثلاثة أشخاص. هذا ما أدعوه أنا بصحة القياس النفسي للعلاقات الاجتماعية Psychosociometric (انظر «بين السطور» الملحق).

(11) عبارة «المواقع المحظوظة» تحمل شرعية لغوية لأنها تستخدم عادة بشكل أو بآخر للإشارة إلى مواقع مرغوبة من المكانة الاجتماعية. كما أن كون الحانة تحمل اسم «المواقع الثلاثة المحظوظة» يُعتبر أيضاً ذا =

- (3) منذ «ثلاثة أسابيع» تقريباً
- (4) بدأ تساقط الثلج «قبل ثلاث ساعات»
- (5) كان «المسار الثالث stream 3rd» يلعب
- (6) يمكن لعامل البار أن يرفض تقديم الشراب إذا كان قد سبق له أن قدم لك، مثلاً، «ثلاثة كؤوس»⁽¹²⁾
- (7) «في اليوم الثالث قالوا: «سنستقل الحافلة جميعاً»⁽¹³⁾.

= مغزى. يفرض المنطق أن تكون الفكرة مرتبطة في نفس الوقت مع كل من الجزء (أي أحد أفراد المجموعة) والمجموعة بكاملها (أي الحانة). بعبارة أخرى، العدد (3) ليس مجرد عدد معزول، إنه مرتبط بالمجموعة، بالحنة، مثلما أن القادة الثلاثة هم جزء من المجموعة. مرة أخرى، تسم القصة بصحة القياس النفسي للعلاقات الاجتماعية. الإشارة إلى «المواقع المحظوظة» في اسم الحانة هو رابطة إضافية تعتمد على الدلالات اللفظية تتوافق بشكل مبطن مع مكانة الأفراد المهيمنين الثلاثة الذين كانوا هم القادة. القلق الذي يعانیه أفراد المجموعة يتعلق بتقييمهم في ما يخص أسلوب قيادتهم ومهاراتهم في التواصل وتكوين العلاقات. نرى هنا، في هذا الموقف، أن الأفراد الثلاثة الذين يشغلون المواقع المحظوظة الثلاثة قد حصلوا، برأي أفراد المجموعة، على درجات عالية لدى التقييم.

(12) ما يشير الاهتمام هنا هو التساؤل عن السبب الذي دعا الشخص الذي قال هذه العبارة لاختيار رقم (3) كؤوس وهو يعني الإفراط في الشراب. فهذا العدد لا يدل بالتأكيد على الإفراط في الشراب، وخاصة لدى الشباب. هذا العدد الذي تم اختياره للإشارة إلى الإفراط في الشراب لا يعتبر معيارياً كما أنه بالغ التطرف لدرجة أنه يقوم بدور الدليل على أن هناك أمراً مبطناً يأخذ مجراه.

(13) عبارة «اليوم الثالث» هي إشارة أخرى إلى الثلاثي، وهي تضم (كالأفكار التي سبقتها) وحدة أكبر، «الحافلة»، التي تمثل بقية أفراد المجموعة.

- 2 - (8) «ثلاثة أشخاص من بين العشرة» (الذين جاؤوا إلى الحانة) كانوا سكارى فعلاً... ورفضوا أن يقدموا شيئاً لأي منهم They Wouldnt Serve an of Them .
- 3 - (9) «ثلاثة من طلاب السنة النهائية seniors سَكِرُوا في الطائرة أثناء رحلة مع المدرسة»⁽¹⁴⁾.
- (10) «ثلاث حافلات قديمة old من طراز GreyHound نقلت الناس من المطار»⁽¹⁵⁾.
- 4 - (11) «لأنهم كانوا «دون الحادية والعشرين من العمر» . (12) رجال مكافحة المشروبات الكحولية LCB قادمون خلال أسبوعين أو «ثلاثة أسابيع» .
- (13) هذه «الفتاة التي كانت بصحبة هذين الرجلين» .
- إن نظرة عامة نلقيها على هذه المواضيع الثلاثة عشرة تُظهر

(14) مرة أخرى يتوافق العدد (3) في هذه الفكرة مع تركيبة القيادة الفعلية ضمن المجموعة، مع كون العدد (3) يشكل جزءاً من مجموعة أكبر (المجموع). وكالأشخاص الثلاثة في الحانة، فقد «طلاب السنة النهائية الثلاثة» نفوذهم وطردوا. من الناحية العاطفية، كان بقية أفراد المجموعة يرحبون بإبعاد ذلك الثلاثي الذي كان يتهدهدهم. نرى هنا مرة أخرى، من منظور القياس النفسي للعلاقات الاجتماعية أن الشخص الذي روى القصة لم يكن أحد أفراد الثلاثي، الذين تعرضوا للانتقاد المبطن عن طريق تلك القصة .

(15) مثل بقية الأفكار التي تعبر عن الثلاثي الموجود ضمن المجموعة، «الحافلات القديمة الثلاث» تنطبق ليس فقط على الثلاثي، بل إنها أيضاً تشكل جزءاً من كل أكبر، أي أن الحافلات الثلاث كانت جزءاً من منظومة مطار .

العدد (3) إلى جانب أعداد أخرى ترتبط به بشكل متكامل .
المواضيع الثلاثة عشرة جميعاً هي إشارات مبطنة إلى الأشخاص
الثلاثة الذين يستأثرون بالحديث . (انظر الشكل 7-1)

من المهم أن ندرك هنا أن تلك «المواضيع العددية»
مأخوذة من نص منقول عن تسجيل للجلسة التي جاءت منها
الأرقام، لقد مكّنتني هذا من القيام بتفسير منهجي لكل مرة
استُخدِم فيها العدد أثناء الحديث وللسياق الدقيق الذي ورد فيه
العدد، الأمر الذي يُعتبر بدوره مهماً لأنه يُبعد احتمال الميل
لاختيار أعداد بعينها بغية تحميلها بالمعاني .

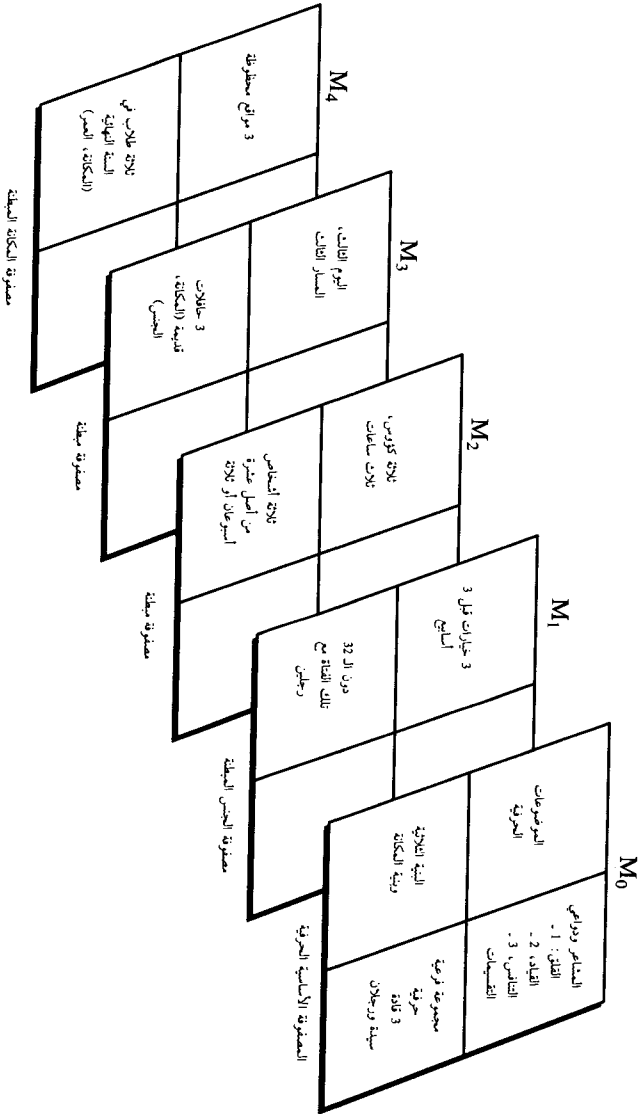
أود أن أنبهكم إلى ما يلي : إن التحليل التالي، الذي يُعتبر
واضحاً إلى حد ما، للمعنى المبطن للأعداد المذكورة، قد لا
يَتَّسِم بالسهولة، لذا، عليكم التمسك جيداً بتوازنكم الفكري (قد
ينتهي بكم الأمر للاعتقاد بأنني شخصياً قد فقدت توازني
الفكري). لنبدأ الآن .

خلاصة «الأعداد في الذهن»

القصص 1 - 7 : القصص السبع الأولى هي إشارات مبطنة
بسيطة نسبياً إلى الأشخاص الثلاثة المهيمنين . (لمزيد من
التحليلات، يمكنك مراجعة الملاحظات الخاصة بكل
موضوع).

القصة 8 : هذه القصة التي تحكي عن «3 أشخاص من بين
العشرة (الذين جاؤوا إلى الحانة) كانوا سكارى فعلاً...

الشكل 7 - 1: مخطط مصفوفة قصص الأعداد المربكة.



ورفضوا أن يقدموا شيئاً لأي منهم» تستحق مزيداً من الاهتمام، شأن بقية القصص.

مغزى هذه الأعداد الحرفية هو إظهار الترابط المتكامل بين العدد الأساسي (3) ومجموعة فرعية أخرى. الرقم (10) يطابق الشابات العشر ضمن المجموعة. إذا أضفنا (3) إلى العدد (10) يصبح المجموع (13). مغزى العدد (13) هو في أنه يطابق العدد الدقيق للأشخاص الموجودين في المجموعة ذلك اليوم، بمن فيهم أنا. عند المستوى الحرفي، الرقم (3) مُتَضَمَّنٌ في المجموع (10) (أي 3 من أصل 10 أشخاص)، لكن عند مستوى التفكير المبطن، العددين منفصلان، وبالتالي مجموعهما 13.

التركيب الحسابي الحرفي للعدد (3) بوصفه جزءاً من العدد (10) لا يمكن له أن يناسب المعنى المبطن المضاف إلى العدد الكلي لأفراد المجموعة. بعبارة أخرى، إن قول جملة مثل «ثلاثة أشخاص جاؤوا وجلسوا مع سبعة آخرين في الحانة مما جعل مجموعهم عشرة أشخاص» سيحول دون الجمع المبطن للعددين $3 + 10$ ليصبح المجموع (13) شخصاً⁽¹⁶⁾ (انظر الشكل 7-1)

القصتان 9 - 10: يكمن مغزى المجموعة التالية من

(16) بلغة ارتباطات أخرى تحمل طابع التدايعات، فإن عبارة «رفضوا أن يقدموا serve شيئاً لأي منهم، تعتبر كلاماً عميقاً حول حقيقة أن بقية أفراد المجموعة لا يقبلون قيادة الثلاثي، أي أنهم لن يخدموهم serve كأتباع».

القصص (9) «ثلاثة من طلاب السنة النهائية seniors سَكِرُوا (في الطائرة أثناء رحلة مع المدرسة) و (10) (ثلاث حافلات قديمة old من طراز Grey Hound نقلت الناس من المطار)، يكمن في استخدام كلمتي senior & old لتطبقا بشكل مبطن على اختلاف أعمار أفراد الثلاثي triad، المؤلف مني ومن سيدة متقدمة في السن ومن رجل كان أكبر قليلاً من بقية السيدات الموجودات ضمن أفراد المجموعة.

القصص 11 - 13: هذه القصص تحمل تعقيداً عددياً أكبر بكثير وهو تعقيد معبر من الناحية المنهجية. (11) «عبارة دون الحادية والعشرين من العمر» هي قصة حرفية تحكي عن كون الفرد أصغر من أن يُسمح له قانونياً بشرب الكحول، وكما في حالات الإشارات الواضحة إلى الثلاثي بواسطة الرقم (3)، فإن هذه العبارة تشير بشكل مبطن إلى الثلاثي. يمكن توضيح ذلك بفصل الرقم (21) إلى عددين ثم جمعهما معاً: $2 + 1 = 3$. يضاف إلى ذلك أن استخدام كلمة دون under في فكرة «دون الحادية والعشرين (21) من العمر» - 21 هنا هي الثلاثي - يشير إلى حقيقة كون المجموعة واقعة تحت under تأثير الثلاثي. لكن الأمر يذهب إلى أعمق من ذلك. أعمق بكثير.

إن الإشارة إلى الرقم (21) تقسم الثلاثي إلى مكُوناته المناسبة العددية منها والجنسية، العدد (2) يشير بشكل مبطن إلى الرجلين والعدد (1) يشير بشكل مبطن أيضاً إلى السيدة

المتقدمة في السن⁽¹⁷⁾. قد تتساءلون لماذا لا يمكن للعدد (2) أن يمثل السيدة والمدرّب المتقدم في السن، وللعدد (1) أن يمثل الشاب. هذا ممكن وإن كان بعيد الاحتمال. أولاً، لقد اكتشفت أنه عندما يكون شخصان من نفس الجنس ضمن مجموعة فرعية ما، فإنه عادة ما يشار إليهما بعدد واحد، فالإشارة إلى سيدة ورجل بعدد واحد ضمن سياق كهذا يعتبر أمراً مستبعداً. ثانياً، هذا التوزيع المحدد إلى مجموعات بحسب الجنس يتماشى مع قصتين أخريين وردتا في تلك الجلسة، قصتان يجب أن تؤخذاً بالاعتبار، قبل القيام باستبعاد الجانب المتعلق بالجنس والتوزيع إلى مجموعات من العدد (21)، بحجة أنه مبالغ في التفسير.

لنأخذ القصة رقم (12)، «رجال مكافحة المشروبات الكحولية LCB قادمون خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع». نرى هنا مرة أخرى وجود إشارة مبطنة إلى الثلاثي الذي تم تقسيمه عددياً إلى مجموعاته الفرعية الصحيحة، لكن في هذه المرة دُكرت المجموعة الفرعية المؤلفة من رجلين بشكل مبطن دون

(17) عند مستوى آخر، تعتبر عبارة «دون الحادية والعشرين من العمر» إشارة مبطنة إلى بقية أفراد المجموعة، الذين كانوا جميعاً أصغر سناً من القادة الثلاثة، أي أنهم كانوا، حرفياً، دون الحادية والعشرين». وكبرهان جزئي على صحة هذا التحليل، كانت العبارة المرتبطة مباشرة بهذه العبارة هي «كان أكثر من نصف العدد دون السن القانوني». كما في القصة الحرفية، كان عدد الشابات يشكل الأغلبية وكن دون الحادية والعشرين من العمر.

ذُكر السيدة وذلك في تعبير «أسبوعين» الذي ورد في القصة، كما جرت إضافة السيدة بشكل مبطن فقط لدى الإشارة إلى الثلاثي بكامله وذلك في تعبير «ثلاثة أسابيع». هناك أيضاً احتمال بأن تكون الكلمة المركبة من ثلاثة أحرف أولية LCB، وهي إشارة حرفية إلى لجنة مكافحة المشروبات الكحولية Liquor Control Board، أن تكون إشارة مبطنة إلى بُنية الثلاثي، بما أن اللجنة المذكورة تُمثل السلطة. لن ألح كثيراً على الفكرة الأخيرة رغم أن لدي معطيات مماثلة أخرى تُبيّن أن الكلمات المركبة من الأحرف الأولية يمكن أن تُستخدَم بأسلوب مبطن.

أخيراً، الأعداد في القصة (13) «هذه الفتاة (1) التي كانت بصحبة هذين الرجلين»، شأن الأمثلة التي سبقتها، لا تكفي بأن مجموعها هو (3) بالتالي فهي تشير عددياً إلى الثلاثي بأسلوب مبطن، لكنها أيضاً، شأن القصة المتعلقة بالأشخاص دون الواحدة والعشرين من العمر (أي $2+1=3$)، تشير إلى الجنس في الثلاثي الذي يجري الحديث عنه، لكن هذه المرة بشكل واضح وذلك عن طريق استخدام كلمتي «فتاة» و«رجلين». الفتاة، وهي واحدة، تمثل السيدة المتقدمة في السن والرجلان، وهما إثنان، يمثلان الرجلين ضمن الثلاثي⁽¹⁸⁾.

(18) إن اختيار الكلمات لهذه الفكرة يكتسب أهمية خاصة كما يكشف عن معان مبطنة. لاحظ استخدام أسماء الإشارة في العبارة «هذه الفتاة التي كانت بصحبة هذين الرجلين»، إن استخدام «هذه» و«هذين» يدل على أن الأشخاص الذين يجري الحديث عنهم موجودين فهو لم يقل «تلك» =

قد تتساءلون، مرة أخرى، لماذا أشير إلى السيدة المتقدمة في السن باسم الفتاة، خاصة وأن الإشارة الحرفية إلى seniors و old، في القصتين (9) و (10) كانت تعبر بدقة عن العمر المتقدم للأشخاص الذين كانت تجري الإشارة إليهم بشكل مبطن. باختصار، لقد اكتشفت أن الكلمات قد تستعمل أحياناً بمدلولها الجنسي generically، أي أن الكلمات من نوع «فتاة» تُستخدم ببساطة كإشارة إلى جنس لا إلى عمر معين. يقوم السياق، الذي تجري الإشارة ضمنه، يقوم عادة بتحديد الحالات التي يجري فيها استعمال كلمة ما بمدلولها الجنسي.

لا بد وأنه قد أصبح من الواضح الآن أنه بالرغم من ثبات التركيبة اللغوية للكلام العميق وخضوعها للقواعد، إلا أن القواعد غالباً ما يحددها السياق الذي تُستخدم ضمنه. النقطة المهمة هنا هي أن القواعد تُطبّق بشكل ثابت لا يتغير. إذا ظهر أحياناً وكأن هناك تضارباً أو تناقضاً، فالسبب على الأرجح هو أنني لم أكتشف كل القواعد بعد. وإذا ظهرت القواعد غريبة أحياناً، فالسبب هو أن تفكير الطبيعة يختلف عن تفكير عالم المنطق (انظر الشكل 1-7).

إذا كنتَ حتى هذه اللحظة لا تزال تمنع التفكير دون أن

= «أولئك». إن تغيير الزمن هذا يربط القصة من الناحيتين النفسية واللغوية بالموقف الذي يجري فيه الحديث في تلك اللحظة. بالإمكان التعبير بطرق لا حصر لها، مثلاً، كان بإمكانه أن يقول: «كانت هناك فتاة مع رجلين»، وإلى ما هنالك.

تتجانس الأفكار في ذهنك، فإنه ما يزال لدي بعض الملاحظات المثيرة للاهتمام وذلك بخصوص الإشارات المبطنة الثلاث عشرة إلى تركيبة القيادة الثلاثية في الأحاديث التي سبق ذكرها. الملاحظة الأولى، أن العدد الكلي للموضوعات، وهو (13)، قد يمثل الأشخاص الثلاثة عشر الموجودين ضمن المجموعة في ذلك اليوم (بمن فيهم أنا)⁽¹⁹⁾.

الملاحظة الثانية، إذا استثنينا الموضوعين الأولين، اللذين أثارهما الرجل الموجود ضمن المجموعة، نرى أن عدد الموضوعات الباقية، وهو (11)، يساوي العدد الكلي للسيدات الموجودات ضمن المجموعة. من وجهة النظر المنهجية، تُعتبر إثارة كل الموضوعات البالغ عددها (11) موضوعاً، من قبل سيدات، أمراً يثير الاهتمام. السؤال هو، هل من قبيل الصدفة أن يكون العدد الكلي للموضوعات، وهو (13)، يساوي عدد

(19) كانت هناك إشارات أخرى إلى الرقم (3) وردت في المذكرة الخاصة بهذه الجلسة. لم استخدم تلك الإشارات وذلك لتبسيط الأمور، لكن استخدامها على أية حال لم يكن ليغير معنى الإشارات التي استخدمتها. الإشارات العددية الأخرى كانت ما أدعوه بالأعداد المزدوجة مثل (33) و(30)، لو أنني لجأت لاستخدامها لكان العدد الكلي لأفكار المجموعة ولأفراد المجموعة هو (16)، لا (13). لم يكن ذلك ليغير تحليلي الأساسي للأعداد لأنه كان سيشكل إشارة إلى العدد الكلي لأفراد المجموعة، بمن فيهم الأفراد الثلاثة الغائبون. أود هنا أن أشير إلى أن هذه الحقيقة قد تدعم تحليلي التجريبي للأفكار التي يبلغ عددها (13) أي أنها تساوي عدد الأفراد (الحاضرين) الـ(13)، لأن إضافة الإشارات العددية الإضافية ستنتهي بالنتيجة ذاتها.

الأفراد الثلاثة عشر الموجودين ضمن المجموعة وأن عدد القصص الإحدى عشرة - التي رَوَّتها السيدات الشابات - يساوي تماماً عدد السيدات الموجودات ضمن المجموعة. ربما كان صدفة. نظراً لافتقاري إلى أمثلة أخرى كهذه مأخوذة من مجموعات أخرى، أميل للتسليم بأن هذا التحليل قد يكون من قبيل الصدفة، رغم أننا إذا أخذنا بالاعتبار الطبيعة المُحكَّمة للنتيجتين المبطنتين يصبح من المنطقي أن نفترض بأن النتيجةين المذكورتين واقعيتين.

أما فيما يخص كون الإشارات العددية للعدد (3) هو محض صدفة، فله شأن آخر. هل يمكنكم أن تؤكدوا بشكل جدي أن العبارات الثلاث عشرة، التي تحوي الرقم 3، ليست عبارات مبطنة تتعلق بالتركيبة القيادية الثلاثية للمجموعة؟... لا أعتقد. أتصور، على الأقل، أن اتخاذ مثل هذا الموقف لا يُعتبر أمراً منطقيّاً.

إذا استرجعنا القصص الثلاث عشرة والعلاقات التي تربط فيما بينها، يتضح لنا أن الحصول على هذه السلسلة من الأعداد المُتَّسقة والمتكاملة بنيوياً، يتطلب تحديد موقع كل تمثيل representation عددي، إضافة لتحديد جوانبه الأخرى المترابطة بشكل وثيق والمعاني المطابقة له، وأن يجري تعقب مساره وترتيبه بشكل منهجي عند عدة مستويات من المعنى وعبر التغيرات الكثيرة الحاصلة على القصة، وهي تغيرات تظل ثابتة فيما يخص الصفات المميزة المحددة (العمر والجنس على سبيل

(المثال)، والتغيرات الحاصلة على المعاني.

إضافة لما سبق، يجب أن تتوافر مجموعة من العمليات الأساسية التي تقوم بأداء وظيفتها بحيث يبدو كما لو أن هناك مجموعة من قواعد التحويل transformation rules تقوم بإحداث هذا الثبات في المشاعر وفي المعنى. كيف يمكن لكل ذلك أن يحدث من وجهة نظر علم الجملة العصبية neurologically، أعترف بأنني لا أعرف (رغم أنني أسعى لمعرفة ذلك). لكن الواقع أن هذه العمليات المعرفية تحدث فعلاً.

إذا كان الكلام العميق المذكور في الفصول السابقة قد بدا لكم غريباً لكنكم رغبتم، رغم ذلك، في التغاضي مؤقتاً عن أحكامكم المسبقة، فإن هذا الفصل الذي يتناول الأعداد المبطنة ربما يكون قد أفقدكم الصبر. أنا لا ألوكمم بالفكرة عميقة، بل شديدة العمق. فأننا، بعد كل تلك السنوات من التعامل مع هذه المادة، أنظر أحياناً إلى كل تلك العمليات المعرفية المعقدة التي كنت أكتشفها بشكل مستمر وأقول لنفسي: «لألتقط أنفاسي برهة». لكن الواقع هو أن عليّ أن أصدّق ما توحى به الأدلة، ليس فقط انطلاقاً من طريقتي المنهجية في التحقق من صحة الفكرة، بل انطلاقاً من العمليات المعرفية واللغوية المماثلة التي تؤكد ما توصلت إليه والتي يمكن أن نصادفها في الأحلام والقصص الأسطورية البدائية وفي أعمال الشعراء العظام.

قال الفيلسوف الألماني المعروف مارتن هيدغر (1889-

(1976) أن كل شاعر يضفي شاعرية على أعماله poetizes انطلاقاً من قصيدة واحدة⁽²⁰⁾. يمكن القول، إذًا، إن عمل أي شاعر أو رسام أو نحّات أو روائي ينبثق من أعماق كينونته Being، وإن الأعمال الكاملة للفنان هي نتاج، أو تشكيلات متنوعة، لإحساس أو فكرة أساسيتين. وعلى النحو ذاته، يأخذ حديث ما طابعه انطلاقاً من هم واحد يشغل البال. (ما هي «القصيدة» اللاواعية التي نشأ عنها هذا الكتاب، لا يمكنني معرفة ذلك).

(20) دُكرت في ر. بالمر، Hermeneutics إيفانستون، إيلينوي: نورث ويسترن يونيفرسيتي برس، (1969)، 140.



الجنس والنوع: النساء تحت تأثير السيطرة

«قال الملك: إذا لم يكن لذلك أي معنى، فإن هذا سيُجَنَّبنا
متاعب كثيرة لأننا لن نضطر لمحاولة العثور على معنى».

لويس كارول
أليس في بلاد العجائب⁽¹⁾

لعلنا لا نفصح سرّاً إذا قلنا أن أحد أكثر الهموم الإنسانية
إلحاحاً، لدى تواجد النساء والرجال سوية، هو التوتر الجنسي.
نحن لم نكن، بطبيعة الحال، ننتظر فرويد كي يخبرنا أنه حيث
يتواجد الذكور والإناث يتواجد التوتر الجنسي. وخلافاً للأفكار
الشائعة في علم النفس، فإن تلك الهموم، في أساسها، تتسم
بطبيعة داروينية أكثر منها فرويدية. لقد أوضح لنا تشارلز داروين

(1) ل. كارول، «أليس في بلاد العجائب»، الفصل السابع.

أن الجنس يلعب دوراً أساسياً في بقائنا كنوع. ومع أن ذلك يبدو واضحاً بما فيه الكفاية، إلا أنني لا أعتقد أننا ندرك، فعلاً، الأعماق العاطفية التي تقبع فيها تلك الهموم على الدوام لتُخفى عن الأنظار.

هناك محرّمات راسخة موجودة في معظم المواقف الاجتماعية تمنع التعبير المباشر عن الأحاسيس الجنسية. بالإضافة لتلك المحرمات، هناك أيضاً قواعد بيولوجية واجتماعية معقدة تحدد «لعبة التزاوج». بالتالي، إذا أخذنا بالاعتبار وجود تلك القوى الأساسية والاجتماعية، يصبح من الطبيعي أن تشكّل الأحاسيسُ والمواقفُ الواعية المتعلقة بالجنس بعضاً من أعنف القوى التي يتولد عنها الكلام العميق. بعض تلك الأحاسيس الجنسية يكون لا واعياً، وبعضها واع، وهناك جزء يتم إخفاؤه، بكل بساطة، عن أنظار المجتمع. كما أن بعضها يكون واقعياً، وبعضها نموذجٌ نمطي. إذا أصغينا للمعاني المبطّنة، فإننا نتمكن، في غالب الأحيان، من التقاط تلك التوترات والمشاكل والمُدركات الجنسية الخفية. كما أن الإصغاء العميق لكل القصص والأحاديث يمكن له أن يكون مفيداً وأن يكون مصدراً للمعلومات، فإن الإصغاء بعمق للأحاديث التي تدور بين الجنسين يمكن له أيضاً أن يكون مفيداً للتعرف إلى الديناميكيات الجنسية gender الضمنية التي قد لا تتضح بطريقة أخرى.

النساء تحت تأثير السيطرة

تُعتبر مسألة الهيمنة الاجتماعية والجنسية إحدى الهموم الملحة التي تتواجد لدى اجتماع الرجال والنساء. يعتمد هذا التوازن النسبي للقوة، وتأثيراته في المواقف الاجتماعية، على عدة عوامل تتضمن: نوع الموقف والموضوع الذي تجري مناقشته والأدوار المحددة ونسبة أعداد النساء والرجال الموجودين. إذا أخذنا تاريخ البشرية بالاعتبار، نرى أن الهم الأساسي، أو على الأقل الصريح، يتمحور عادة حول هيمنة الذكور على النساء والسيطرة عليهن.

ضمن إحدى المجموعات التي عملت معها كان هناك رجلان فقط، بالإضافة لي. كان أحدهما يسيطر بحديثه كلياً على الجلسات، وكانت أغلبية أفراد المجموعة، المؤلفة من النساء، تُظهر الاحترام رغم شعورها بالسخط الشديد لعدم قيامي بفرض نظام ما (أي أن الأغلبية ظلت تعتمد على الدور الموكل إليّ). شعر أفراد المجموعة بالاستياء إزاء ما اعتبروه إخفاقاً في التطور نحو تكوين مجموعة متجانسة. عند هذه المرحلة، تغيب أفراد المجموعة في إجازة، لدى عودتهم كان شعورهم بالاستياء تجاه المجموعة قد تنامي. كانت النتيجة أن المجموعة لم تكن تتصرف كوحدة متماسكة حتى أنها لم تستطع أن تستعيد مستوى الأداء الذي كانت قد حققته قبل الانقطاع بسبب الإجازة. شعر أفراد المجموعة بالانزعاج وكانوا غالباً ما يعتذرون لي بأسلوب غير مباشر.

كانت الهموم الآتية الأساسية للمجموعة هي: (1) أن المجموعة قد «ماتت» أثناء الإجازة، (2) هناك محاولة مصطنعة تُبذل لإعادتها إلى الحياة، (3) كانت آراء أفراد المجموعة متضاربة بشأن محاولات إعادة الحياة لمجموعتهم، (4) استمر شعور القلق لدى أفراد المجموعة بشأن مسألة الهيمنة والسيطرة.

دار حديث مطوّل حول فكرة «يبدو أن ما كان يجمعنا قد تبدد»، شعر أفراد المجموعة بأن «مجموعتهم قد ماتت» وعبروا عن مشاعرهم بأن «إحياء المجموعة بعد الإجازة كان أمراً صعباً»، وبأن الأمر يبدو كما لو أنهم «كانوا يحاولون البدء من جديد». بعد مناقشات سريعة لموضوعات عدة استقر مسار الحديث على مناقشة فيلم قديم عرض في التلفزيون يحمل اسم «امرأة تحت تأثير السيطرة». أما الموضوع التالي فكان نقاشاً حول فيلم دكتور فرانكنشتاين. ماذا يمكن أن يكون المعنى المبطن لكل هذا الكلام الحرفي؟... وكيف يمكن الاستفادة منه.

لدى مناقشة فيلم دكتور فرانكنشتاين، جرى الكشف عن عدد من الإشارات المحددة بشكل كلام عميق حول أحاسيس أفراد المجموعة، وبخاصة النساء منهم. كانت التركيبة المبطنة الأساسية كالتالي: الوحش يعادل المجموعة، النقاش الدائر حول الدكتور فرانكنشتاين يعادل إشارة إلي. فأنا، بطبيعة الحال، دكتور. وهكذا، فإن الكلام عن «إعادة الحياة للوحش» هو كلام عميق حول «إحياء المجموعة الميتة»، كما أن القول

بأن «تلك مهمة صعبة حتى بالنسبة للدكتور فرانكنشتاين» يعني أنها «مهمة صعبة حتى بالنسبة لي».

لدى الاستطراد في الكلام عن الدكتور فرانكنشتاين، أضاف أفراد المجموعة أن «العلماء يجب أن يتحلوا بالصبر». نرى هنا كلاماً عميقاً يحمل إشارة مزدوجة. أولاً، عليّ (أي على الدكتور فرانكنشتاين) أن يتحلى بالصبر patience. هذا تلاعب بالكلمات يوحي بأنني، كأني طبيب آخر، يجب أن يكون لدي مرضى patients. كانت تلك الإشارة الأولى في الكلام العميق الدائر حول شعور أفراد المجموعة بأنني كنت «أحاول التأثير فيهم»، وبأنني كنت أقوم بمحاولة مصطنعة لضم أجزاء متفرقة (الأفراد) لأجعل منها كلاً واحداً (المجموعة). بتعبير آخر، إن كان للدكتور فرانكنشتاين (أنا) أن يقوم بتركيب الوحش (المجموعة)، عليه أن يستخدم عدداً من الأجساد مرضى أو أفراد المجموعة).

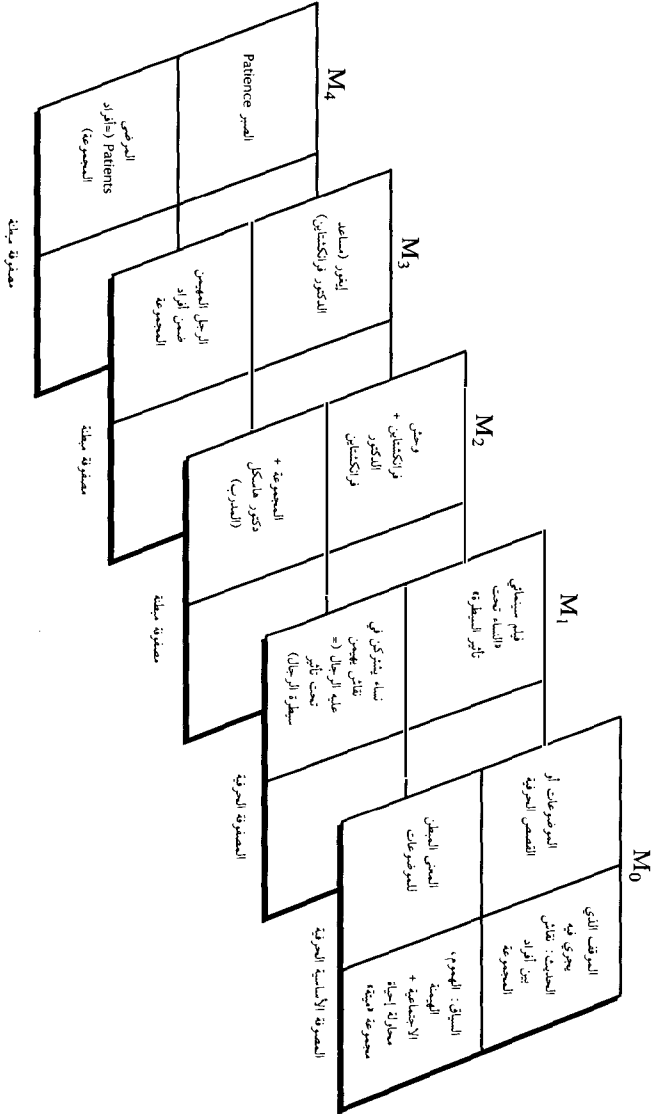
كما دار حديث مفاده أن المجموعة، كالوحش في الفيلم، كان من الواجب أن تتعرض «لصدمة» حتى تعود للحياة. النقطة الأخيرة هي أن «أحد الأفراد الذكور، الذي كان يسيطر على الحديث»، كان يعادل إيغور، مساعد الدكتور فرانكنشتاين (أي مساعدي أنا). بعد أن قدّمت التفسير العام القائل بأن المجموعة هي الوحش وبأنني الدكتور فرانكنشتاين، أشار بعض أفراد المجموعة، مباشرة ولكن على سبيل الدعابة، إلى ذلك الشخص المسيطر بالقول أنه كان «إيغور». يبرهن ذلك على أن

معنى الكلام العميق غالباً ما يكون غير بعيد عن العقل الواعي .

إن القول بأن الأمر يشبه قيامهم «بمحاولة البدء من جديد» يعني أن الأمر يشبه «إعادة الوحش في الفيلم إلى الحياة من جديد»، بالإضافة إلى أن المجموعة والوحش يشبهان الأفلام السينمائية، فهناك من يقوم بإدارتهم وتركيبهم وبالتالي فهم غير طبيعيين، أي مصطنعين. إن فكرتَي «غير طبيعي» و «مصطنع» كثيراً ما تردان في الحديث عن أداء مجموعات التدريب .

أما معنى الكلام العميق حول فيلم «امرأة تحت تأثير السيطرة» فهو الإشارة إلى «النساء ضمن المجموعة اللواتي كن واقعات تحت هيمنة الذكور». (انظر الشكل 8-1). للوهلة الأولى، قد يبدو الفيلمان السينمائيان كما لو أنهما يتحدثان بشكل مبطن عن موضوعين مختلفين، أي أن فيلم «امرأة تحت تأثير السيطرة» كان يعالج مواضيع تتعلق بالجنس gender بشكل مبطن، بينما يعالج فيلم «دكتور فرانكنشتاين»، بشكل مبطن أيضاً، مواضيع أخرى تخص المجموعة ككل. لكن بالنظر إلى أن هذين الفيلمين قد جاء ذكرهما سوية، لابد وأن هناك رابطة نفسية تجمع بينهما. فكما أن فيلم «امرأة تحت تأثير السيطرة» كان يعالج موضوعاً يهم المجموعة وهو فكرة أن الرجلين في المجموعة كانا يهيمنان على غالبية المجموعة المؤلفة من إناث، نرى أن فيلم «دكتور فرانكنشتاين» أيضاً كان يعالج موضوع الهيمنة والجنس. فالدكتور فرانكنشتاين (أي أنا) ومساعدته، إيغور (الذكر الآخر المسيطر)، كانا يهيمنان على الطبيعة

الشكل 8 - 1: مخطط مصفوفة النساء تحت تأثير السيطرة



(الإناث). إذأ، كان كلا الفيلمين يعالجان موضوع الهيمنة على الإناث ضمن المجموعة⁽²⁾.

حول شدة الاعتداد بالنفس cocky

جرت أحداث القصة التالية ضمن مجموعة مؤلفة من آباء أو أمهات عازبين كانوا يجتمعون مرة في الأسبوع لمناقشة المشاكل الناتجة عن كون الفرد أماً أو أباً عازباً. كانت المجموعة تحت إشراف أحد زملائي الذي قام فيما بعد بإجراء تحليل نفسي لها⁽³⁾. كانت إحدى السيدات ضمن المجموعة أماً لابنة وحيدة في السابعة عشرة من العمر، وكانت السيدة كاثوليكية ورعة فقدت زوجها قبل أكثر من سنة. خلال السنوات الأخيرة من زواجها لم تكن هناك علاقة جنسية بين السيدة وزوجها، كما أنها لم تُقِم أية علاقة حميمة منذ وفاة زوجها.

بدأت ابنتها مؤخراً بالخروج مع أحد الشبان بشكل دائم وجدي. أثناء جلسات المجموعة، كانت السيدة تعبر عن قلقها الدائم بشأن احتمال قيام علاقة جنسية بين ابنتها وصديقها واحتمال أن تحمل الفتاة، كما كانت تكرر بأنها لا تثق بابنتها رغم أن تلك الابنة كانت، من نواح أخرى، جديرة بالثقة. فقد

(2) من أجل موضوعات مشابهة انظر ر. ي. هاسكيل «نموذج قياسي لسلوك المجموعات الصغيرة»، International Journal of Group Psychotherapy، 28 (1978): 27 - 54.

(3) أقدم شكري في ما يخص هذه القصة التي تحمل كلاماً عميقاً، إلى زميلي جون هيبس.

كانت السيدة تخشى أن تقوم ابنتها بانتهاك حرمة القيم الدينية التي كانت تحمل قدسية شديدة بالنسبة للأمم والتي تتعلق بالإحجام عن العلاقات الجنسية إلى حين الزواج.

كان رأي مستشار المجموعة أن «أماً وحيدة دون زوج قد تشعر بالغيرة من ابنتها لشعورها بأن هذه الابنة تحصل، أو أنها قد تحصل، على ما تفتقر هي..». اتضح المضمون الجنسي للعبارة كما أن المستشار أوضح مدلولها. كان جواب السيدة: «أعتقد... أظن؟... أنت على حق». ثم غيرت الموضوع بسرعة نظراً لانقضاء الوقت المخصص للجلسة. قبل أن يغادر أفراد المجموعة أماكنهم قالت السيدة: «هل تعلم أن [اسم صديق ابنتها] ينتمي إلى نادي «المكتشفو» (The Explorers) [كانت تريد القول أنه لم يكن شاباً عابثاً]، ثم عادت لتؤكد، إنه شديد الاعتداد بنفسه cocky. انتهت الجلسة. ماذا يكشف لنا كل ذلك في ما يخص المشاعر اللاواعية للسيدة؟...»

لقد كشفت السيدة بشكل مباشر عن مشكلاتها العاطفية المتعلقة بالانفصال والفقدان. جاء أولاً فقدانها لزوجها والآن فقدانها النفسي لابنتها المراهقة التي سلبها إياها أحد الشبان. كما أنها كشفت بشكل مباشر عن الإحباط الجنسي الذي تشعر به واعترفت دون قصد منها بأنها تشعر بالغيرة: فقد كانت ابنتها تنعم بما كانت تفتقر هي إليه في حياتها، ليس فقط خلال الأشهر الستة عشرة التي تلت وفاة زوجها، بل خلال السنوات الأخيرة من زواجها وهو الجنس.

إن التحليل المبطن لعبارتها الأخيرة المتعلقة بانتماء صديق ابنتها إلى ناد يسمى «المكتشفون»، وتأكيدها في ما بعد بأنه شديد الاعتداد بنفسه cocky، يمكن أن يكشف كلاماً عميقاً، يؤكد موافقتها المترددة على تفسير المستشار ويوحى باحتمال وجود شعور لا واع لديها بالغيرة من ابنتها التي قد تكون على علاقة جنسية.

لنفكر ملياً في ما يلي: من الناحية الصوتية phonetically يمكن تجزئة تعبير «المكتشفون» Explorers إلى explore + her، وإذا أخذنا سياق الحديث بالاعتبار، فإن الإشارة إلى الاعتداد بالنفس cocky قد تحمل بشكل مبطن المعنى العامي لكلمة cock أي الذكّر. إذًا، فالأم تخشى أن يقوم الشاب باكتشاف ابنتها، وهو أمر يتعارض مع قيمها الدينية الواعية في نفس الوقت الذي تتمنى فيه هي، بشكل لا واع، أن تعيش علاقة جنسية.

إذا بدا هذا المثال وكأنه تفسير مبالغ فيه، دعنا نتذكر ما يلي: إن القول بأن السيدة قد ذكرت كلمة explorer ببساطة وبأنها اختارت بالصدفة كلمة cocky لا يقدم أي تفسير. من الناحية العلمية، نحن بحاجة لتفسير يبرر استدعاء كلمة explorer، دون غيرها، من الذاكرة واستخدامها في تلك اللحظة بعينها، كما يبرر اختيار كلمة cocky، بالذات، لاستخدامها ضمن ذلك السياق المحدّد من الحديث. (هل تعتقد حقيقة بأن تلك السيدة لو كانت أمّاً لابن، وأن لهذا الابن صديقة كانت

تبدو في نظر الأم صارمة أو واثقة من نفسها، مثلما كان يبدو صديق ابنتها في نظرها، هل تعتقد بأن السيدة كانت لتلجأ لاستخدام كلمة cocky، لوصف الفتاة؟...

مثلث الإغواء الأزلي

تتمحور أعمق أنواع الدراما البشرية التي تجري على مسرح الحياة حول مواضيع الإغواء الجنسي والعلاقات الغرامية السرية. فمنذ بدء الزمان، شكّل الإغواء الجنسي أحد أكبر الموضوعات الدرامية الأساسية الخالدة في «العلاقات» البشرية (التورية هنا مقصودة). يمكن لأساليب الإغواء أن تكون واضحة، كما يمكن لها أن تكون خفية مأكرة، ويمكن لهذه الأساليب أن تكون واعية أو لاواعية، كما يمكن أن تجري بواسطة الكلام أو بواسطة حركات الجسد التي توحى بالمعاني. ويمكن أن تكون تلك الأساليب حقيقية كما يمكن لها أن تكون، بكل بساطة، مجرد تهيؤات تخطر في الأذهان.

يُعتبر الإغواء والمنافسة الجنسية أمران عاديان ضمن الجماعات التي تضم أفراداً من الجنسين. وتبدو دراما الإغواء والمنافسة الجنسية، بشكل خاص، وكأنها تسير جنباً إلى جنب مع القوة والسلطة: فالتابعين يرغبون في القائد، والقادة يرغبون في التابعين، كما تُظهر شكاوى التحرش الجنسي في مكان العمل بشكل واضح، في أغلب الأحيان.

قد تعتقد بأنك تقوم بالإغواء وأنت مدرك لذلك، أو تعتقد

بأنك تعي أن أحداً ما يحاول إغواءك؟... أعدّ التفكير، فأساليب الإغواء غالباً ما تحدث بشكل لاواع. رغم أن المثال التالي حدث ضمن إحدى المجموعات التي عملت معها، إلا أن بإمكانك رؤيته يتكرر إلى جانبك في مكان العمل.

أثناء جلسة مع إحدى المجموعات قمت بتغيير المقعد الذي كنت أجلس عليه، شرحت سبب التغيير قائلاً أن على قائد المجموعة أن يكون قادراً على الدوام على رؤية كل فرد في المجموعة بوضوح. في بداية الجلسة التالية، جلست شابة جذابة المظهر على المقعد المقابل لي مباشرة، وقالت وهي تطلق ضحكة عصبية: «الآن أصبح بإمكان كل منا أن ينظر في عيني الآخر بشكل فعلي». أعقب تلك الملاحظة المحملة بمضامين عابثة صمت ثقيل.

بعد ذلك، وضمن سياق بدا ظاهرياً وكأن لا علاقة له بما حدث، قالت سيدة جذابة، أكبر قليلاً من الشابة الجالسة إلى جانبها، موجهة الحديث إلى المجموعة، «لدي مشكلة أود معرفة رأيكم فيها». حدثتنا كيف أنها كانت تخرج برفقة رجل متزوج «منفصل عن زوجته»، تابعت حديثها قائلة: «في إحدى الليالي كانت [زوجته] تختلس النظر إلينا عبر هذه النافذة». كانت الغرفة دافئة، لذلك «خلعت سترتي»⁽⁴⁾ ووضعتها على

(4) نوه أحد زملائي من المحللين النفسيين إلى أن قيامي بخلع سترتي الرياضية كان في حقيقة الأمر حركة أقصد بها «الإغواء». أعتقد أن التفكير الأكثر واقعية يقول أن الحركة قد «فُهمَتْ» على أنها إغواء.

مسند المقعد الذي كنت أجلس عليه. قامت السيدة التي كانت تتحدث عن علاقتها برجل متزوج «بخلع سترتها الصوفية ليظهر بوضوح شكل صدرها البارز من خلال قميصها الضيق». لدى العودة إلى موضوع الحديث، قال أحد أفراد المجموعة من الرجال أنه كان يعتقد بضرورة أن تتحدث تلك السيدة عن مشكلتها لكي «تزيح العبء عن صدرها».

لا شك بأن معنى الحديث قد اتضح لكم، فالإغواء هنا يأخذ مجراه. لنلق الآن نظرة أكثر تفصيلاً على الحديث لأن ذلك سيقدم «الدليل» الذي يجعل من تحليلي للمعاني المبطنة شيئاً جديراً بالتصديق.

خلال جلسات المجموعة، كان سلوك السيدتين يحفل بحركات الترتيب والعناية بالمظهر (أي ما يدعوه القائمون على دراسة سلوك الحيوان بـ «تسوية الريش» preening)، مثل إصلاح الشعر وتسوية ثنايا التنورة والقميص، وإلى ما هنالك. هناك كثير من علماء النفس وعلماء الأجناس البشرية ممن يعتبرون أن سلوكاً من هذا النوع ضمن المواقف الاجتماعية يحمل دلالة جنسية نوعاً من الدعوة للغزل. خلال الجلسات السابقة، كانت السيدة الشابة تتعمد أن تلتقي عيناها بعيني أكثر من أي فرد آخر من أفراد المجموعة. إضافة لذلك، كان الشابان المسيطران على جو المجموعة يتنافسان بشكل لا يخفى - فيما بينهما ومعني أيضاً - على قيادة المجموعة (التي كانت مؤلفة من ثمان شابات وخمسة شبان).

كانت العبارة التي توجَّهَتْ بها السيدة الشابة إليّ، وهي «الآن أصبح بإمكان كل منا أن ينظر في عيني الآخر بشكل فعلي» ترتبط بشكل حرفي أو واع بما قلته أنا في الجلسة السابقة من أن على قائد المجموعة أن يكون قادراً على الدوام على رؤية كل فرد في المجموعة بوضوح. أما المعنى المبطن، طبعاً، فقد يفيد بوجود شعور عاطفي أو هوى تحمله الشابة لي، أو بوجود مشاعر تعتقد هي أنني أكتنّها لها. كما أن العبارة هي تعبير كلامي عن محاولاتها السابقة في جعل عينيها تلتقي بعينيّ.

أما النقاش الذي أثارته السيدة الأكبر سناً بشأن «خروجها برفقة رجل متزوج»، فهو كلام عميق يشي بمشاعرها إزاء الملاحظة السابقة التي أبدتها الشابة حول «النظر في عيون بعضنا». فهي تعتبر، بشكل مبطن، أن «ملاحظة الشابة هي بمثابة تمهيد لإنشاء علاقة مع رجل متزوج» (وهو أنا). بالتالي، فالعبارة توحي بوجود منافسة من النوع المعتاد للاستئثار باهتمامي من الناحية الجنسية (كوني القائد «القوي»). أما عملية «خلع السترة من جانبي فقد حَمَلْتُ معنى خلع الثياب للإغواء». وقيام السيدة «بخلع سترتها هو استجابة، تحمل محاولة إغواء لا واعية، لما قمت به أنا» وذلك ضمن هذه الدراما الجنسية.

وكما في القصة التي روتها السيدة حول المثلث الأزلي المؤلّف من الزوج والزوجة والعشيق، كانت الشابة والسيدة الأكبر سناً وأنا، ضمن المجموعة، نشكّل المعادل للمثلث الأزلي وذلك ضمن الحديث الدائر بين أفراد المجموعة في تلك

اللحظة. إضافة لذلك، كانت ملاحظة السيدة المتعلقة «بخروجها برفقة رجل متزوج» تهدف إلى لفت نظر الشابة (أي الزوجة) ونظري أنا (أي الزوج) إلى أن السيدة (الضلع الثالث من المثلث) كانت أيضاً جزءاً من لعبة المنافسة.

أما الملاحظة التي أبداهَا الشاب للسيدة بشأن «إزاحة العباءة عن صدرها» فهي عبارة عن كلام عميق يتعلق برؤيته لصدرها عندما نزعَت سترتها. (من أجل مثال مشابه يستخدم عبارة مماثلة، أنظر الجزء التالي. فالمثال المشابه يقدم دليلاً قوياً على أن المثال ليس مجرد تطرف في التفسير).

إن رواية السيدة لحادثة قامت فيها زوجة الرجل الذي كانت تخرج برفقته «باختلاس النظر عبر النافذة» يعادل «ملاحظتها» للعلاقة المزعومة بيني وبين الشابة. بعبارة أخرى، كانت السيدة تراقب الشابة وتراقبني تماماً مثلما كانت الزوجة تختلس النظر إلى السيدة وإلى الزوج، وقد كانت العبارة التي توجهت بها الشابة إلي قبل ذلك بشأن استطاعة «كل منا أن ينظر في عيني الآخر» هي ما دفع بالسيدة لإبداء الملاحظة المتعلقة «باختلاس النظر». الديناميكية الرئيسة التي يكشف عنها هذا الكلام العميق هي المنافسة بين سيدتين من أفراد المجموعة للاستئثار باهتمام القائد.

كما ويوضح هذا الحديث أيضاً الدور الذي تلعبه الأحداث المادية الجارية أثناء الحديث في صياغة واختيار الموضوعات والكلمات (انظر الفصلين الأول والتاسع). فعبارة «أزيحي

العبء عن صدرك»، مثلاً، جاءت نتيجة قيام السيدة فعلاً بخلع سترتها وظهور شكل صدرها خلال القميص.

أخيراً، فإن الملاحظة التي أبدتها السيدة بشأن كون صديقها «منفصل عن زوجته» كانت تستند إلى قيام الشابة «بتغيير مكان جلوسها من المقعد المجاور لي إلى مقعد مواجه لي». أي أنها انفصلت عني. أما في ما يتعلق بالصور المجازية التي تعكس أحداثاً مادية، فإن ملاحظة السيدة المتعلقة بقيام الزوجة «باختلاس النظر عبر النافذة» جاءت نتيجة (أ) الملاحظة التي كنت قد أبدتها أنا في الجلسة السابقة بشأن مكان الجلوس الذي يسمح لي برؤية كل أفراد المجموعة بوضوح، (ب) الملاحظة التي توجهت بها الشابة إلي بشأن «إمكانية كل منا أن ينظر في عيني الآخر اعتباراً من تلك اللحظة».

إن تفحص النواحي القاعدية للغة المستخدمة بشكل أكثر دقة، يؤكد أوجه التطابق المذكورة. على سبيل المثال، كانت الملاحظة المتعلقة بالزوجة التي كانت «تختلس النظر عبر هذه النافذة» تحمل مغزى. إن استخدام «هذه» للإشارة إلى شخص أو إلى شيء موجود حالياً، وذلك بدل القول عبر نافذة أو عبر النافذة أو عبر تلك النافذة أو عبر نافذتي - الأمر الذي كان سيبدو مناسباً أكثر - يغيّر زمن الحدث من الماضي ليجعل منه حدثاً يجري في تلك اللحظة. إن تغير الزمن هذا يربط الموضوع الحرفي، من الوجهة النفسية، بالموقف ضمن المجموعة في تلك اللحظة.

البرامج والإعلانات التلفزيونية

إن الإصغاء بعمق إلى البرامج التلفزيونية التي تجري فيها استضافة أشخاص للتحدث معهم يمكن له أيضاً أن يكشف وجود كلام عميق، فمعظم تلك البرامج تتضمن أحاديث تكون، إلى حد ما، غير معدّة سلفاً. قبل عدة سنوات، وفي برنامج جوني كارسون، كان كارسون يرحب بدولي بارتون، وهي مغنية مشهورة تؤدي أغاني الريف الغربي. لدى سير المغنية باتجاه كارسون، كانت ضخامة صدرها واضحة للعيان. رَحِبَ بها بأسلوب جدي قائلاً: «اجلسي وأريحي قدميك من عناء هذا الثقل» Sit down and take a load off your feet، وهي عبارة تستخدم أحياناً بمعنى «تفضلي بالجلوس». لكن ضمن ذلك السياق، لم يكد كارسون يتفوه بتلك الكلمات حتى أدرك فوراً ما قاله «بشكل فعلي»، أي، «بشكل لاواع»، «لا بد وأن هذا الصدر الضخم يشكل حملاً ثقيلاً، الأفضل أن تجلسي وترichi نفسك من ذلك الثقل». كان بالإمكان رؤية وجهه وقد علّته الحمرة، تلئم محاولاً إصلاح الموقف لكن دون جدوى.

هذا الإقرار من جانب كارسون بحقيقة ما قاله، أفسد الموقف برمته إذ أنه كشف لضيافته على الملأ كيف كان يرى مظهرها الخارجي في قرارة نفسه. يُبين هذا المثال ما يبدو وكأنه يشكّل تصوراً شائعاً يحمله الرجال بشأن النساء ذوات الصدور الضخمة: وهو أن عليهن أن يُرخن أنفسهن من الثقل الذي يحملنه. (نتذكر هنا المثال السابق «أزيحي العبء عن

صدرك»). كما أن هذا المثال يبين بوضوح عملية تَسْلُل المُدْرَك الحسي الخفي إلى العقل الواعي وقيامه بتحديد شكل اللغة المُستخدَمة. رغم وجود احتمال بأن تكون ملاحظة كارسون مُعدّة سلفاً (كما كان يُعرف عنه)، إلا أن الحمرة التي علت وجهه أوضحت بجلاء أن العبارة لم تكن كذلك، فالتظاهر باحمرار الوجه خجلاً أمر يكاد يكون مستحيلاً.

الكلام العميق يمكن له أن يتواجد أيضاً في الإعلانات. وأنا لا أفشي سراً إذ أقول أن المعلنين يقومون بشكل واع باللجوء للرمزية في إعلاناتهم، سواء منها الرمزية الفرويدية أو غيرها. لقد كُتب الكثير عن الرمزية وعن اللجوء إلى التوريات في الإعلانات. رغم أن الإعلانين التلفزيونيين التاليين يبدوان مفعمين بالرمزية الفرويدية، إلا أن ما يهمني هنا هو الكيفية التي قام بواسطتها المصممون بإيصال المعاني إلى العقل اللاواعي بأسلوب مبطن. إن الأشخاص الذين يصممون الإعلانات وينفذونها بعناية، يدركون بوضوح أن المعاني تطوَّق النفوس بطرق عدة، بعضها واضح وبعضها خفي إلى حد ما. يُظهر المثال التالي كيف أن معديّ الإعلانات يدركون تماماً ما يقومون به لدى اعتمادهم على المعاني المزدوجة للكلمات.

عندما طرحت شركة رينولدز كومباني في الأسواق، لأول مرة، منتجاً جديداً يُغلف به الطعام للحفاظ عليه طازجاً (يُعرف هذا المنتج حالياً باسم Reynolds Wrap)، أنهت الإعلان بالقول: غلاف رينولدز، أفضل غلاف يمكن توفّره The Best

Wrap Around . عندما سمعت هذه العبارة، كان أول ما وصلني هو ما أراذني مصممو إعلان رينولدز أن أسمعه، أي أن مُنتَج رينولدز هو أفضل الموجود في الأسواق . لكن الأمر لم يكن بتلك البساطة، ولا حتى وفق أبعد التخمينات، فقد كان الإعلان يحمل مستويين آخرين، على الأقل، من المعاني الخفية .

المعنى الأول يعتمد على الرمزية الصوتية، أو على نوع من التورية . هذا المعنى يقول للمستمعين أن الكلام الذي يسمعون هو الأفضل . أي أن الكلمات التي يسمعون إليها هي أفضل كلام rap (w) موجود: هي كلمات صادقة . العلاقة هنا، طبعاً، تتصل بتعريف كلمة rap، التي تعني يتحدث .

المعنى الأخير للإعلان، كما أعتقد، كان يُقصد به خلق تداعيات ذات مضمون جنسي . أي أن عبارة wrap around (يلتف حول) ترتبط، من حيث دلالاتها اللفظية، بشبكة من التداعيات ذات المضمون الجنسي . الرابطة المبطنة اللاواعية هنا تتصل بالعناق: شركة رينولدز تقصد هنا أن تقول ضمناً أن هذا النوع من العناق wrap around الجنسي هو «أفضل» عناق يمكن توفّره wrap around best أشعر بإغراء يدفعني لأن أضيف إعلاناً خاصاً بي: (إن الكلام العميق هو أفضل كلام rap (w) يمكن توفّره).

إذا بدا كل ذلك الكلام عن المضمون الجنسي المبطن في

الإعلانات وكأنه مبالغة في التفسير، فإن تاريخ صناعة الإعلانات يظهر لنا بوضوح أنه اعتباراً من بداية خمسينيات القرن العشرين كانت الإعلانات تعتمد بقوة على الأفكار الفرويدية، كما أن وكالات الإعلانات كانت تلجأ للاستفادة من فهمها للرمزية المتعلقة بالتحليل النفسي. فضلاً عن ذلك، فإن هذا المجال كان يستفيد بشكل موسّع من فهم علم النفس الخاص بعملية التداعي ومن التعديلات التي تطرأ على هذا العلم، حيث ترتبط الأفكار والصور ببعضها بواسطة التداعيات التي نحملها نحن في ما يخص تلك الأفكار والصور. يعتقد القائمون على الإعلانات أن اللجوء إلى الرمزية اللاواعية يقوم بدور رسالة موجهة إلى مستوى ما دون الوعي أو بدور إيحائي يجري بعد التنويم المغناطيسي، الأمر الذي يدفع المشاهدين لشراء منتجاتهم. علينا ألا ننسى هنا أن إعداد الإعلانات يجري بدقة شديدة، فليس هنالك من شيء - سواء أكانت الكلمات أو كل ما يظهر في الخلفية - نراه ضمن الإعلان، لم يجر انتقاؤه بعناية ولسبب ما، كما أن كل جزء من تفاصيل الإعلان جرى تصميمه بشكل واع. سأنقل الآن لما أعتبره مثالاً أكثر غرابة عن الإصغاء العميق للرسائل ذات المضمون الجنسي في إعلان آخر.

نرى مثلاً آخر على الاستخدام الواعي للمعاني المزدوجة، تلك المعاني التي يأمل القائمون على إعداد الإعلانات أن تتجاوز انتباهك الواعي، وهو إعلان ظهر منذ بضع سنوات. قد يبدو المثال شديد الوضوح لدى قياسي بشرحه، لكن الناس لا

يركزون كل اهتمامهم لدى مشاهدة أمور من هذا النوع، بالتالي يفوتهم إدراك المعاني المبطنة. لقد تحققت من ذلك مع عدد من أصدقائي الذين كانوا قد شاهدوا الإعلان، وانتابهم شعور بدهشة شديدة لدى سماعهم تحليلي، رغم أنهم شاهدوا الإعلان لعدة مرات.

الإعلان هو عن مستحضر جديد لإزالة الروائح خاص بالنساء يدعى تيكل Tickle. يلجأ هذا الإعلان ضمناً، إلى حد ما، لاستخدام الصور البصرية عوضاً عن اللغة. العلبة ذات الشكل الطولي لها رأس كبير مستدير الشكل. تظهر سيدة بيضاء وتقول بلكنة فرنسية خفيفة: «إنه فريد من نوعه» ثم تلمس رأس العلبة بطرف إصبعها بتردد واستحياء لتعود وتسحب إصبعها بسرعة وهي تطلق ضحكات صغيرة متلاحقة. المشهد الثاني يُظهر سيدة أخرى بيضاء تدس رأسها ببطء داخل كنزة صوفية لها ياقة عالية مقلوبة. أما المشهد الأخير فيُظهر سيدة سوداء في ملعب البيسبول ترمي الكرة إلى داخل قفاز البيسبول الذي ترتديه. إن جميع الصور المختلفة بهذا الشكل ليس، طبعاً، من قبيل الصدفة. هل يُفترض فينا أن نصدق بشكل جدي أن كل تلك الصور والأصوات المرافقة لها لا تعدو أن تكون مجرد صدفة؟... إنها ليست كذلك. هناك كثير من الأشخاص ممن لا يزالون، ولسوء الحظ، غير مقتنعين بتحليل الإعلانات بهذه الطريقة.

كما ويحفل الشعر أيضاً بأساليب كهذه لاستخدام اللغة،

سواء بشكل مقصود أو غير مقصود. توضح هذه الأساليب الواعية لاستخدام اللغة أنه نظراً لأننا نعرف كيفية استخدام اللغة بهذا الشكل عند المستوى الواعي، فلا ينبغي أن تصيبنا الدهشة إزاء حدوث الشيء ذاته عند المستوى اللاواعي.

التصرف باستقامة

هناك كثيرون ممن لا يزالون يخفون في قرارة أنفسهم نماذج نمطية ومشاعر أخرى بشأن الميول الجنسية للأفراد، تماماً كما هو الأمر في تصوراتنا الخاصة بالعلاقات الإثنية والعرقية. كانت سيدة من معارفي، مؤخراً في أحد المتاجر التي تتردد إليها تنتظر دورها للدفع ثمن مشترياتها. كان يقف أمامها رجل يرتدي قميصاً قطنياً كُتب عليه «المخابرات» Secret Service، يستفسر عن أحد المنتجات. كانت السيدة تعرف البائع وتعرف أنه شاذ جنسياً. رغم أن سلوك البائع لم يكن يوحى بالنموذج النمطي المتعارف عليه للرجل الشاذ جنسياً الذي يُفرض في التخنت، إلا أن سلوكه كان يمكن أن يُفهم على هذا النحو. بالتالي، فإن من الطبيعي بالنسبة لأي شخص، وبخاصة لرجل من النوع المعتد برجولته، أن يساوره الشك بأن البائع قد يكون شاذاً جنسياً. كان البائع قد انتهى للتو من تقديم شرح مستفيض مثير عن أحد المنتجات لزبائن آخرين، وahan دور الرجل.

بينما كان البائع يجيب على سؤال الرجل، قال له هذا الأخير: «تصرف معي باستقامة Be straight with me، وهو

يقصد حرفياً: «لا تلح علي كي أشتري المنتج، هل هو جيد حقاً؟...» قالت السيدة التي كانت ترقب ما يجري أن رد فعل البائع تجاه الرجل الذي طلب منه التصرف باستقامة لم يكن فورياً كما أنه لم يخل من الوضوح رغم محاولة إخفائه. تحمل كلمة straight ثلاثة معان، بالطبع، وهي: (أ) تقليدي أو عادي من الناحية الاجتماعية، (ب) كون المرء أميناً وصادقاً، (ج) تمييز الشخص الذي يقيم علاقات جنسية مع الجنس الآخر عن الشخص الشاذ جنسياً. لا شك بأن البائع الشاذ جنسياً قد فهم تلك المعاني بشكل واع، السؤال هو: هل كانت عبارة الرجل Be straight with me هي عبارة مبطنة تعكس كونه أدرك بصورة لا واعية - أو أنه كان على الأقل يخفي اعتقاده - بأن البائع شاذ جنسياً.

في حال عدم توفر معلومات إضافية، لم أكن لأتمكّن من الجزم بأن العبارة كانت في واقع الأمر كلاماً عميقاً. لكننا إذا أخذنا بالاعتبار أن (أ) جرت الحادثة في مدينة صغيرة، أو بالأحرى مدينة ريفية، (ب) في ولاية كان قد أُجري فيها مؤخراً استفتاء حول تشريع يخص حقوق الشواذ جنسياً، (ج) حيث وقعت أحداث جرى فيها ضرب الرجال الشاذين جنسياً، إذا أخذنا كل ذلك بالاعتبار، يبدو من المنطقي أن نفترض - إذا كنت أحد أفراد تلك المجموعة اللغوية الريفية - أن اختيار كلمة straight لم يكن وليد الصدفة. وإذا حكمنا من خلال رد الفعل المتأخر للبائع، يبدو أن اختيار الكلمة لم يكن بالنسبة له،

بالتأكيد، مجرد صدفة. فقد قام اللاوعي لدى البائع بتلقي المعنى المبطن المحتمل، الذي تحول عند ذلك ليصبح معنى واعياً.

هناك أيضاً مسألة القميص الذي كان يرتديه الرجل والذي كُتب عليه «مخابرات» secret service فبعد أن تفوه الرجل بتلك العبارة، سأله البائع إن كان من رجال المخابرات، أجاب الرجل بالنفي. لماذا سأل البائع الرجل إن كان عميلاً للمخابرات، إن قيام العقل المبطن لدى البائع بالتقاط كلمة straight ربما كان مرده إلى الكلمات المطبوعة على قميص الرجل. فرغم أن ممارسة الشذوذ الجنسي لم تعد ممنوعة بحكم القانون في بعض الولايات، إلا أن بعض الولايات الأخرى ما تزال تحرّم اللواط. هناك احتمال أن يكون هذا السؤال هو رد فعل البائع، عند أحد المستويات اللاواعية، إزاء هذا التواجد غير القانوني أمام شخص قد يكون ممثلاً للقانون.

أخيراً، إن الاسم «خدمة» service لدى استخدامه كظرف كما في to service يُستخدم من قِبَل كلٍ من الذكور الشاذين جنسياً وأولئك الذين يمارسون الجنس مع نساء للإشارة إلى إشباع رغبة شخص آخر، كما يقال لدى تقديم خدمة لشخص ما. الواقع أن ذلك هو أحد معاني الكلمة في معظم القواميس (لكن هذا المعنى يتحدد عادة بممارسة الجنس مع امرأة). إذا بدت النواحي المتعلقة بمخالفة القانون ضمن تحليلي لكلمة servicing وكأنها مبالغة في التفسير، علينا إذاً، أن نتذكر أنه في

المنطقة التي دار فيها ذلك الكلام العميق، كانت هناك أخبار من حين لآخر تتحدث عن مداهمة رجال الشرطة لمنطقة يجتمع فيها الرجال الشاذون جنسياً لممارسة الجنس، أي لإشباع رغبات service بعضهم بعضاً. (لا أتذكر ورود أخبار مشابهة بشأن أماكن يجتمع فيها من يقيمون علاقات جنسية مع الجنس الآخر، مثل Lovers Lanes، مثلاً على الأقل منذ فترة Happy Days في خمسينيات القرن العشرين.)

هناك مثال آخر على النموذج النمطي للشخص الشاذ جنسياً. سألتني إحدى السيدات، وكانت تتدرب على العمل ضمن مجموعات استشارية في مكان عملها، «هل كان غيابك في المرة الماضية متعمداً كي ترى ردة الفعل لدينا؟... أجبتها: «لا، لم يكن غيابي متعمداً». وبينما كنت على وشك القول بأن مخططي هو أن أتغيب بضع مرات خلال إحدى مراحل العمل مع كل مجموعة، تدخّل أحد أفراد المجموعة، وكان يحاول دائماً الهيمنة على جو الجلسة، تدخّل في الحديث ليقول بسخرية: «دعنا من هذا، لا تحاول إبداء أي عذر». أعقب ذلك صمتٌ ثقيل لأن مثل هذه العبارات، التي تبدو وكأنها تتحدى سلطة القائد، تجعل بقية أفراد المجموعة يشعرون، بشكل واع وبشكل غير واع، بوجود «خطر» وشيك. فهم يخافون أن يؤدي هذا التحدي إلى الانتقام، لا من الشخص الذي تفوه بالعبرة فقط، بل ومنهم أيضاً (أطياف الحياة العائلية وعلاقات الآباء بالأبناء).

بعد ذلك، بدأت السيدة، دون أن يكون لكلامها أية علاقة واضحة بأي موضوع سبق وأن جرى الحديث حوله، بدأت تتحدث عن المجموعة الاستشارية التي كانت تعمل معها، قالت بأنها «تشعر بالأسى نحو أحد أفراد المجموعة، فقد كان شاذاً جنسياً وقد صرّح بذلك منذ الاجتماع الأول»، ثم أضافت: «يجعلني هذا أتساءل عما إذا كان فعلاً يشعر بالراحة إزاء ذلك الوضع». تابعت الحديث قائلة أنه كان هناك ضمن المجموعة «رجل يقوم دائماً بتوجيه الملاحظات إلى هذا الشاذ جنسياً، لكن هذا الأخير يتجاهل كل شيء ويجلس دون أن يحرك ساكناً. أنا أشعر نحوه بالأسى الشديد». ثم قالت أنها لا تعرف إن كان من الواجب أن تتحدث بهذا الشأن مع الرجل الذي يوجه الملاحظات، أم لا، بما أنها كانت «قد بدأت معه لتوها علاقة لا بأس بها ضمن المجموعة». ران الصمت، تلاه حديث ودي قصير ثم انتهت الجلسة.

سياق الحديث المذكور هو التالي: في الجلسات السابقة، كثيراً ما كان ذلك الرجل يوجه إلي ملاحظات تحمل الازدراء والتقريع كنت أقابلها بالتجاهل. في كل مرة حدث فيها ذلك، كانت هي تنظر إليّ بدعر وهي تتوقع، كما يبدو، أن أرد على تلك الملاحظات. كما أنها كانت قد ألمحت في الجلسات السابقة إلى أنها تشعر بوجود بوادر علاقة مريحة بينها وبين ذلك الرجل. لا بد وأن معالم صورة الكلام العميق بدأت تتضح الآن.

إن إشارة السيدة إلى الرجل الشاذ جنسياً ضمن مجموعتها الاستشارية هو كلام عميق يدور حولي أنا، وذلك لأنني، مثله تماماً، «أتجاهل كل شيء يقوله ذلك الرجل الساعي للهيمنة وأواجهه دون أن أحرك ساكناً». إذاً، فالرجل الساعي للهيمنة ضمن مجموعتها الاستشارية، الذي كان يقوم باستمرار بتوجيه الملاحظات إلى الرجل الشاذ جنسياً هو المعادل للرجل الساعي إلى الهيمنة ضمن أفراد مجموعتنا الذي يقوم بتوجيه الملاحظات إلي. بالتالي، فإن عبارتها القائلة «أشعر نحوه بالأسى الشديد» تكشف عن شعورها حيالي بالأسى.

كثيراً ما يشعر أفراد المجموعات بالارتباك والأسى حيال المدرب في تلك المواقف التي تحدث ضمن الجماعة والتي يكون فيها المدرب سلبياً عاجزاً عن التوجيه (قال محلل المجموعات البريطاني ألفرد بيون، ذات مرة، أن المجموعات لا تستطيع فهم القائد الذي لا يحارب ولا يلوذ بالفرار). إن قيام الرجل الشاذ جنسياً بالتصريح عن ذلك منذ الاجتماع الأول للمجموعة الاستشارية يعادل قيامي بالتصريح خلال الاجتماع الأول بأن دوري في المجموعة لن يكون دوراً إيجابياً (أي أنني ألمح إلى أنني سأكون «سلبياً» passive).

كما أن تساؤل السيدة إن كان الرجل الشاذ جنسياً، الموجود في مجال عملها، يشعر بالراحة إزاء وضعه، يعادل تساؤلها إن كنت أشعر بالراحة إزاء وضعي، أي إزاء قيام أحد أفراد المجموعة بمخاطبتي بتلك الطريقة. أما قولها بأنها لا

تدري إن كان من الواجب أن تتحدث بهذا الشأن مع الرجل الموجود ضمن مجموعتها الاستشارية، لأنها كانت قد بدأت معه لتوها علاقة لا بأس بها، فهو يعادل انشغالها بفكرة الحديث بهذا الشأن مع الرجل الموجود ضمن مجموعتنا الحالية، ذلك لأنها، كما قالت في جلسة سابقة، «تشعر بوجود بوادر علاقة بينها وبين ذلك الرجل».

توضح هذه القصة ديناميكية مشاعر السيدة (آ) تجاهي كشخص وكمدرب و (ب) تجاه الرجل الموجود ضمن المجموعة. كما أن هذه القصة قد تعكس أيضاً بعضاً من الأفكار التي تشغل بالها بشأن أحد أفراد مجموعة أخرى يمكن اعتباره شاذاً جنسياً. فهو لا يتعرض لمضايقة من أحد، لكنه يجلس دون أن يحرك ساكناً. نستطيع هنا أن نرى، مرة أخرى، أن تلك اللغة تحديداً، التي جرى اختيارها لغوياً في اللاوعي، تفيد بوجود رابطة ما بين الموضوع وبين المجموعة التي نعمل ضمنها. في عبارة السيدة التي تحدثت فيها عن الرجل الموجود ضمن مجموعتها الاستشارية الذي لا يتوقف عن توجيه الملاحظات إلى الرجل الشاذ جنسياً، لجأت لاستخدام تعبير «هذا» للإشارة إلى هذا الأخير بدل أن تقول «الرجل الشاذ جنسياً» أو «رجل شاذ جنسياً». وهكذا، قامت بشكل نفسي لغوي بتغيير الإشارة لتعكس بأسلوب مبطن معنى آتياً حاضراً في تلك اللحظة. وفي عبارتها «لكن الأخير [الشاذ جنسياً] يتجاهل كل شيء»، يشير تعبير «كل شيء» حرفياً إلى الملاحظات التي

يوجهها الرجل الآخر، لكن معناه المبطن: إن أسلوب القيادي العاجز عن التوجيه، يؤدي لعدم استجابتي لمتطلبات أفراد المجموعة، أي «لكل شيء».

تضم القصة مستوى آخر من الإصغاء العميق. أثناء النقاش الذي جرى بين أفراد المجموعة، شعرتُ بأنني لم أدرك بُعد كل أبعاد المعنى المبطن لموضوع الرجل الشاذ جنسياً. طلبت من السيدة أن توافيني في مكنتي، وعندما طلبت منها أن تعيد عليّ مسامعي القصة التي كانت قد روتها عن الرجل الشاذ جنسياً ضمن مجموعتها الاستشارية، أخبرتني بأنه انفصل عن المجموعة الاستشارية. تابعت القول بأنه كان «شديد الذكاء» ثم أضافت: من حيث الواقع «كان أذكى أفراد المجموعة، لذلك أعتقد بأنه لم يكن يكتسب أي جديد من وجوده ضمن المجموعة». أثناء الجلسة، وقبل أن توافيني السيدة في مكنتي، كانت قد عبّرت عن أنها لم تكن تكتسب أي جديد من وجودها ضمن المجموعة، وبأنها كانت تفكر بالانقطاع عن حضور جلسات المجموعة.

من المرجح أن السيدة كانت في عقلها اللاواعي تتماهى مع الرجل الشاذ جنسياً، أي أن كونها أكبر سناً من معظم أفراد المجموعة، جعلها تشعر بأنها أكثر ذكاء منهم، بمعنى أنها كانت تمتلك خبرة أوسع. كما أنها كانت مثله تفكر بالانقطاع عن حضور جلسات المجموعة. هناك أمر آخر يؤيد فكرة أن يكون الرجل الشاذ جنسياً يتطابق معي بشكل مبطن، وهو ملاحظة

السيدة بأنه «كان أذكى أفراد المجموعة، لذلك أعتقد بأنه لم يكن يكتسب أي جديد من وجوده ضمن المجموعة». من حيث السياق العام، فإن المجموعات غالباً ما تصف الأساتذة بأنهم شديدي الذكاء. بعبارة أكثر تحديداً، إن المجموعات غالباً ما تعبر عن اعتقادها بأنني نظراً لكوني أعمل منذ سنوات في إدارة جلسات المجموعات، لا بد وأنني لا أكتسب جديداً كما أنني لا بد وأن أشعر بالملل (هذا بالطبع ليس صحيحاً).

الموضوع الحرفي للشواذ جنسياً يتحول هنا إلى مجموعة متعددة السطوح من المعاني ونافذة نطل منها على النماذج النمطية التي تضرب بجذورها بعيداً ضمن ثقافتنا. النماذج النمطية هنا هي أن الشواذ جنسياً (أ) مخشون، (ب) سلبيون، (ج) يحملون مشاعر أنثوية، (د) منحرفون، (هـ) شديدي الذكاء. وكما في النماذج النمطية العرقية والإثنية، يجري تعميم هذه المعتقدات العاطفية، ذات الجذور العميقة، على مواقف أخرى يُعتقد بأنها مشابهة.

إن كل تلك المواضيع الحرفية هي عبارة عن تحولات للهموم الأساسية المتعلقة بالخصائص الجنسية sexuality بما في ذلك الهيمنة والتنافس والنماذج النمطية والميول الجنسية واللمس والتعري، ويشكل كل موضوع تعديلاً أو اختلافاً من نوع ما يتمحور حول مجموعة واحدة من الهموم العاطفية. كما أننا لاحظنا أن التحولات المبطنة كانت تحدث عن طريق عمليات معرفية ولغوية شتى. تضمنت تلك العمليات اللجوء إلى

موضوعات مأخوذة عن أفلام سينمائية تعكس المعنى الآني، واستخدام أصوات تحمل توريات، وكلمات تحمل معانٍ ضمنية متعددة، وأحداث فعلية تتولد عنها موضوعات ومعانٍ مطابقة لها أو مبطنّة، واللجوء إلى تغيير حالة الجمع والضمائر، والتلاعب بالألفاظ. نلاحظ مرة أخرى، أن هناك الكثير مما يمكن تعلّمه بشأن مشاعر وأفكار لا واعية محددة وبشأن العلاقات بين الأفراد وذلك عن طريق الإصغاء العميق.



هل المقصود «شحيحة» niggardly... توضيح القضايا العرقية

أول ما صادف غامب كان «ريشة بيضاء»... أول لقاء إنساني له كان مع امرأة سوداء ترتدي «حذاء أبيض نظيفاً» يُعتبر غامب نفسه أحد المنحدرين من سلالة المؤسس الاتحادي الجنوبي لحركة كلوكلاكس كلان.

آرون ديفيد غريسون
«لدى قراءة فوريسست غامب»⁽¹⁾

لدى دخول القرن الواحد والعشرين، أصبحنا نعيش في عصر تحوّل فيه الكرة الأرضية إلى قرية كونية ذات ثقافات متنوعة إلى درجة لا تصدق. من حيث الظاهر، يبدو هذا العصر

(1) آ. غريسون، «أمريكي ما بعد الحداثة وأزمة تعدد الثقافات: قراءة

فوريسست غامب كدعوة «للعودة إلى العنصر الأبيض»، Taboo: The Journal

عصراً تنويرياً، عصراً يُفترض أن الثقافة قضت فيه على الخرافات لتحل محلها الحقائق. لكننا نلاحظ أنه في حال لقاءات اجتماعية تحوي تركيبة عرقية مختلفة، لا بد من وجود مشاعر ومواقف وأفكار تحمل طابع التحامل لدى معظم الأشخاص، مهما كان العرق أو لون البشرة.

لقد أصبحت حياتنا ضمن العمل وحياتنا الاجتماعية، شأنهما شأن حياتنا الخاصة، تتألف بشكل متزايد من مجموعات مختلفة من الشعوب من كل أصقاع الأرض يحمل كلٌ منهم، إضافة للمظهر الخارجي المختلف، معتقدات وممارسات ثقافية مختلفة. وإذا كان لنا أن نقلل من حجم الصدمات الشخصية والعالمية في حياتنا، علينا أن نفهم السلوكيات والمواقف تجاه الشعوب المختلفة وأن نتعرف إلى هذه السلوكيات والمواقف⁽²⁾.

هناك كثير من الأشخاص غير المنتمين لأقليات ممن يعتقدون أن التحامل العرقي قد قُضي عليه تماماً منذ قيام حركة الحقوق المدنية التي بدأت في أواخر خمسينيات القرن العشرين. لاشك بأن من المستحيل تقريباً رؤية شخص يعترف في استطلاع للرأي بأنه يحمل شعوراً بالتحامل ضد عرق معين أو أقليات معينة، هذا طبعاً إذا استثنينا حركة كوكلاكس كلان،

(2) انظر ج. والر، وجهاً لوجه: تبدل وضع العنصرية عبر أمريكا (نيويورك: بليزوم/إنسايت بوكس، 1998).

التي لا تزال نشطة، والمجموعات الأخرى التي تنادي بتفوق الإنسان الأبيض في الجانب الآخر من القضية العرقية، نرى حركة أمة الإسلام The Nation of Islam. لكن قضية التحامل والتمييز لا تزال تلوح للأنظار، إن لم يكن بشكل أكبر، فعلى الأقل بشكل مموه أكثر مكرراً. لقد أخفينا جزءاً من هذه المشكلة عن الأنظار، تماماً كما فعلنا بقضية التحامل الجنسي.

وفي حين بدأت أشكال التحامل المتطرفة الواضحة تزول، بدأت أشكال أخرى لا واعيّة أكثر خفاء من التحامل والتمييز تأخذ أبعاداً أكبر وأعمق. نحن لا نزال حتى الآن نميل للمبالغة وإلى المشاعر الانتقائية في ما يتعلق بأمر نخافه أو لا نحبه. أظهر استطلاع للرأي أجراه معهد غالوب⁽³⁾ سنة 1990 أن معظم الأمريكيين البيض يعتقدون أن الأمريكيين الأفارقة يشكلون 32 بالمئة من عدد السكان وأن الأمريكيين من أصل إسباني يشكلون 21 بالمئة، في الوقت الذي لا تزيد الأرقام الفعلية عن 12 بالمئة و 9 بالمئة. لم تتغير التصورات حتى الآن. عندما سألت طلابي وأصدقائي عن النسبة التي يعتقدون بأن الأمريكيين الأفارقة يمثلونها ضمن سكان الولايات المتحدة، تراوحت الإجابات ما بين 20 بالمئة و 50 بالمئة. ألا تعتقدون بأن ذلك يشير الدهشة؟... الأفكار المتعلقة بالمسألة العرقية في الولايات المتحدة لا تزال منقسمة بشكل حاد.

(3) معهد غالوب، نيسان/أبريل 19 - 22، 1990، نُشر التقرير في «أمريكان أنتربرايز»، أيلول/سبتمبر - تشرين الأول/أكتوبر 1990.

لاحظنا هذا الانقسام في الأفكار المتعلقة بالمسألة العرقية خلال المحاكمة التي جرت سنة 1995 لنجم لعبة كرة القدم و. ج. سمپسون بتهمة قتل زوجته السابقة البيضاء وصديقها الأبيض. كانت غالبية البيض تشعر بأن مسألة العرق لم تكن ذات أهمية في عملية سير المحاكمة بخلاف غالبية الأمريكيين الأفارقة الذين كانوا يشعرون بأن مسألة العرق كانت جزءاً لا يتجزأ من تلك العملية⁽⁴⁾.

إن إحدى الطرق التي تساعدنا على كشف أشكال التحامل الأكثر دقة وخفاء هي الإصغاء للحديث بأذنٍ تستهدف المعنى المبطن. لأن ذلك يتيح لنا، أن نسمع كلاً من الآثار الحالية والقديمة لتلك المشاعر والنماذج النمطية المؤدية لكثير من سوء التفاهم والصدمات العنصرية والعرقية. قضيت سنوات وأنا أصغى لقصص عرقية وعنصرية مبطنة من هذا النوع⁽⁵⁾.

من المتعارف عليه أن الأحاديث اليومية تنطوي على

(4) أحد الأدلة على الرفض أو على الجهل أثناء محاكمة و. ج. سمپسون كان ادعاء البيض أن لجنة المحلفين التي كان معظم أفرادها من السود كانت تقوم بتعطيل مهمة اللجنة (أي بعدم الالتزام بالأدلة وبالقانون). حتى ولو كان هذا صحيحاً، لم نسمع أحداً يذكر قيام لجان محلفين من البيض بتعطيل مهام اللجان لسنوات لدى محاكمة أمريكي أفريقي.

(5) هناك بعض الأمثلة في هذا الفصل مأخوذة من ر. ي. هاسكيل «المعرفة الاجتماعية والتعبير اللاواعي عن الأيديولوجية العرقية»، الخيال والمعرفة والشخصية، 6 (1987): 75 - 97. لمزيد من الأمثلة، انظر كتابي «بين السطور».

تعبيرات مُلَطَّفة، نستخدمها بشكل واع للإشارة بشكل خفي إلى أشخاص خارج مجموعتنا العرقية، تعبيرات من نوع «لاشك بأنكم تعرفون «طبيعتهم». كما أن هناك عبارات معينة يمكن أن تُستخدم في الحديث بشكل واع لتُمثِّل مشاعر التحامل والنماذج النمطية ودواعي القلق، وذلك فيما يخص فكرة «السود في مقابل البيض» كالمواضيع التي تتناول «المدينة في مقابل الريف»، أو كالحديث عن القسم الفقير من المدينة وخدمة الإنعاش الاجتماعي. يسمى هذا النوع من الحديث «الحديث المُرمَّز» الذي يدرك الجميع من خلاله فحوى الحديث «الفعلي». أكرر أنني لا أتحدث هنا عن الحديث المرمَّز، أنا أتحدث عن النماذج النمطية العميقة.

لقد اكتشفت أنه ضمن المجموعات التي يوجد فيها أمريكيون أفارقة وآخرون بيض جنباً إلى جنب، هناك موضوعات حرفية ترتبط باللون تتسلل غالباً إلى حديث قد يبدو ظاهرياً وكأنه لا علاقة له بالمسألة العرقية. لماذا يجري اختيار الإشارة إلى اللون الأسود في الحديث الدائر بين أفراد من عرقين مختلفين؟... مثلاً، لماذا يجري اختيار الكلام عن مثلجات الشوكولا، أو عن العيون السوداء أو عن إطفاء الأنوار الكهربائية electrical blackouts خلال حديث يجري بين أفراد من عروق «مختلطة»⁽⁶⁾.

(6) كل الأمثلة في هذا الفصل تعكس العلاقات بين البيض والأمريكيين =

لماذا تتسلل موضوعات تبدو في ظاهرها حرفية رغم أنها قد أصبحت أفكاراً عفى عليها الزمن، تتناول أشخاصاً «بليدين» أو أشخاصاً « يأكلون البطيخ»، إلى الأحاديث دون أن يدرك أحد بشكل واع أن هذه الموضوعات هي إشارات عرقية نمطية إلى أفراد مشتركين في الحديث ينتمون إلى أقلية معينة؟... يبدو كما لو أن مجرد وجود أمريكي أفريقي يلعب دور المُحرّض الذي يُحرّك آلياً الطبقات العديدة المترابطة من التحامل والنماذج النمطية ومشاعر القلق. قد تبدو بعض النماذج النمطية، التي بنيت على أساسها أمثلة الكلام العميق في هذا الفصل، قد تبدو وكأن لم يعد لها وجود، وبأنها تنتمي إلى زمن ماضٍ. أود التأكيد على أن الأمر ليس على هذا النحو⁽⁷⁾. إن

= الأفارقة. لم يكن هذا مقصوداً، فالأشخاص الذين عشت وعملت معهم لم يكونوا من أصول متنوعة بشكل يكفي لإتاحة الفرص لي للتعرف إلى قصص مبطنة تتعلق بأقليات أخرى. كما أنني أعتقد أن علاقات الصداقة التي تربطني بأشخاص سود لأكثر من عشرين سنة قد جعلتني أكثر حساسية للإصغاء العميق في ما يخص البيض والسود. كما أن الأمثلة تقتصر على أمثلة من أقوال البيض، الأمريكيون الأفارقة أيضاً يدور بينهم كلام عميق بشأن العرق. وقد اخترت ألا أقدم أمثلة من هذا النوع لاعتبارات تتعلق بتوفر الحيز. لكنني أود أن أشير هنا إلى أنني لاحظت، على الأقل انطلاقاً من تجربتي الشخصية، أن الكلام العميق الذي يقوله السود بشأن العرق ليس - وهذا يبعث على الاستغراب - سلبياً بقدر كلام البيض المتعلق بهذا الموضوع (انظر كتابي «بين السطور».

(7) انظر آ. غريسون، «العودة إلى العرق في أمريكا (مينابوليس: يونيفرستي أوف مينيسوتا برس، 1995)، آ. غريسون، «جذليات التضليل: التوضيح والتدليس والمقهورون» (نوروود، نيوجرسي: أبليكس باپليشنغ، 1982).

كثيراً من تلك النماذج لا تزال حية تمارس تأثيرها عند مستويات لا واعية عميقة.

قبل أن أبدأ بتقديم أمثلة أكثر تفصيلاً عن الإصغاء العميق للنماذج النمطية العرقية، أود توجيه ملاحظة تحذيرية بشأن تفسير الأحاديث التي تبدو كما لو أنها تعكس تحاملاً. فرغم أن بالإمكان الكشف بشكل مبطن عن المواقف التي تحمل تحاملاً ونماذج نمطية، إلا أنني وجدت غالباً أن الإشارات إلى نماذج نمطية عرقية بشكل كلام عميق، قد لا تعني بالضرورة أن المتحدث شخص متحامل بالمعنى السلبي للكلمة. بل إن تلك الإشارات قد تعكس نشاط النماذج النمطية الثقافية التي غرسها وسائل الإعلام في أذهان معظمنا والتي يمكن استثارها بشكل آلي (انظر المقاطع التالية والفصل السادس). هذا التحذير لا ينطبق فقط على كل الإشارات المبطنة في الأحاديث، لكنه ينطبق بشكل خاص على الموضوعات العرقية. كما أنني أحتاج أيضاً لإيضاح بعض التعبيرات قبل البدء بالحديث.

معنى تعبيرَي التحامل *Prejudice* والعرق *Race*

كثيراً ما يُساء فهم تعبيرَي «تحامل» و «عرق». يتصور معظم الناس أن التحامل يعكس معنى سلبياً والسبب هو أن استخدام هذا التعبير في الحياة اليومية للإشارة إلى مسائل عنصرية وعرقية أدى إلى طمس معناه النفسي. «التحامل» يعني ببساطة حُكم مُسبق على أمر ما قبل معرفة كل المعلومات ذات

الصلة الوثيقة به. إذاً يمكن لهذا التعبير أيضاً أن يعني شيئاً إيجابياً. كما يرتبط به، بالإضافة لذلك، معنى التصور المُسبق لشعورٍ ما أو لرأيٍ أو لفكرة. أخيراً - وهو المعنى المطبّق عموماً - يمكن لهذا التعبير أيضاً أن يشير إلى شعورٍ بالكراهة أو بالبغض، دون مسوِّغ عقلائي، تجاه مجموعة معينة من الناس على أساس العرق أو النوع gender أو الميول الجنسية، أو الدين. في هذا الكتاب سأستخدم تعبير «تحامّل» لا بمعنى حُكم مسبق بسيط ولكن بالمعنى المتعارف عليه وهو حكم مسبق سلبي أو معادٍ، حكم يقوم بإنكار فرد أو مجموعة أو بالخط من شأنهما. ينشأ هذا الحكم وينتظم انطلاقاً من منظومة معتقدات واعية ولا واعية تتكون من مواقف ونماذج نمطية سلبية، عندما يقال عن شخص ما بأنه متعصب عرقياً أو جنسياً الخ، فإن المقصود هو هذا المعنى لتعبير «تحامّل».

إن الأشخاص الذين يتحدثون بشكل مبطن عن النماذج النمطية قد لا يكون أشخاصاً عنصريين أو متعصبين في ظاهرهم، وقد لا يمارسون التمييز، بل إنهم قد يكونون، فعلاً، نشطاء في حركات الحقوق المدنية. الإشارات المبطنة من هذا النوع قد تشير ببساطة، إلى جهل الشخص بمعنى ما سلبي أو إلى وجود نموذج نمطي دفين جاء نتاج ثقافة الشخص، جرت استثارته بشكل آلي. بإمكاننا اعتبار هذا التمييز على أنه عرقي لا عنصري. أود أن أذكر هنا أنني صاحب هذا التمييز، وهو يتبدى بشكل فريد من نتائج أبحاثي حول الكلام العميق، كما أنه يُعتبر

تميزاً مهماً في ما يتعلق بالتحامل وفي ما يتعلق ببُنيّتنا المعرفية أيضاً. سأشرح هذه الفكرة بشكل ملموس أكثر في ختام هذا الفصل.

إنّ تعبير عرق race يُمثّل أيضاً مشكلة. أستخدم أنا التعبير بالمعنى المفهوم عادة لدى أغلب الناس، ومنهم بطبيعة الحال الكثير من العلماء. العرق هو تَمَيُّز بيولوجي وراثي هام يُحدّد مجموعة من الأشخاص المنتمين إلى مثل أعلى ideal واحد أو إلى تَجَمُّع وراثي «صافٍ». أستخدم هذا التعبير هنا لأنه الوسيلة المقبولة من حيث الدلالة اللفظية، بالتالي فهو يُعتبر مناسباً للتعبير عن موضوع الفصل. لكنني أعتبر مفهوم «العرق» مجرد أسطورة، وذلك كما يبرهن عالم الأجناس البشرية آشلي مونتاغو في كتابه «أخطر أساطير الإنسان»⁽⁸⁾.

الإصغاء العميق للتحامل العرقي Ethnic

العرق أمر مهم لا سبيل لتجاهله⁽⁹⁾. ذات يوم كنت وصديقي الحميم وزميلي الدكتور آرون غريسون نقف خارجاً ندخن الغليون. غريسون أمريكي أفريقي. كانت هناك سيدة بيضاء تقف في نفس المكان، قالت: «أنا أحب رائحة الغليون، لأن رائحته زكية. ثم التفتت ونظرت إلى آرون وقالت له بأن

(8) آ. مونتاغ أخطر أساطير البشرية: مغالطة العرق، الطبعة الرابعة (كليفلاند: وورلد، 1964).

(9) انظر س. ويست، شؤون عرقية (نيويورك: فنتاج بوكس، 1994).

التبغ الذي كان يدخنه «كان ذو رائحة أشبه برائحة الفانيليا». نتساءل هنا ثانية، لماذا خطر ذلك الموضوع ببال السيدة من بين جميع الموضوعات والأشياء الأخرى التي كان بالإمكان قولها؟... رغم أن رائحة التبغ كانت فعلاً أشبه برائحة الفانيليا، إلا أن السيدة شعرت بوجود جوانب أخرى تميّز الموقف. لماذا لم تتحدث عن الطقس مثلاً، كما يفعل معظم الناس؟... المعنى الأرجح للكلام العميق هنا هو أن صديقي ذا البشرة السوداء الفاتحة نوعاً ما كان أبيض جزئياً، ليس من حيث مورثاته الجينية فحسب، بل من حيث الأشخاص الذين يعاشرهم، من هنا جاءت الملاحظة المتعلقة بالفانيليا.

خارج نطاق عالم الألعاب الرياضية وهوليوود، لا يزال من غير المألوف نسبياً رؤية رجل أبيض ورجل أسود يتجولان هنا وهناك كصديقين حميمين. عند مستوى ما، أعتقد بأن العبارة الأولى التي قالتها السيدة، «أنا أحب رائحة دخان الغليون، لأن رائحته زكية» تقدم سياقاً إيجابياً لكلامها العميق المتعلق بالعرق. إضافة لذلك، فإن معظم البيض لا يحملون في أذهانهم نموذجاً نمطياً لأمريكيين أفارقة يدخنون الغليون، بالتالي، فإن عبارة «ذو رائحة أشبه برائحة الفانيليا» قد تعني غالباً أن آرون كان يقوم بما لا يقوم به سوى البيض. كما أن ملاحظتها قد تكون إشارة غير مباشرة إلى أنها تشعر وكأن آرون كان Oreos - وهو التعبير المستخدم لوصف شخص أسود نشأ على ثقافة البيض - مثل بسكويت الشوكولا Oreos المحشو بطبقة من الفانيليا (البيضاء).

بالنظر للعبارة الإيجابية الأولى، لا أميل كثيراً لمعنى Oreo هذا، لكن الدوافع والأفكار البشرية معقدة، بالتالي فإن هذه العبارة تكشف على الأرجح عدداً من المشاعر والمواقف، حتى تلك المتعارضة منها. بشكل عام، تبدو نتيجة هذا الإصغاء العميق للقضايا العرقية إيجابية نسبياً في ما يخص مسألة التحامل.

الإشارات الأخرى المماثلة قد لا تكون إيجابية بهذا القدر. إن أحد الاعتقادات الثابتة المتعلقة بكثير من مجموعات الأقليات، وخاصة الأمريكيين الأفارقة، هو أن هؤلاء شديداً الاختلاف من حيث المورثات. بالتالي، عندما يدرك بعض الأشخاص أن فرداً ما يحمل إرثاً جينياً «مختلطاً» نلاحظ أن الأمر يكتسب أهمية لديهم. أثناء نقاش جرى بين أفراد مجموعة، لوحظ فيها أن أحد أفرادها «نصفه أسود ونصفه الآخر أبيض»، تحول الموضوع إلى «أنساب الحيوانات»، تبعه نقاش حول «السلالات النقية» للكلاب مقابل «الأنواع المهجنة». في ما بعد، وأثناء نقاش بين أفراد تلك المجموعة، ورد ذكر تبغ الغليون المسمى «نصف بنصف Half and Half». لا أعتقد أن تلك الموضوعات، التي تبدو حرفية في ظاهرها، قد وردت بمحض الصدفة. فتلك الموضوعات الحرفية، التي تتناول «أنساب الحيوانات» و «السلالات النقية» مقابل «الأنواع المهجنة»، وتبغ الغليون «نصف بنصف»، هي إشارات بشكل كلام عميق إلى أحد المشتركين في حديث اجتماعي ما، لوحظ

بأنه يحمل إراثاً جينياً مختلطاً. بعبارة أخرى، إن اختيار تلك الموضوعات للحديث لم يكن صدفة.

لاشك بأن تلك الموضوعات المبطنة لا تقع عند نفس المستوى من الوعي الذي يقع فيه الحديث الاعتيادي حول «المدينة في مقابل الريف»، أو القسم الفقير من المدينة وخدمة الإنعاش الاجتماعي، حيث يدرك الجميع بأن موضوع العرق تجري مناقشته «فعلياً». لقد تم اللجوء لاستخدام الصورة المجازية الكمية «نصف» لأن التفكير المتحامل للبيض كان يؤكد سابقاً - وأعتقد أنه ما زال يؤكد حتى اليوم - أن الأمريكيين الذين يحملون أي أثر، مهما صَغُر، لأصل إفريقي، يُعتبرون سوداً. (من الناحية الفعلية، الشخص «الأسود» ذو البشرة الفاتحة لا يُعتبر مطلقاً نصف أسود، بل الواقع أن الشخص الذي يُعتقد بأنه يحمل أي إراث أمريكي - إفريقي مهما كان، يُعتبر بشكل عام شخصاً أسود فقط). إن استخدام كلمة «نصف» بمعنى مجازي يُعتبر نوعاً غريباً من الرياضيات اللاواعية التي تقوم بجبر الكسور لتصبح أعداداً صحيحة. وهذا الكلام العميق حول مسائل المورثات لا يُعتبر - على أقل تقدير - كلاماً إيجابياً لأنه يُظهر أن العرق أمر مهم لا سبيل لتجاهله. إن الفكرة القائلة بأن هذه النماذج النمطية العرقية لا تزال تمارس تأثيراً حتى اليوم تبدو صعبة القبول لدى كثير من البيض. لكن هذه الفكرة، بالنسبة لمعظم الأمريكيين الأفارقة المتقدمين في السن لا تحمل أية مفاجأة.

نورمان ميلر وجورج پليمپتون ضد جورج فورمان

أثناء قيامي بكتابة هذا الفصل كنت أشاهد فيلماً وثائقياً عن المباراة التي جرت سنة 1974 بين محمد علي وجورج فورمان في زائير، في أفريقيا⁽¹⁰⁾. كان علي، الأكثر شباباً من فورمان، يحاول استرجاع لقب البطولة، فاز علي في المباراة. في الفيلم الوثائقي جرت مقابلة مطوّلة مع كل من جورج پليمپتون والروائي الأمريكي فورمان ميلر، اللذين كانا في زائير لحضور مباراة الملاكمة. جاء على لسان كل من پليمپتون ونورمان وُصفان كان الكلام العميق، الذي يحوي إشارات عنصرية، فيهما واضحاً بالنسبة لي. الوصف الأول - ويغلب أن يكون تعليقاً مبطناً يصعب البت بأمره - جاء على لسان پليمپتون. ورد التعبير خلال وصفه لجورج فورمان، الذي كان حينذاك يتربع على عرش البطولة، بأنه رجل عملاق، صورته، أو شخصه أكبر من الحياة ذاتها، أو شيء من هذا القبيل. مضى پليمپتون قائلاً أن شخصاً من هذا النوع عندما يخسر فهو يبدو كما لو أنه «انكمش» shrink إلى حجم --- (املاً الفراغ ثم انظر فيما يلي). كان هناك عدد لا يستهان به من الكلمات التي يمكن استعمالها لوصف شخص فورمان أو مركزه «المنكمش». كان بإمكان پليمپتون أن يختار كلمة قزم midget أو dwarf، أو أن

يقول بأن فورمان كان سيبدو كما لو أنه انكمش إلى حجم عقلة الإصبع Tom Thump، أو أن يضيف أية أوصاف ترتبط عادة بكلمة «انكمش»، كما كان بإمكانه أن يقول ببساطة أن الرموز التي تكون أكبر من الحياة عندما تفقد مكانتها تبدو كما لو أن قامتها انكمشت، وأن يكتفي بهذا القول، لكنه لم يفعل ذلك.

قال پليمپتون أن فورمان كان ليبدو وكأنه انكمش إلى حجم pygmy. أقزام pygmy. كما هو معروف، هم مجموعة من الأفارقة الذين يعيشون عند خط الاستواء لا يصل طول قامتهم إلى خمسة أقدام. لماذا اختار پليمپتون كلمة pygmy ليصف شخص فورمان المنكمش دون غيرها من البدائل الأخرى الكثيرة؟...

أولاً، كَوْنُ پليمپتون ربيب طبقة اجتماعية - اقتصادية رفيعة، وخريج مدارس خاصة، هارفرد وكينغز كولييدج في جامعة أكسفورد، لا بد وأنه كان مدركاً لتاريخ الإنكليز الطويل في أفريقيا. ثانياً، من الواضح أن كلمة pygmy تنسجم مع التدايعيات العرقية أكثر مما تنسجم الكلمات الأخرى التي اقترحها، كما أن لكلمة «ينكمش» تداعيات نموذج نمطي لآكلي لحوم البشر الذين يقومون بتصغير رؤوس أعدائهم بعد قطعها head- shrinking.

عندما بدأت بوصف الحادثة، قلت بأنها تثير تساؤلات يصعب البت فيها أكثر من الحادثة التي سأصفها في ما بعد

ويعود هذا لعدة أسباب. السبب الأول (أ) فورمان من أصل أفريقي، (ب) المباراة حدثت في أفريقيا. بالتالي، يمكن القول أن كلمة pygmy كانت منطقية تماماً لا علاقة لها بالعرق. هذا التفسير لا يقنعني ولو للحظة، لأن فورمان ليس أفريقياً بل أمريكياً تماماً مثلما أن پليمپتون أمريكي ولكن من أصل أنجلو - ساكسوني. ماذا لو كان فورمان أبيض اللون؟.. هل كان سيقارن بقرم pygmy؟... أعتقد أن الاحتمال بعيد. لقد أُعلن عن المباراة بالقول أنها «دمدمة في الأدغال» rumble in the jungle.

علاوة على ذلك، لا أعتقد أن تفسيري المتعلق بـ «أكلي لحوم البشر الذين يقومون بتصغير رؤوس أعدائهم بعد قطعها» يُعتبر مبالغة في التحليل. فقد أدمج في الفيلم الوثائقي جزء غريب، تكرر أكثر من مرة، يتضمن نبوءة طبيب أفريقي من السحرة بخسارة فورمان. ولنفس الأسباب المذكورة أعلاه، فإن ذاكرتي لا تسعفني (رغم أنني لست من المتحمسين لرياضة الملاكمة) بقصص جرى فيها إدماج وسطاء للقوى الروحية في الأفلام الوثائقية الخاصة بمباريات الملاكمة في الولايات المتحدة. إذاً هل يُعتبر استخدام پليمپتون لكلمة pygmy موقفاً عرقياً؟... لاشك بأنني أعتقد أنه كذلك، لكنني لا أعتقد أنه موقف عنصري أو أنه يعكس تحاملاً بالمعنى السلبي للكلمة. إن استخدام هذه الكلمة يعكس على الأرجح (أ) استشارة آلية لنموذج نمطي عرقي ثقافي، (ب) رغم احتمال أنه يعكس أيضاً

إيماناً عميقاً فعلياً لا واعياً بذلك النموذج النمطي .

في ظل كل المعلومات التي قمت بجمعها عن بليمبتون، لا يبدو الرجل ذا نزعة تميل للتمييز العنصري في سلوكياته اليومية. لكن ما من شك في أن هذه الحادثة تُظهر، على أقل تقدير، أنه بغض النظر عن المواقف العرقية والتحامل بالمعنيين السلبي والإيجابي، فإن العرق أمر مهم لا سبيل لتجاهله. لكن هناك درجات مختلفة من التحامل.

المثال الثاني عن الإصغاء العميق لأفكار عرقية في الفيلم الوثائقي يظهر واضحاً في تعليق أدلى به فورمان ميلر. بعد أن أظهر الفيلم فورمان وهو يضرب كيس التدريب (ذلك «الكيس الثقيل» الضخم) بشكل متتابع في نفس المكان بقوة هائلة، قال ميلر أن ضربات فورمان ذات القوة الهائلة قد تركت في الكيس فجوة بحجم --- (املاً الفراغ ثم انظر فيما يلي) أكرر مرة أخرى، كان بالإمكان استخدام عدد لا يستهان به من الكلمات لوصف حجم الفجوة. بما أن الحدث كان رياضياً، فقد كان بإمكان ميلر القول أن الفجوة كانت بحجم الكرة اللينة softball أو كرة القدم soccer ball لكنه لم يستخدم أيّاً من الكلمتين، بل وصف الفجوة بأنها « بنصف حجم بطيخة صغيرة». لا تنس أن أكل البطيخ يرتبط تاريخياً وتقليدياً بالأمريكيين الأفارقة في الولايات المتحدة. يتعين علينا هنا أن نتساءل مرة أخرى: من بين جميع الأشياء الممكن اختيارها، لماذا وقع الاختيار على فاكهة لمقارنتها بحجم الفجوة. النقطة الثانية، لماذا كانت تلك

الفاكهة هي البطيخ تحديداً؟... لماذا لم تكن الشمام؟...

الأمر الأكثر أهمية في ما يخص تقويم صحة المعنى الذي جاء به الإصغاء العميق هو أن ذهن ميلر كان عليه أن يجعل النموذج النمطي للبطيخة يناسب الحجم الفعلي للفجوة. فحجم الفجوة لم يكن في الواقع كبيراً كالبطيخة العادية، ولا هو بحجم بطيخة صغيرة. كان «نصف حجم بطيخة صغيرة». إن أسلوب التعبير. لقول أن حجم الفجوة كان «نصف» حجم بطيخة «صغيرة» لا بالقول أن حجم الفجوة كان «نصف» حجم بطيخة هو أسلوب غريب. الأمر الذي يحمل مغزى هنا هو أن ذهن ميلر كان يقوم بتقسيم لغوي لحجم البطيخة كي تتناسب والنموذج النمطي. أعتقد أن الأمر لم يكن مصادفة⁽¹¹⁾. لماذا لم يقل «ضعف حجم حبة العنب»؟...

(11) لم يختلف النموذج النمطي المرتبط بالبطيخ. ظهرت قبل بضع سنوات أغنية ريفية شعبية تحكي عن رجل عجوز أسود رمادي الشعر يقوم بمسح بلاط حانة خالية وهو يفكر بالفشل الذي تواجهه معظم المسماعي البشرية. راوي القصة في هذه الأغنية كان «يُفرغ في جوفه كؤوس الويسكي الممزوج». بعد استرجاع أحداث حياته، تنتهي الأغنية بأن يستنتج الرجل الأسود العجوز أن هناك ثلاثة أشياء فقط تتحق أن «ينفق الإنسان ماله لأجلها». الأشياء الثلاثة المذكورة في عنوان الأغنية: «الكلاب السود والأطفال وخمر البطيخ». إذا راجعت بعض الكتب القديمة حول الأمريكيين الأفارقة لوجدت أن السود والبطيخ كانا مرتبطين تاريخياً بشكل وثيق. ما يثير الاهتمام والسخرية هو أن البطيخ ثمرة طبيعية من ثمار صحراء كالاهاري، تم إحضارها إلى أمريكا الشمالية من قِبل المستعمرين الأوربيين والعييد الأفريقيين.

لكن هل يمكن اعتبار هذا التعليق تعليقاً ذا طبيعة عرقية بالمعنى السلبي المتعارف عليه؟... لا أعتقد ذلك، فميلر معروف، منذ سنوات، بأرائه «الليبرالية» و «المتعمّقة» (حتى أنه قام في خمسينيات القرن العشرين بتأليف كتاب أسماه «الزنجي الأبيض»). هنا أيضاً نرى، كما في حادثة پليمپتون أن تعليق ميلر يُظهر على أقل تقدير، وعند مستوى ما، أن العرق يظل أمراً مهماً لا سبيل لتجاهله. إذاً، هل نفهم، على الأقل، من الإصغاء العميق لمقابلتي پليمپتون وميلر بأن هناك استثارة آلية لنماذج نمطية عرقية ثقافية؟... بإمكانك أن تكون على ثقة من ذلك. هل هما عنصريين؟... كلا على الأغلب، على الأقل ليس بالمعنى السلبي.

جدل بشأن «شحيحة»؟...

عرقية أو عنصرية - أم لا؟

في كانون الثاني/يناير من سنة 1999، أثارت ضجة كبرى بشأن حادثة عرقية هددت بالانفجار كانت تتعلق باستخدام كلمة «شحيحة» niggardly في إشارة إلى ميزانية مالية. قد لا تحمل هذه الكلمة، عادة، أهمية تجعلها تحتل عناوين الأخبار، رغم ارتباطها الواضح بكلمة «زنجي» nigger الدالة على الازدراء، حتى لو أخذنا بالاعتبار عصرنا الحالي المليء بالحساسيات الإثنية. لكن الكلمة جاءت على لسان أحد المساعدين البيض في مكتب محافظ مدينة واشنطن أنتوني ويليامز، وهو أمريكي أفريقي. انسحب بعض الأشخاص السود ممن كانوا في

الاجتماع مباشرة احتجاجاً لدى سماعهم كلمة niggardly .

أولت وسائل الإعلام القومية اهتماماً كبيراً لتلك الحادثة . تضمن ذلك مقالين في جريدة نيويورك تايمز، ومقال لأحد المراسلين⁽¹²⁾ وآخر جاء فيه عرض لرأي ستيشن بينكر، وهو عالم عرقي ولغوي من معهد ميتشيغان للتكنولوجيا يحظى باحترام كبير⁽¹³⁾ . كان رأي معظم وسائل الإعلام، شأنها شأن بينكر، أن التعبير الذي تفوه به المساعد الأبيض لا يحمل أي معنى عرقي (نموذج نمطي) أو عنصري (سلبي) . الأهم من ذلك كله أن الجمعية القومية لتطوير الملونين NAACP أصدرت بياناً صحفياً فوراً أقرّت فيه أن استخدام المساعد الأبيض لتعبير niggardly لا يحمل أي معنى عرقي أو عنصري . فالكلمة كما جاء في بيان NAACP، رغم كل شيء تعني «شحيح» ولا تحمل أي ارتباط قواعدي أو تاريخ لغوي يوحيان بأية فكرة عرقية، كما أنها قيلت عن طريق الصدفة لا غير . انتهت الضجة الإعلامية . إذاً، فالأمريكيون الأفارقة الذين تصوّروا أن الكلمة كانت تحمل معنى عرقياً كانوا يعانون جنون الارتياب paranoid لدرجة مفرطة، أو أنهم كانوا على الأقل، يعانون من حساسية فائقة، أليس كذلك؟ . . . أنا لا أعتقد ذلك . على الأقل، ليس تماماً . لقد كانت الكلمة كلاماً عميقاً واضحاً .

(12) نيويورك تايمز، طبعة نيوجانلاند، 29 كانون الثاني/يناير، 1999، A8 .

(13) نيويورك تايمز، 2 شباط/فبراير، 1999 .

من منظور الإصغاء العميق، السؤال المهم الذي تم إغفاله مرة أخرى هو التالي: لماذا جرى اختيار كلمة niggardly بالذات، ضمن هذا السياق بعينه، دون غيرها من المرادفات، خاصة إذا أخذنا بالاعتبار التركيبية العرقية للاجتماع؟... فعلاً لماذا لم تُستخدم كلمة miserly أو tight أو stingy أو tightfisted أو penurious أو penny-pinching أو frugal [وتعني جميعها «بخیل»] وإلى ما هنالك من مفردات؟... هذا هو السؤال المهم الذي يتطلب الإجابة وذلك إذا كان لنا أن نفهم تماماً المدلول العرقي لما حدث في مكتب المحافظ ويليامز.

يتفق معظم علماء اللغة أن القسم الأكبر من استخدامنا اليومي للغة، بما في ذلك الوصول إلى الكلمات وانتقاؤها، يتم بشكل واع. يصدّق هذا بشكل خاص لدى استخدامنا للقواعد المعقدة. (من بين مئات القواعد اللغوية التي تستخدمها كل يوم، كم قاعدة يمكن لك أن تعيد سردها؟ ..) ورغم أن بإمكان علماء اللغة أحياناً أن يوضحوا، على أساس السياق المحيط بالحديث واتساق تركيب الجملة، سبب انتقاء نوع محدّد من الكلمات ضمن حديث ما، إلا أنهم لا يستطيعون تفسير سبب انتقاء كلمة بعينها. هنا مكمن الضعف في محاولة إنكار وجود أي مغزى عرقي لاستخدام المُساعد الأبيض للكلمة niggardly.

هناك ثلاثة تفسيرات مهمة مختلفة لكلمة niggardly ضمن

السياق الذي استُخدمت فيه الكلمة، جرى تجاهلها في غمرة الاندفاع لإنكار وجود أي معنى عرقي خفي. الأول، رغم المعنى التّقني للكلمة، إلا أن استخدام المساعد الأبيض لذلك التعبير قد يشير إلى وجود تحامل عرقي لاواع وذلك لمجرد قيام عقله بانتقاء كلمة شبيهة من حيث شكلها وصوتها بكلمة nigger وهي كلمة niggardly. التفسير الثاني، قد لا يتعدى الأمر مجرد تداع لغوي آلي «بسيط» يعبر عن «إدراك وجود عروق مختلفة» في الاجتماع دون أن يحمل ذلك أي معنى يفيد بوجود تحامل سلبي. في الحالة الثانية، قد تكون الكلمة «ذات مضمون عرقي» لكنها ليست «عنصرية». أي أن العقل قام، عن طريق التداعي لا غير، بالتعبير عن فرق إدراكي- حسي لاحظته ضمن البيئة المباشرة المحيطة به. التفسير الثالث، قد يكون الأمر استثارة آلية لنموذج نمطي ثقافي. سأشرح الآن باختصار كيف توصلت إلى هذه التفسيرات الثلاثة وأبين مغزاها العرقي والاجتماعي.

أشار، ستيفن بينكر، وهو محق في ذلك، إلى أن التشابه في صوت وشكل كلمتي niggardly و nigger يربط بينهما لغوياً عن طريق التداعي. السبب، كما يشير بينكر، هو أن انتقاء أية كلمة خلال حديث ما يتم بواسطة عملية من مرحلتين. المرحلة الأولى، بما أن الكلمات تحمل معانٍ كثيرة، يقوم دماغنا باستعراض (وتدعى هذه المرحلة بالوصول إلى المفردات) جميع المعاني الممكنة لكلمة ما، تلك المعاني التي نعرفها من خبراتنا السابقة. ثم يقوم الدماغ، حسب السياق، باختيار (وتدعى هذه

المرحلة بانتقاء المفردات) المعنى المُفترض انه يناسب السياق الذي يُستخدم فيه، وذلك من بين جميع الاحتمالات الممكنة. كما أشار بينكر، وهو أيضاً على حق، إلى أن مقطع «ar» في كلمة nigg[ar]dly يُلفظ غالباً «er» كما في كلمة nigg[er]dly. لجأ بينكر إلى عرض تلك الحقائق اللغوية ليساهم في التأكيد على انتفاء المعنى العرقي. يبدو ذلك كما لو انه يهدئ من عنفوان القضية العرقية. لكن يبقى هناك نقطة ضعف في هذه النظرية اللغوية.

كما أوضحْتُ سابقاً، إن المدركات الحسية والأحاسيس ومشاعر القلق التي نكثها إزاء موقف أو شخص، تؤثر على اختيارنا اللاواعي للكلمة. لا يمكن لأحد أن ينكر أن اللون الأبيض يختلف عن اللون الأسود من حيث الإدراك الحسي، وأن ينكر أن كثيراً منا لا يزالون يحملون مشاعر قلق متباينة، عند مستويات كثيرة، إزاء ذلك الاختلاف. ما أود قوله هو أن الفروقات العرقية ومشاعر القلق إزاء الموجودين ضمن الاجتماع في مكتب المحافظ «حددت بشكل لاواعٍ عملية اختيار المفردات» التي كانت نتيجتها اختيار كلمة niggardly في ذلك الاجتماع المختلط. من المهم أن أؤكد هنا أنه دون معرفة المزيد عن السياق المتعلق بالمساعد وعن تاريخ الأشخاص المعنيين بالأمر، أعترف بأنه لا سبيل للتأكد إن كان استخدام الكلمة يشكّل ربطاً لا واعياً مع العرق بالمعنى العنصري.

لدى إنكار أي معنى عرقي لكلمة niggardly، تبدو التحليلات صحيحة، بما أن التعريف التقني للكلمة لا يحمل أي معنى عرقي. كما أن التحليل اللغوي الذي يركز على التدايعيات كان صحيحاً أيضاً. لكن من الناحية الثقافية الاجتماعية، أعتقد بأن الإنكار لم يكن صحيحاً. فالعبارة، شأن الكثير من الأمثلة السابقة، تعكس غالباً صوراً عرقية «آلية» مغروسة داخل أذهان معظمنا عن طريق التلقين الثقافي. وسواء كان تعبير niggardly يُعبّر عن موقف عرقي أو عن موقف عنصري، فإنه يحمل، على الأرجح، مغزى في ما يتعلق بالتحامل الثقافي لأنه يُظهر أن صورة كهذه لا تزال مغروسة في أعماق نفوسنا⁽¹⁴⁾. إذاً، رغم أن التعبير قد لا يعني أن المساعد، بصفته الشخصية، يتصف بالعنصرية (رغم أنه قد يعني ذلك، انظر فيما يلي)، إلا أنه، شأن مثال البطيخ، يعكس دون

(14) يبدو أن هذه القصة لن تختفي عن مسرح الأحداث. بعد أكثر من سنة ونصف (16 آب/أغسطس 2000).

عادت القضية لتظهر في برنامج: Crier Today (Catherine) انظر criertoday.com (www.courttv.com/onair/shows)

أعد البرنامج على أساس سلسلة مقالات من Akron Beacon Journal بقلم صحفيين من الفائزين بجائزة بليتز، وهما كارل تشانسلر وبوب داير (انظر www.ohio.com/bj/، كانا قد كتبا عدداً من المقالات حول حادثة niggardly). في إحدى تلك القصص (7 شباط/فبراير 1999) قام رئيس NAACP، جوليان بوند، بالتنصل من تلك الحادثة قائلاً أن الحادثة توضح بجلاء أين وصلنا في ما يخص القضايا العرقية، فحتى «الهفوات التي يجري تخيلها تُقذف مباشرة إلى واجهة الأحداث».

ريب تاريخنا الثقافي المتعلق بالعنصرية⁽¹⁵⁾. أما في ما يتعلق بالإنكار السريع والمتحمس لمغزى تلك الحادثة، من قِبَل معظم الناس، فإن جوابي هو كما قال شكسبير: أعتقد بأنهم يفرون في الإنكار.

الوعول الكبيرة والصيد

في منتصف سبعينيات القرن العشرين كنت عائداً ذات يوم مع صديقي آرون من نزهة في ميناء يُشرف على المحيط قرب كوخ في مين. في تلك الأيام، كان ظهور شخص أسود في المنطقة يعتبر حدثاً نادراً (يمكنني القول أنه لا يزال كذلك نسبياً، أعني أن نسبة السكان السود لا تصل إلى واحد بالمئة). بينما كنا نمر قرب كوخ أحد الجيران كانت العائلة تلعب مباراة تنس في الحديقة، وقد انقسم الرجال والنساء إلى فريقين. بينما كنا نقرب منهم، كانت المباراة على وشك الانتهاء. كنا نمشي قربهم ببطء، ألقينا عليهم التحية فردوا بسرعة وهدوء وقد ظهرت نظرات الدهشة في أعينهم لمراى رجل أسود.

بينما كانوا يحاولون الاستمرار في اللعب، كانوا يلوون

(15) عندما رويت هذه الحادثة وتحليلي لها لأصدقائي وطلابي، كان جواب معظمهم: «روب لماذا لم تكتب مقالاً افتتاحياً حول هذه الحادثة؟...» كان جوابي: «لقد كتبت». لكنه رُفض بطبيعة الحال. رفضته صحيفتان تباع أعضادهما في كل أنحاء البلاد، دون أن أتلقي منهما أي جواب. هذا الرفض، برأي، يقدم دليلاً إضافياً على إنكار المشاكل العرقية في المجتمع الأمريكي.

أعناقهم للنظر إلى صديقي الأسود. ما كدنا نتجاوزهم حتى انتهت المباراة. خسر فريق الرجال، وبدى واضحاً من سيل التعليقات السريعة أنه كانت هناك مراهنات مالية على المباراة. استدار رب العائلة ونظر إلي وإلى آرون وصاح قائلاً: «لقد ذَهَبَ ذلك الدولار» There goes that buck. تعني العبارة حرفياً أنه خسر الدولار الذي كان قد راهن به على المباراة (أو أي مبلغ كان، عبّر عنه بكلمة دولار buck). من منظور الإصغاء العميق، كانت عبارة «لقد ذهب ذلك الدولار buck» تعبيراً عن نموذج نمطي عرقي، وهو هنا يشير على الأرجح، إلى شعور بالتحامل.

إن أحد أقدم النماذج النمطية العرقية هي نموذج الرجل الأسود القوي جنسياً ذي الطبيعة الأقرب إلى الحيوانية. كما أن من المعروف أن ذكور حيوانات الصيد تُعتبر من قِبَل كثيرين بأنها ذات قدرات جنسية فائقة ويشار إليها غالباً باسم الوعول bucks، أي ذكور الغزلان. كما كان يشار إلى ذكور الأمريكيين أهل البلاد الأصليين قديماً باسم الوعول. من المعروف، إذًا، أن الذكور السود من ذوي الأحجام الضخمة - الذين كانوا يعتبرون نموذجاً نمطياً للقوة الجنسية - كان يشار إليهم قديماً باسم الوعول بالمعنى الحيواني ذاته. بالتالي، فإن العبارة الحرفية «لقد ذهب ذلك الدولار/الوعل buck» تشير بشكل مبطن إلى صديقي الأسود بوصفه ذكر وعِلٍ أسود.

أكرر مرة أخرى، علينا أن نسأل لماذا، من بين ذلك العدد

اللانهائي من الاستجابات التي كان بإمكان الرجل الأبيض أن يبيدها، وقع اختياره على عبارة «لقد ذهب ذلك الدولار/الوعل buck» بالذات ليقولها بينما كنا نسير مبتعدين عنه؟... أنا أَسَلَمُ بأن من الشائع استخدام كلمة buck للإشارة إلى الدولار. لكن كان هناك عدد لا يستهان به من الموضوعات أو الكلمات أو العبارات يمكن استخدامها لوصف خسارة الدولار في الرهان. كان بإمكان الرجل القول «لقد ذهب ذلك الدولار» Dollar، أو «لقد خسرنا الرهان». لماذا تلك العبارة بالذات؟... ما هي القاعدة التي تحدد اختيار مفرداتها؟... باعتقادي أن القاعدة التي جرى الاختيار على أساسها هي السياق العرقي غير العادي الذي وجد الرجل نفسه فيه. في ما يتعلق بالمجالين اللغوي والمعرفي فإن تركيبة عميقة، أو صورة تمثيلية عرقية أو مخطط ذاكرة، قد قامت بدور القاعدة التي وضعت تركيبة العبارة ومفرداتها، وهي في هذه الحالة صورة ذكور حيوانات الصيد الضخمة. بالمناسبة كان صديقي يعتبر ضخم الجسم نظراً لوزنه الزائد.

إن أي قاموس، تقريباً، يشرح معاني كلمة buck، التي تعني، ضمن هذا السياق، أحد أنواع الحيوانات، وشاب متهور وتعبير ازدراء يُطلق على رجل من الأمريكيين من أهل البلاد الأصليين أو على رجل أسود. حتى أن هناك تعبير buck fever ويُقصد به شعور الإثارة لدى رؤية الطرائد أثناء الصيد. بعد أن قرأ الناس هذا المثال في كتابي «بين السطور»، قالوا أنه بالرغم

من أن الحادثة ترشدنا إلى كيفية عمل اللغة والعقل، إلا أنها تشير في الوقت نفسه إلى نموذج نمطي عفا عليه الزمن واختفى من حياتنا، بالتالي فهي لا تخبرنا الكثير عن الوضع الحالي للتحامل والنماذج النمطية والعرقية. لا أعتقد ذلك.

منذ أن نشرت كتاب «بين السطور»، صادفت أدلة أخرى أحدث زمناً تدعم تحليلي القائم على أساس الإصغاء العميق لاستخدام كلمة buck ضمن سياق عرقي. تبين تلك الأدلة أن الكلمة لا تزال موجودة ضمن القاموس الثقافي. في كتاب بقلم عالم نفس معروف، يصف المؤلف ما يجري في غرفة الإسعاف في مستشفى Bellevue المعروف في مدينة نيويورك في «ليلة سبت حارة، بقوله: كان المكان «يضج» بالمشاكل «الفجة» للحياة في المدينة». مضى المؤلف يصف المشهد بالقول أن الناس كانوا يتكدسون في الأروقة عندما «دخل مراهق آخر، كان حرفياً قد فقد الصواب لتعاطيه المخدرات». يبدو أن الشاب كان غاضباً وتحت تأثير الكحول والمخدرات، «أخذ «الوعل» buck الشاب يقفز في أرجاء المكان بين المرضى وكأنه «قرد» مفرط النشاط»⁽¹⁶⁾.

رغم أن المقطع المذكور يوضح أنه حتى في تسعينيات

(16) الأقواس حول الكلمات وضعتها أنا. لقد قمت، لدواع أخلاقية (انظر الفصل السادس)، ونظراً لغياب المعطيات القرينية اللازمة لتأكيد صحة هذا المثال، ولأن ذلك قد يؤدي سمعة الكاتب اجتماعياً، قمت بحذف الإشارة إلى الكتاب الذي أخذ المثال منه. سأقدم اسم الكتاب فقط لأغراض خاصة بالأبحاث.

القرن العشرين كان استخدام كلمة buck أمراً وارداً من الناحية اللغوية، إضافة لأن الكلمة كانت تُستخدم لوصف الشبان المُعْتَدِينَ بذكوريتهم، إلا أننا نحتاج لمعلومات أكثر تتعلق بسياق العبارة وذلك لفهم معناها المُرَجَّح. جزء من المعلومات التي نحتاجها هي معرفة أن غرفة الإسعاف في مستشفى Bellevue معروفة بأنها تستقبل السكان الفقراء في المناطق المجاورة للمستشفى من الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين. لدينا هنا، إذاً، مثال من تسعينيات القرن العشرين يبين استخدام كلمة buck لوصف الذكور الشبان من السود (لم أسمع بأن كلمة bucks تستخدم تحديداً لوصف الذكور الشبان من أصل لاتيني). بالنظر، إذاً، إلى أن العالم النفسي يربط استخدام كلمة buck بكلمة «قرد»، وإذا أخذنا بالاعتبار ما يعرفه الجميع من أن عدداً كبيراً من الأمريكيين الأفارقة يأتون إلى غرفة الإسعاف في مستشفى Bellevue يبدو من الواضح، مرة أخرى، أن الكلمة ترتبط تحديداً بالشبان السود. (كما ويُحتمل أيضاً أن يكون ذلك مثلاً صريحاً عن الكلام المرمز بشكل واع).

إضافة لما سبق، علي أن أشير هنا إلى أن المؤلف استخدم كلمة buck بصيغة المفرد لا بصيغة الجمع، وهذا يشكّل، على الأرجح، دليلاً لغوياً مهماً. لا تنس أن المؤلف قال: دخل «مراهق آخر» مما يدلُّ على وجود مراهقين آخرين قبلاً - من خلفيات عرقية متنوّعة على ما يبدو. إذاً، لم يكن المقصود من استخدام كلمة buck بصيغة المفرد الإشارة إلى

الشبان المعتدّين بذكورتهم بشكل عام، لقد كان، غالباً، إشارة إلى مراهق من نوع محدّد: شاب مراهق اسود. هل تُعتبر العبارة عنصرية؟... لا يمكن الإجابة على هذا السؤال بشكل مؤكد دون معرفة مزيد من المعلومات القرينية حول المؤلف. لكنني لا أعتقد أن العبارة هي مجرد استثارة آلية أخرى لنموذج نمطي غرسته الثقافة في الأذهان.

كما حدّرت في الفصول السابقة، ما قد يبدو عنصرياً قد لا يكون كذلك على الإطلاق. الحادثة التالية التي وقعت في عالم الرياضة والتي رُعمَ بأنها حادثة عرقية واهتمت بها الصحافة في ثمانينيات القرن العشرين، تُعتبر مثلاً ممتازاً عن مشكلة الافتراض بصورة آلية بأن تعليقاً ما يُشكّل افتراءً عنصرياً. خلال وصف مفصل لأداء ألّفين غاريت، وهو لاعب أسود في فريق Washington Redskins، قال المعلق الرياضي هوارد كوسيل، يصف اللاعب وهو يركض: «انظروا إلى ذلك القرد الصغير كيف يركض»⁽¹⁷⁾.

لا شك بأن رد الفعل الأولي سيكون اعتبار هذا التعليق إشارة إلى النموذج النمطي للأمريكيين الأفارقة على أنهم ينحدرون من سلالة القردة. أكرر مرة أخرى، إن السود كانوا في العقود السابقة غالباً ما يُشبّهون بشكل علني لا بالوعول فقط بل بالقردة. إذًا، هل يدلّ تعليق كوسيل على وجود نموذج

(17) «اقتباسات شهيرة من هوارد كوسيل»، واشنطن بوست، 24 نيسان/أبريل 1995، الأقواس إضافة من جانبي.

نمطي عرقي شخصي دفين؟... لا على الأرجح. علينا، ثانية، أن نأخذ بالاعتبار سياق هذا التعليق. خلافاً لكثير مما جاء في وسائل الإعلام الشعبية، لم يكن التعليق ذا طبيعة عرقية بالنظر للسياق الشخصي لاستخدام كوسيل للعبارة: يبدو أن كوسيل كان كثيراً ما يستخدم هذه العبارة لا ليصف اللاعبين البيض فقط، لكنه كان يستخدمه أيضاً ضمن محيطه العائلي لوصف الأطفال وهم يركضون. الواقع أن هذه العبارة تشكل جزءاً من اللغة اليومية الدارجة نستخدمها لوصف الأطفال الذين يستطيعون الركض بسرعة فائقة.

لكن تعليق كوسيل يمكن أن يكون عرقياً بمعنى أنه يرتكز على نموذج نمطي ثقافي للأمريكيين الأفارقة تجري استشارته بشكل آلي، وحتى لدى استخدامه للإشارة إلى الأطفال، فإن كلمة «قرد» لا تزال ترتبط بأسلافنا من «الرئيسات» primates، ألا تعتقدون ذلك؟... أو أنها ترتبط بالسود كونهم يشبهون الأطفال، كما كانت الفكرة القديمة السائدة ضمناً؟... أخيراً، بما أن كوسيل لم يكن يستخدم العبارة طوال الوقت، يبقى السؤال لماذا كان «بشكل آلي / بشكل لاواع» يختار استخدامها في مواقف بعينها.

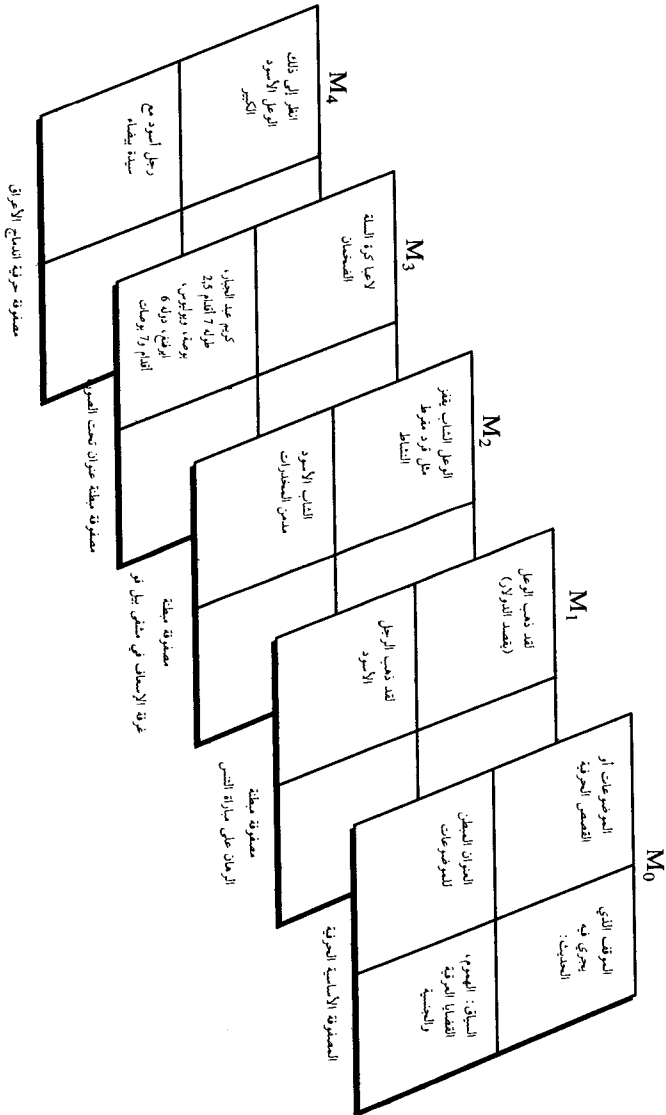
إذا كان هناك من لا يزال يعتقد بأنني أبالغ في تأويل مغزى استخدام كلمة buck، التي عفا عليها الزمن، إذاً ليقرأ ما يلي وليفكر في ما يقرأ.

لاعب كرة السلة الضخمان

استقيت هذا المثال من أحد أعداد مجلة People لسنة 1992. كان هناك صورة للاعبين كرة سلة أسودين معروفين وهما كريم عبد الجبار، الذي يبلغ طوله 7 أقدام و 2,5 بوصة ويوليوس «Dr. J» ايرفنج، ويبلغ طوله 6 أقدام و 7 بوصات، وهما بوضع مواجهة يخيف فيه كل منهما الآخر (انظر الشكل 9 - 1). كان المقال المرفق بالصورة يتحدث عن الرواتب الكبيرة التي يتلقاها نجوم لعبة كرة السلة (يعني ذلك ضمناً للاعبون السود). كان التعليق الموجود تحت الصورة، بحروف سوداء بارزة، هو التالي: Big Bucks Basketball. أكرر هنا أنني أعرف أن عبارة Big bucks تعبير دارج معناه «مبلغ وفير» big money. كما أعرف أن Dr. J يلعب لصالح فريق Milwaukee Bucks، لكن هاتان الحقيقتان لا تغيران من عملية الإنتقاء النفسية التي أتحدث عنها، بل إنهما تسهمان في هذه العملية.

كانت هناك عبارات كثيرة يمكن اختيارها للعنوان. (كان هناك عنوان آخر لنفس الصورة. انظر فيما يلي). هل كان الكاتب يعي المدلولات العرقية / العنصرية لهذا العنوان، هذا ما لا أستطيع تأكيده. هناك معنيان مختلفان يُمكن فهمهما من هذا المثال، يمثل كلاهما نماذج نمطية عرقية. الأول هو أن العنوان Big Bucks هو المعادل، من منظور الإصغاء العميق، لمثال there goes that buck، أي أنه يعكس نموذجاً نمطياً لا واعياً. الاحتمال الثاني هو أن الكاتب كان يعرف تماماً ما كان

الشكل 9 - 1: مخطط مصفوفة Buck المروّجة



يقوم به وقد خطر له أن ذلك قد يمر دون انتباه من جمهور القراء، فالكتاب والفنانون غالباً ما «يزلّون» بإشارات خفية بشكل واع ضمن أعمالهم.

هناك مثال أحدث عهداً على استخدام كلمة buck للإشارة إلى ذكر أمريكي أفريقي. جاء المثال في نشرة الأخبار المسائية سنة 1999⁽¹⁸⁾. كان مذيع قناة NBC ينقل تقريراً عن سير عملية البحث عن المشتبه بأنه قام بتفجير عيادة الإجهاض، إيريك رودولف البالغ من العمر واحداً وثلاثين سنة (الذي لا يزال يختبئ في منطقة جبلية وعرة مكسوة بالأحراج). أُجريت مقابلة مع زوجة شقيق رودولف، ديبورا رودولف، وصفته ديبورا بأنه كان يُكنّى مشاعر تحامل عرقي. ثم أضافت بتردد، كدليل على قولها - كان بإمكانك أن تلاحظ بوضوح مدى إحراجها لاضطرارها إلى قول ما كانت بصدد قوله - أنه في كل مرة كان يرى فيها رجلاً وسيدة من عرقين مختلفين سوية، وحيث تكون السيدة بيضاء اللون، كان يُعلّق قائلاً: «انظروا إلى هذا الوعل الأسود الضخم». بخلاف الأمثلة الأخرى، لا مجال هنا للخطأ في ملاحظة المعنى العرقي المقصود بشكل واع في هذا الخبر، وفي ملاحظة تداول استخدام كلمة buck للإشارة إلى الذكور الأمريكيين الأفارقة⁽¹⁹⁾. لم تنته بعد قصة big bucks.

(18) NBC، أخبار المساء، 27 تموز/يوليو 1999.

(19) إذا كنتم لا تزالون بحاجة لمزيد من الحجج لإقناعكم بأن النموذج النمطي للذكر الأسود، وهو أنه «وعل» يحمل طبيعة حيوانية، لا يزال سائداً، =

أرباح صافية: مبلغ وفير

استُخدمت نفس الصورة التي تُظهر كريم عبد الجبار ويوليوس Dr. I إيرفنج في أحد مقالات عدد سابق من مجلة Time، لكن دون عنوان⁽²⁰⁾ Big Bucks Basketball كان العنوان هنا كالتالي: «أرباح صافية» Net Profits. إن التورية/ العبارة المزدوجة المعنى لكلمة net في هذا العنوان كانت دون شك تورية واعية تشير طبعاً إلى المال و إلى الشبكة net المحيطة بالحلقة التي تمر منها الكرة. إن العمليات النفسية المسؤولة عن هذه العبارة الحرفية ذات المعنى المزدوج، هي غالباً نفس العمليات التي كانت وراء العنوان البديل الذي جاء في ما بعد في مقال مجلة PEOPLE، وهو Big Bucks Basketball.

إذا أخذنا بالاعتبار المعنى المزدوج، الواعي بشكل واضح، في هذا العنوان، فإننا لن نتجاوز حدود المنطق إذا قلنا أن المعنى المزدوج لعنوان Big Bucks Basketball، إذا لم يكن قد كُتب بشكل واع، يكون عندها قد جاء، ولو على الأقل «كزلة»، نتيجة النزعة المعتادة لوضع مثل هذه العناوين ذات

= ما عليكم سوى البحث في الإنترنت تحت عنوان «وعل أسود كبير» وستجدون مجموعة من المواقع الإباحية المليئة بالنماذج النمطية الجنسية المعروفة للذكور السود.

(20) «أرباح صافية»، تايم، 13 كانون الثاني/يناير 1992، ص 64. أود أن أشكر طالبتني السابقة ماري دوناهو لعثورها على هذه الصورة وهذا العنوان.

المعنى المزدوج. وبما أنني قد درست مادة الصحافة في الكلية لفترة وجيزة، فقد تعلّمتُ أن استخدام العبارات ذات المعنى المزدوج كان أمراً شائعاً. إذا أخذنا كل ذلك بالاعتبار، فإننا لن نتجاوز حدود المنطق لدى افتراض وجود معنى عرقي لا واع كامن في أعماق عنوان Big Bucks Basketball.

يبدأ المقال بالقول أن كرة السلة هي من ثوابت كل «باحة مدرسية ذات أرضية مشققة» في البلاد. عبارة «باحة مدرسية ذات أرضية مشققة» هي بالتأكيد إشارة نمطية إلى أطفال الغيتو (أعني السود هنا) الذين يلعبون كرة السلة بأمل أن يصبحوا نجوماً يوماً ما. من الواضح أن هذه العبارة تبدو كلاماً مُرمّزاً في ما يتعلق بالمسألة العرقية. وقد أوضحت سابقاً أن النموذج النمطي للذكور الأمريكيين الأفارقة وقواهم الجنسية يشكل خلفية المقال بكامله.

هناك ارتباط جنسي آخر في المقال وهو ذُكر حفلة تبرعات خيرية أقامها التلفزيون ضمن حفلة لمكافحة الإيدز، وقد ذُكر اسم ماجيك جونسون تحديداً، لاعب كرة السلة الأسود الذي أصيب بالإيدز نتيجة ولعه بالمغامرات الجنسية مع النساء حسب اعترافه هو.

إذا بدا معنى الكلام العميق لهذا المثال «مبالغة» في التفسير، يتعين علي أن أوضح هنا أن هذا التحليل يتطابق على أقل تقدير، مع نمط التداعيات الكلامية الذي أثبتته الأبحاث

المخبرية الجارية لأكثر من مئة سنة⁽²¹⁾.

سأقوم الآن بالإشارة إلى ثلاث نقاط أخيرة من المقال، قد تبدو لكم مبالغة في التفسير. أولاً، استُخدم تعبير top scorer ball's - b للإشارة إلى عبد الجبار، هل كان تكرار حرف b في الإشارة إلى عبد الجبار Jabbar الذي يحوي اسمه حرفي b مجرد صدفة؟...

ثانياً، جاء في المقال أن كريم عبد الجبار ويوليوس إيرفنج كانا يتنافسان على جائزة تبلغ قيمتها ستة أرقام. إذا أخذنا بالاعتبار ما أوضحته حتى الآن في هذا الكتاب، هل كان من قبيل الصدفة أن كلاً من الأسماء J, U, L, I, U, K, A, R, E, E, M, J, A, B, B, A, R, S, E, R, V, I, N, G يضم ستة أحرف، مما يوفر رابطة معرفية عميقة أخرى مع الكلام العميق؟... ربما. لكنني أشك بذلك. إن هذا المثال الذي لا تخفى غرابته يوضح نفس نوع الآلية المعرفية التي شرحتها في الفصل الخاص بالأعداد.

أخيراً، لنقلب في أذهاننا الفكرة التالية. هناك إمكانية أن يكون عنوان NET PROFITS، الذي نُشر أولاً، قد أدى إلى وضع العنوان الثاني BIG BUCKS. فمحرورو المجلات غالباً ما يقومون

(21) من أجل نسخة حديثة من البحث المتعلق بدور التداعيات النفسية، انظر آ. ج. غرينوالد، د. ي. ماكفي، ج. ل. ك. شوارتز، «قياس الاختلافات الفردية في المعرفة الضمنية: اختبار التداعي الضمني»، Journal of Personality and Social Psychology 74 (1998): 1464 - 1480. see also

<http://buster.cs.yale.edu/implicit/>

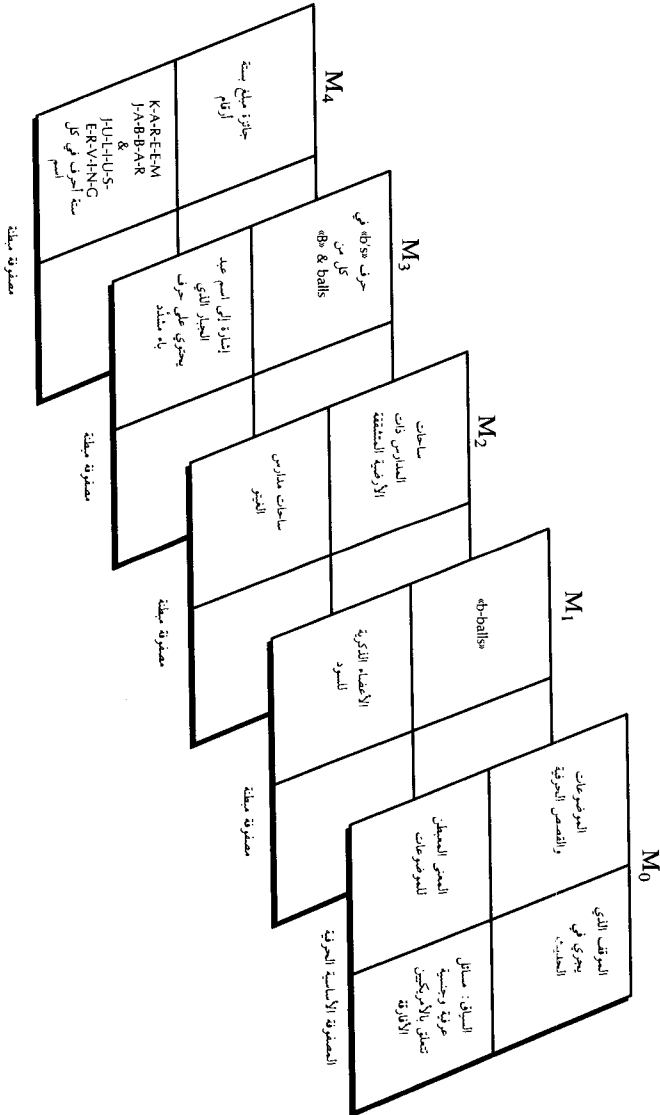
بتقليب صفحات المجلات الأخرى، و القصص من هذا النوع تضمّر، عند أقل تقدير، إشارات عرقية مبطنة كما أنها تكشف مشاعر قلق ثقافية تتعلق بالعرق. لكنها، في أسوأ الحالات، قد تكشف مشاعر تحامل شخصية⁽²²⁾. انظر الشكل (9 - 1).

الاستشارة الآلية للنماذج النمطية في مقابل الاعتقادات السلبية التي تتضمن مشاعر تحامل

أشرت، خلال هذا الفصل، إلى بعض أشكال الكلام العميق حول الأعراق على أنها لا تعكس بالضرورة تحاملاً بالمعنى السلبي من جانب الشخص المتكلّم، بل تعكس استشارة

(22) منذ أن نُشر كتابي «بين السطور»، شعرت بالدهشة عندما لاحظت أنه نظراً لأنني أوردت كثيراً من الحوادث العرقية وشرحت تداعياتها اللاواعية، فقد ظن بعض القراء بأنني لا بد وأن أحمل شعوراً بالتحامل. وإلا فكيف، برأيهم، تمكنت من الوصول إلى تلك النماذج النمطية وتلك الانطباعات والأفكار العنصرية الكثيرة وتعرفت إليها واستطعت الاندماج بها؟... هذا الانطباع يجعلني أشعر بالانزعاج الشديد، ليس فقط لأنه غير صحيح، بل لأنه خاطئ من الناحية المنطقية. جوابي على سبب تعرفي إلى كل تلك الأمثلة هو التالي: أولاً، إن مهنتي كعالم اجتماعي ومعرفي تجعل معرفة تلك القضايا الخاصة بالعرق والجنس أمراً من صميم عملي. ثانياً، لقد نشأت في زمن كانت فيه المشاعر العرقية أكثر قبولا منها الآن. بالتالي، امتلأ مخزوني الفكري الثقافي بالأساطير والصور والنماذج النمطية والعرقية. ثالثاً، إن كون أعز أصدقائي وزملائي لما يزيد عن عشرين عاماً رجلاً أسود قد جعلني أكثر حساسية تجاه القضايا العرقية. أخيراً، لقد علمني صديقي الكثير عن المشاعر العرقية.

الشكل 9 - 2: مخطط مصفوفة «b-balls» وستة أرقام» المركبة»



آلية لنماذج نمطية ثقافية مغروسة في الأذهان.

قبل أن أسهب في الشرح، سأحاول أن أوضح قدر الإمكان ماذا أقصد بقولي أن بعض الملاحظات التي تبدو في ظاهرها عنصرية، ليست كذلك من حيث الواقع. أنا هنا لا أحاول تبرير التحامل العرقي أو تقديم مسوغات عقلانية للأشخاص العنصريين تبرر آراءهم ومواقفهم المتحاملة التي تتبدى من خلال زلات اللسان أثناء الكلام. صحيح أن الملاحظات غير المقصودة قد تعكس أحياناً عنصرية لا واعية، لكنها، أحياناً أخرى، قد لا تعكس ذلك. رغم ذلك، فهي غالباً ما تعكس عنصرية عند مستوى ما. ما أحاول أن أقوم به هنا هو وضع قدرٍ من التوازن، نحن بأمس الحاجة إليه، ضمن مسألة التحامل. هذه هي الطريقة الوحيدة المؤدية إلى إيجاد حل لتلك المسألة. إن فقدان التوازن من قِبَل كلٍ من الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين البيض في ما يخص هذه المسألة، هو ما يشكل، جزئياً، سبب إخفاقنا في إيجاد حلٍ لها.

في بدايات أبحاثي المتعلقة بالمعاني المبطنة، اكتشفت أن بعض ما كان يبدو وكأنه تعليقات عنصرية لم تكن فعلاً كذلك، أو أنها لم تكن نتيجة تحامل، كما نفهمها عادة. قلت في إحدى مقالاتي: «إن الإصغاء بأسلوب منهجي يتسم بالمعرفة اللغوية إلى تقارير شفوية عَرَضِيَّة بشكل جلي، لا يزال يواصل كَشْف بقايا تكثيف عرقي، تنشط حالياً عند المستوى الشخصي وتُعتبر ذات طبيعة «لا وظيفية» vestigial «عند المستوى

النفسية»⁽²³⁾ الكلمة التي تحمل أهمية في هذه الجملة هي «لا وظيفية». في علم الأحياء يشير هذا التعبير إلى جزء من الجسم ربما كانت له وظيفة في ما مضى، لكن لم تعد له حالياً أية وظيفة. الزائدة الدودية تُعتبر عادة جزءاً لا وظيفياً في الجسم. يجب أن نفهم هذا الفرق ليس فقط من أجل تحليل الأحاديث المبطنة والبرهنة على صحتها، بل - وهو الأهم - لكي نفهم حقيقة التحامل.

إن أسلوبِي الذي يعتمد على الإصغاء العميق في مقارنة دراسة المعنى اللاواعي ودور اللغة قد أُعدَّ خصيصاً ليناسب استعمالات الحياة اليومية. ورغم أنني قد قمت بتطوير طريقة منهجية شاملة لتحليل الإصغاء العميق وللتحقق من صحة هذا التحليل، كما هو الأمر مع كل فكرة جديدة، إلا أن وجود نتائج أبحاث تتعلق بتلك الفكرة وتُعزّزها - وبخاصة تجارب مخبرية - يُعتبر على الدوام سِمة جيدة. فالنتائج المترتبة على تجارب مخبرية جرى التحكم بشروطها تُعتبر عادة ذات طبيعة علمية «حقيقية». منذ أن بدأتُ ألاحظ التعبيرات اللاوظيفية عن النماذج النمطية العرقية، تم إجراء بعض التجارب اللافتة التي تشرح تحليلي للتحامل العرقي اللاواعي وتدعم هذا التحليل. بالنسبة للأشخاص الذين يحملون قناعة مسبقة بوجود تحامل لا

(23) انظر ر. ي. هاسكيل، «المعرفة الاجتماعية واللغة والتعبير اللاواعي عن الإيديولوجيا العرقية»، الخيال والمعرفة والشخصية 6 (1986-1987): 75، الأقواس إضافة من جانبي.

واع، تظل هذه التجارب مصدراً لسحر لا يقاوم. أما بالنسبة للمتشككين بفكرة قيام العقل اللاواعي بإيجاد معان خفية وبالتأثير على سلوكنا، فقد تساعدهم نتائج الأبحاث التي تحدثت عنها.

هناك دراسة قديمة، لكنها معبرة، أُجريت سنة 1976 من قِبَل بيرت دانكان من جامعة كاليفورنيا، أجراها على طلاب Irving⁽²⁴⁾. عرض على الطلاب شريط فيديو يُظهر رجلاً أبيض ورجلاً أسود منشغلان بنقاش هادئ. في النسخة الأولى من الشريط بدا الرجل الأبيض وهو يدفع الرجل الأسود قليلاً. في النسخة الثانية، بدا الرجل الأسود وهو يدفع الرجل الأبيض قليلاً. لدى عرض النسخة الأولى، وصف 13٪ فقط من الطلاب الحادث بأنه عمل عنيف. لدى عرض النسخة الثانية، وصف 73٪ من الطلاب الحادث بأنه عمل عنيف. إذا كان بعض القراء يعتقدون بأن هذه النتيجة تعكس مواقف عفا عليها الزمن، عليهم الاطلاع على الدراسات المذكورة في ما يلي. لكن دعوني أولاً أُعَلِّق على العمليات الذهنية التي يُفترض بأنها تشكل أساس هذه الدراسة.

تُعتبر العمليات المعرفية التي تشكّل أساس نتائج هذه التجربة شبيهة بالعمليات المتضمّنة في اختبار Rorschach الشهير

(24) ب. ل. دنكان، «الإدراك الاجتماعي المتباين وإيجاد سبب العنف ضمن المجموعات: اختبار الحدود الدنيا لوضع النماذج النمطية للسود».

أو ما يدعى باختبار بقعة الحبر، حيث يُطلب من الأشخاص أن يقولوا بـمَ يَذكُرُهُم شكلُ بقعة حبر. كما أن العمليات المعرفية المذكورة شبيهة باختبار شهير آخر، وهو اختبار إدراك الفكرة الأساسية عن طريق الترابط Thematic Apperception Test T.A.T. حيث تُعرض على الأشخاص صورٌ تتسم بالغموض والالتباس ويُطلب منهم أن يتخيلوا، ماذا يحدث في تلك الصور. الفكرة هنا، أنه عندما يكون الموقف مُلتبساً (أي يمكن أن يحمل أكثر من معنى) فإن الأشخاص «يُسْقِطون» معنى ما على الصورة من داخل العقل اللاواعي لديهم. بعبارة أخرى، إن شاباً يحمل خوفاً لا واعيّاً من السلطة قد يستجيب لصورة T. A. T.، تُظهر شاباً واقفاً أمام مكتب يجلس إليه شخص أكبر سناً، بقصة تدور حول طالب تم استدعاؤه إلى مكتب المدير ليتلقى توبيخاً. بينما نجد، في المقابل، أن شاباً لا يحمل مخاوف من هذا النوع بشأن السلطة، قد يحكي قصة طالب يناقش حَدثاً رياضياً مع المدرّب.

تنطبق نفس العمليات على التجربة المذكورة آنفاً التي تتضمن عرض شريط فيديو يحمل فكرة ملتبسة نوعاً ما، فالتحامل اللاواعي ينعكس على النسخة التي تُظهر الرجل الأسود يدفع الرجل الأبيض. لقد أظهرت تجارب أخرى كثيرة أن الأشخاص الذين يحملون ضمن العقل اللاواعي نماذج نمطية وتحاملاً، يميلون غالباً لإسقاط تحاملهم بشكل واضح لدى عرض صور ملتبسة عليهم، وذلك إذا كانوا في حالة غضب أو

على عجلة من أمرهم أو كانوا يشعرون بإجهاد نفسي. يبدو أننا، تحت وطأة شروط كهذه، نعاني نكوصاً regress معرفياً نرتد فيه إلى مخاوفنا اللاواعية.

يأتي الآن دور التجريبتين الأخريين اللتين تُظهران التحامل اللاواعي. تم ربط متطوعين بيض، يعتقدون بأنهم لا يحملون مطلقاً أي شعور بالتحامل بأقطاب كهربائية electrodes تقوم بتسجيل النشاط الدقيق لعضلة الوجه⁽²⁵⁾. عُرضت عليهم صور لأشخاص بيض وأشخاص أمريكيين أفارقة وطلب منهم أن يتخيلوا قيام تفاعل بينهم وبين هؤلاء وأن يختاروا من يفضلونهم من بينهم. معظم الذين أشاروا إلى أنهم يفضلون أمريكيين أفارقة، كذبَهم عضلات وجهم - عند مستوى ما على الأقل. عندما عُرضت على الشاشة صور أشخاص سود، سجّلت العضلات المسؤولة عن تقطيب الوجه، لدى المتطوعين، نشاطاً أكبر من نشاط العضلات التي تُستخدم للابتسام، وعندما عُرضت صور أشخاص بيض اختلف الوضع. أُجريت نفس التجارب مع التركيز على الجنس والعمر، كانت النتائج هي ذاتها. الواقع أن نتائج الأبحاث متشابهة في ما يتعلق بكل

(25) انظر، مثلاً، ي. ج. فانمان، ب. ي. بول، ت. آ. إيتو، ن. ميلر، «الوجه المعاصر للتحامل والجوانب البنيوية التي تعدّل تأثير التعاون على الإحساس».

شخص لا يُعتبر فرداً ضمن المجموعة التي ينتمي إليها المتطوع.

ضمن الظروف التجريبية، يُعتبر التحكم الواعي بالاستجابات العضلية من هذا النوع أمراً شبه مستحيل. أسلوب قياس النشاط العضلي ليس بالأسلوب الجديد، فنحن نعرف منذ وقت لا بأس به أننا إذا فكّرنا، مثلاً، مجرد تفكير بضرب مسمار بالمطرقة فإن هناك نشاطاً دقيقاً لا يمكن كشفه بشكل واع يظهر في عضلات ذراعنا وأصابعنا، كما لو أننا نقوم فعلاً بضرب المسمار بالمطرقة. ويبدو كما لو أننا نُبرِّق Telegraph بشكل لاواع بنوايانا عند مستويات عدة وبشأن عدة أمور. إن تجارب من هذا النوع لا توضح فقط وجود عمليات لا واعية، بل توضح أيضاً أن بإمكان تلك العمليات اللاواعية أن تؤثر على سلوكنا وأحكامنا الصريحة.

في تجربة أخرى مع مجموعة من المتطوعين، قام الباحثون بعرض كلمات أو صور على شاشة، كان العرض يجري بشكل سريع بحيث لا يتمكن المتطوعون بشكل واع من «رؤية» ما يظهر على الشاشة (يدعى هذا الأسلوب «التلقين الأولي» priming). بإمكانكم ملاحظة مدى شبه هذا الأسلوب مع عملية الإدراك عند مستوى ما دون الوعي subliminal. كانت الصور والكلمات المعروضة تُمثّل أقلّيات عرقية. مع مجموعة أخرى من المتطوعين، لم تُعرض صور على الشاشة. قام الباحثون بعد ذلك بإثارة غضب المتطوعين ثم طرحوا عليهم

سلسلة من الأسئلة الحيادية. المتطوعون الذين كانت قد عُرضت عليهم صور رجل أمريكي أفريقي كانوا أكثر ميلاً للاستجابة بطريقة عداوية للأسئلة المزعجة من المتطوعين الذين كان قد استثير غضبهم دون أن تُعرض عليهم صور تحمل فكرة عرقية⁽²⁶⁾.

هناك دراسة أحدث قام بها أنتوني غرينولد وزملاؤه في جامعة واشنطن. فقد قام بتطوير طريقة تدعى اختبار التداعي الضمني (I.A.T.) استخدم فيها أسماء نموذجية - نمطية عرقية ترتبط بالبيض أو بالسود⁽²⁷⁾. كانت نتيجة دراسته، المصممة بدقة فائقة، أن البيض اختاروا (فضلوا) بشكل لا واعي (بشكل آلي) أسماء البيض، وربطوا بها خاصيات إيجابية، بينما ربطوا خاصيات سلبية بأسماء السود. وقام غرينولد أيضاً بتطوير اختبار مماثل باستخدام صور لأشخاص

(26) انظر، مثلاً، ج. آ. بارغ، م. تشين، ل. بوروز، «أثوماتيكية السلوك الاجتماعي: التأثيرات المباشرة لعملية استثارة السمة المغروسة والنموذج النمطي على الفعل»،

Journal of Personality and Social Psychology 71 (1996) : 230-244.

ب. ويتنبريك، س. م. جود، ب. بارك، «دليل على التحامل العرقي عند المستوى الضمني وعلاقته بإجراءات الاستطلاعات». Journal of Personality and Social Psychology 72 (1997) : 262-274.

(27) آ. ج. غرينوالد، د. ي. ماكفي وج. ل. ك. شوارتز، «قياس الاختلافات الفردية في المعرفة الضمنية: اختبار التداعي الضمني»،

Journal of Personality and Social Psychology 74 (1998): 1464- 1480 see also: <http://buster.cs.yale.edu/implicit/>.

بيض وأشخاص سود. إن هذه التجارب يمكن اعتبارها بمثابة تأييد لفكرتي المتعلقة بالإصغاء العميق للقضايا العرقية.

النتيجة هي أن الفكرة القائلة بأن مشاعر القلق العرقية اللاواعية لا تزال تسكن فينا، هو أمر يجب أن يظل خارج نطاق المناقشات العقلانية⁽²⁸⁾.

(28) بعد تقديم هذا البحث الاختباري حول «التلقين»، لكم أن تحكموا على ما يلي: بعد الضجة التي أثارت بشأن حادثة «niggardly» التي ذكرتها سابقاً، لم يذكر أحد تقريباً من الصحفيين أن المساعد الأبيض كان شاذاً جنسياً، واعتقد أنه كان تصرفاً سليماً لأن هذه الحقيقة لا تحمل أية أهمية في ما يخص الحادثة. كما أن مسألة الشذوذ الجنسي لا تقل إثارة للمشاعر عن القضية العرقية. في نفس السلسلة من المقالات التي نُشرت في أكرون بيكون جورنال (29 تشرين الثاني/ديسمبر 1999) لم تجر الإشارة إلى أن المساعد الأبيض كان شاذاً جنسياً. على أية حال، لا أعتقد أن ما نُقل على لسان من اتهموا المساعد بالشذوذ الجنسي بأنهم سلكوا السبيل الخاطئ ولم يتصرفوا كما يجب، كان مجرد صدفة. كما جاء العنوان في إحدى الصحف كالتالي «الاعتذارات تأخذ اتجاهاً معاكساً في مدينة واشنطن» مع ما يحمله من إشارة ضمنية إلى شيء ما يأخذ منحى مخالفاً. لا أود التعليق بل أود أن أسأل: لماذا استخدمت تلك الكلمات بعينها ضمن هذا السياق من بين مئات الكلمات، على الأقل، التي كان بالإمكان استخدامها؟... أنا لا أشعر برهاب من الجنس المماثل لي لكنني، شأن من يشعرون بذلك، تعرضت لكثير من المعاجم والنماذج النمطية الثقافية. (انظر الملاحظة رقم 22).

9

التصرف العميق: تجاوز الخطوط الحمراء؟...

هناك شيء ما يحدث هنا، لكن ماهيته ليست واضحة تماماً
مقابل القيمة الحقيقية

مثلاً يقوم عقلنا اللاواعي بالكشف عن نفسه عن طريق الإصغاء العميق، يقوم أيضاً بالكشف عن نفسه عن طريق سلوكياتنا أو تصرفاتنا. كتب فرويد وآخرون غيره عما أسموه «زلات التصرف»، وقدم فرويد عدداً من زلات التصرف من هذا النوع في كتابه القيم الممتع «علم النفس المرضي في الحياة اليومية». كما كتب دونالد نورمان، وهو شخصية محترمة معروفة في مجال علم النفس، كتب بشكلٍ مستفيض عن زلات التصرف⁽¹⁾. يُعتبر معظمُ الباحثين هذه الزلات كالأخطاء

(1) انظر د. آ. نورمان، «سيكولوجية الأمور اليومية» (نيويورك: هارپر =

الكلامية، مجرد غلطات بسيطة، كأن تفتح باب الثلاجة، مثلاً، بدل باب الفرن. لكن فرويد يعتبرها شبيهة بزلات اللسان الكلامية التي تكشف عن معانٍ لا واعية. تذكرون أنني أشرت في الفصل السادس إلى زلة كتابية ذكرها فرويد تكشف خفايا نفس طبيب قاتل. لكن هذا الفصل يتناول ما هو أكثر من زلات التصرف، فهو يتحدث أيضاً عن التحليلات المبالغ فيها للمعاني اللاواعية. في المقطع الأخير من هذا الفصل، سأقدم تحليلاً لمعاني لا واعية ظاهرة كُشِفَتْ في رسالة شهيرة لطلب الفدية. سأبدأ بتقديم بضعة أمثلة بسيطة عن التصرف العميق.

يمكن العثور على زلات التصرف، غالباً، في المقالات الصحفية. أثناء إجراء مقابلة معي لكتابة مقال في إحدى الصحف حول فكريتي المتعلقة بالإصغاء العميق، سألني المراسل عدة مرات إن كنت أحاول تصيّد أي «زلات» تحمل معانٍ لا واعية قد يرتكبها هو خلال الحديث. كان شديد الفضول بهذا الشأن، بل كان، إن شئتُ التزام الدقة، شديد القلق. قلت له: «لا، لم ألاحظ أية زلة». ولكن عندما ظهر المقال في الصحيفة كان يحوي زلة تصرف واضحة. ضمّن المراسل مقالَه حادثة من نوع الكلام العميق تناولت قضية الجنس gender. عندما نشرت القصة في الصحيفة، حلّت كلمة genetics (التركيب الوراثي)

= كولينز، (1988)، د. آ. نورمان «تصنيف زلات التصرف»، سايكولوجيكال ريثيو 88 (1981): 1 - 15 انظر أيضاً د. نورمان، «زلات ما بعد فرويد»، سايكولوجي تودي، نيسان/أبريل 1980.

محل كلمة gender عن طريق الخطأ، كما يُفترض. برأيي أن هذه الغلطة لم تكن مجرد غلطة مطبعية آلية بسيطة. لنفكر فيها بالشكل التالي: بعد المقطع الأول gen، يتطلب الأمر استخدام اليد اليسرى فقط لكتابة المقطع الثاني من كلمة gender أي der، بينما تتطلب طباعة بقية مقاطع genetics، أي etics، استخدام كلتا اليدين، مرتين وليس مرة واحدة فقط.

إضافة لذلك، كلمة genetic ليست بالكلمة الخارجة تماماً عن الموضوع بحيث يجري استبدالها بأخرى سهواً. لأن تركيبنا الوراثة genetic، رغم كل شيء، هي التي تحدد مفهوم الجنس gender (على الأقل هذه هي الفكرة السائدة). إن ما تعبّر عنه زلة التصرف هذه، على الأرجح، هو أن من ارتكبتها، كائناً من كان، لا يؤمن - مثلما يؤمن كثيرون في وقتنا الحاضر - بأن الفروق بين الذكور والإناث ناتجة إلى حد كبير عن التعلم أو عن الحياة الاجتماعية، وذلك كما توحي به كلمة gender (مدلول الكلمة التقني هو الدور الاجتماعي)، بل يؤمن بأن الفروق بين الذكر والأنثى هي فروق طبيعية أي ناتجة عن التركيب الوراثي genetically.

كثيراً ما تكون الكلمات المكتوبة بخط اليد غير مفهومة إلى درجة أننا عندما نحاول طباعتها فإن أحرفها الغامضة تصبح أشبه باختبار Rorschach، أو باختبار بقعة الحبر المعروف، ليقوم من يطبع تلك الكلمات بإسقاط معانيه اللاواعية الخاصة على أية كلمة غامضة. يصحّ هذا بشكل خاص في حال المواد

المحمّلة بمعان عاطفية أو مثيرة للجدل. لدى طباعة بعض ملاحظاتي المكتوبة بخط اليد والمتعلقة بفصل كنت أقوم بكتابته، أخطأت السيدة التي كانت تقوم بالطباعة في قراءة كلمة psychically وطبعت بدلاً عنها psychually. هل تشير هذه الكلمة فكرة بعينها في الأذهان؟... يجب أن تفعل ذلك، وبخاصة إذا قُرأت بصوت مرتفع بدل الاكتفاء بالنظر إليها.

إذا لم يتبادر أي شيء إلى أذهانكم، دعوني أقدم لكم شيئاً عن السياق المحيط بهذا المثال عن التصرف العميق. أولاً، من المهم أن نذكر هنا أن السيدة التي تقوم بالطباعة نادراً ما ترتكب أغلاطاً مطبعية، أو «أخطاء»، من هذا النوع. فرغم صعوبة قراءة خط يدي، إلا أنها تكتشف عادة ما أقصده أو أنها تترك فراغاً على الصفحة. في هذه المرة، لم تفعل ذلك. ثانياً، الملاحظات التي كانت تقوم بطباعتها كانت تخص فصلاً يتناول الإصغاء العميق ضمن المجال العرقي والتحامل. ثالثاً، وهو الأمر الأكثر تحديداً، كانت الملاحظات تتعلق بالنماذج النمطية التاريخية للذكور السود.

أردتُ اختبارها فسألتها إن كان هناك أي شيء ما محدد قد استرعى انتباهها بشأن تلك المجموعة من الأحرف، ألقْتُ نظرة فضولية على الأحرف، ثم قالت: «لا». أضافت أنها عندما كانت تقوم بطباعة الكلمة ظنّتها أولاً physical، طلبتُ منها أن تلقي نظرة أخرى على الكلمة. لكنها لم تتوصل لإدراك معناها المبطن، ولكن عندما طلبتُ منها أن تلفظ كلمة psychually

بسرعة، قالت والدهشة تملأ عينيها: s-e-x-u-a-l-l-y.

كلمة psychually كانت إذاً دمجاً لأربع أفكار لا واعية. الفكرة الأولى تتعلق بشيء جسدي physical، الفكرة الثانية تتعلق بشيء جنسي sexual، التي تتماشى بالطبع مع «جسدي». الفكرة الثالثة، بما أن موضوع الملاحظات كان تعبيرات بواسطة الكلام العميق عن إشارات عرقية تتعلق بالذكور السود، فقد أثارت الكلمة بشكل آلي في ذهنها تداعيات جنسية. الفكرة الرابعة، نظراً لأنها كانت تعرف جيداً نظريتي المتعلقة بالمعاني العميقة، فإنني أعتقد أن قيامها بطباعة مقطع psych يمكن أن يكون تسرباً لاوعياً لإدراكها العميق للتداعيات العرقية. وإلا، لماذا لم تجمع بين ما اعتبرته بشكل واع كلمة physical وبين الكلمة اللاواعية sexual، لينتهي بها الأمر إلى طباعة الغلطة على الشكل التالي: phy-ually أو phys-ually؟... كما أن الكلمات التي تبدأ بأحرف phy أو phys تبدأ بالصوت f الذي لا يعطي صوت S اللازم الذي يعطيه مقطع psych. كما أن أيّاً من المقطعين phy أو phys لا يعطي الوقفة خلف الحلق التي تحدث لدى لفظ كل من psych و sex(u)al، وهي الوقفة التي تعطي، لدى اقترانها بالمقطع ually، المُعادِل الصوتي لكلمة sexually.

زلة التصرف المبطن هذه لا تعني بالضرورة أن السيدة التي قامت بالطباعة تحمل شعوراً بالتحامل، الاحتمال الأكبر هو أن الزلة كانت تعكس - كما رأينا في الفصل التاسع - استثارة آلية

لنماذج نمطية جنسية ثقافية للذكور الأمريكيين الأفارقة.

المعاني المبطنة، إذاً، يمكن التعبير عنها لا عن طريق الكلمات فقط بل عن طريق الكلمات المكتوبة أيضاً. فكما رأينا منذ قليل، ليست الأغلاط المطبعية بالضرورة «أغلاطاً» آلية، بل يمكن لها أن تكون ترجمةً معانٍ مبطنة إلى «زلات» أصابع. هنا تصبح أصابعنا، لا لساننا، هي من يقوم بتسليم البضاعة. في المثال التالي، سنرى عملية أكثر دقة جرت فيها ترجمة الفكرة إلى تصرف لا يتسم بالدقة والبراعة.

تجاوز الخطوط الحمراء؟...

سأكون صريحاً تماماً في ما يتعلق بهذا المثال. المثال التالي على التصرف العميق يقوم على التخمين والخيال، وهو يقع تماماً على الحدود الفاصلة ما بين كونه ممكن الحدوث تماماً، من جهة، وبين كونه مثلاً على ما ينبغي تجنُّبه لدى القيام بتحليل المعاني اللاواعية، من جهة أخرى. لكن التحليل يظل، مع ذلك، ضمن الجانب المقبول من التفكير. على أية حال، من حيث المبدأ (أو بشكل نظري) يُعتبر التحليل سليماً، أما في ما يخص صحته، فأنا لا أستطيع البت في ذلك، وجلّ ما أعددكم به هو أنه سيثير اهتمامكم.

المثال غريب بشكل استثنائي لدرجة أنني أدرجته تحت عنوان منفصل خاص به. لدى قراءتكم لهذا الكتاب لا شك بأنكم صادفتُم عدة أمثلة عن الإصغاء العميق تستحق أن توصف

بأنها غير مألوفة أو غريبة، لكن المثال التالي يمكن وصفه بأنه عجيب أو غريب دون أن أكون مبالغاً. أقصد أنه غريب لدرجة لا تُصدّق. رغم ذلك، فقد فرض نفسه علي بالقوة، ستكونون أنتم الحكم.

أوردت مجلة Journal Sentinel في ميلووكي قصة رجل اتّهم بأنه ضرب أباه على رأسه فكاد أن يودي به⁽²⁾. يبدو أن الرجل كان قد قضى عدة أيام دون طعام أو ماء أو نوم منكباً على العمل في أطروحة لنيل درجة ماجستير كان يعدها ضمن مجال عمله كمدرس للفنون الصناعية. رغم الطابع المأساوي البشع للقصة، كما وردت، إلا أنه لم يبد أن هناك شيئاً غير اعتيادي في ما يتعلق بالجريمة المزعومة، عدا أن الرجل حاول قتل والده، مع أن ذلك لا يبدو شديد الغرابة في أيامنا هذه.

بينما كنت أقرأ خلفية الخبر، بدأت أشعر بوخزات المعاني المبطنة المحتملة. اتصلت بالمراسل الذي بعث لي بتقرير الشرطة كاملاً⁽³⁾. كان الرجل مدرساً في مدرسة ثانوية قريبة يقطن في شارع روبيكون Rubicon. فقد كانت أطروحة درجة الماجستير التي يعدها تتناول التكنولوجيات والثقافة وتحمل نزعة دينية قوية، فقد كانت تشتمل على اعتقاد مفاده أن بالإمكان قتل

(2) جورنال سنتينال، 28 تموز/يوليو، 1998.

(3) أوجه الشكر لكيث إدواردز، المراسل الذي نقل القصة، لإرساله تقرير الشرطة.

الأشخاص والاجتماع بهم مرة أخرى في العالم الآخر. وفقاً لتقرير الشرطة، كان الرجل يعتقد بأنه إذا قتل ابنته الصغيرة، فلا بد أن هناك أمّاً في مكان ما من العالم ستقوم بقتل ابنها الصغير، الأمر الذي سيؤدي إلى اتحاد الأضداد الكونية بطريقة أو بأخرى مما يحمل الخير للعالم.

يبدو أن أفكار تلك الأطروحة قد استحوذت على الرجل إلى درجة وصل معها، كما قال والده، إلى مرحلة بدأ يفكر فيها بإثبات صحة معتقداته، وبدأ يتحدث عن قتل عائلته لإثبات صحة نظريته.

أثناء نقاشه مع والده بشأن الأطروحة، أشار الرجل إلى كيس مضارب الغولف الموجود في المرآب. عندما تبعه والده إلى المرآب، هاجم المدرس والده. قد يخطر بالبال أن الرجل ضرب والده على رأسه بمضرب غولف سحبه من الكيس. لم يهاجمه بمضرب الغولف بل استخدم البلطة. هل كان استخدامه للبلطة مجرد صدفة؟ ... لا ... على ما أعتقد. لكنني لدى متابعة قراءة تقرير الشرطة، بدأت أعي بوضوح الطبيعة المبطنة المحتملة لهذه القصة: عند مستوى ما، هناك احتمال بأن يكون اختيار الرجل للبلطة في محاولة قتل والده قد جرى تحت تأثير لاواع، أي أن اختياره مكوّن من المادة ذاتها التي تتكون منها زلات التصرف التي وصفناها في المقطع السابق من هذا الفصل والمادة ذاتها التي وصفناها في الكتاب بشكل عام. لكننا نلاحظ هنا وجود نزعة تتسم بالغرابة. لتأمل السياق التالي الذي يكتنف الحادث.

أولاً، اسم البلدة التي جرت فيها الحادثة هو Menomonie، وهو مشتق من لغة Ojibwe التي كان يتكلم بها سكان أمريكا الأصليون، كما أن البلدة مشبعة بروح ذلك التراث. ثانياً، كان الرجل يعمل مدرساً في المدرسة الثانوية في البلدة، وتدعى Arrowhead (رأس السهم). ثالثاً، رغم أنه لم يتضح من سياق القصة إن كانت أطروحته الخاصة بدرجة الماجستير واعتقاده بأن الأشخاص سيعودون بعد الموت للاجتماع بأقربائهم في العالم الآخر، إن كانا بالتحديد قد أخذوا من التراث الشعبي لسكان أمريكا الأصليين أم لا، إلا أن اعتقاداً كهذا يتفق عموماً مع جزء من التراث الروحي لبعض سكان أمريكا الأصليين. رابعاً، البلطة هي، بالطبع، أداة ترتبط عادة في الولايات المتحدة مع «الهنود الأمريكيين». والواقع أننا نرى البلطة، في عدة قواميس، مرتبطة لغوياً مع فأس التوماهوك Tomahawk، وهو بلطة ذات ذراع قصيرة كانت تستخدمها عدة شعوب من سكان أمريكا الأصليين. لدينا هنا قالباً من التدايعات الخاصة بتراث وثقافة سكان أمريكا الأصليين.

إذاً، استخدام الرجل للبلطة قد لا يشكل صدفة محضة. إذا لم تتضح الأمور لكم حتى الآن، فإن رأيي هو التالي: هناك إمكانية أن يكون ذهن الرجل الغارق في الأوهام واقعاً تحت تأثير البيئة المحيطة به المُثقلة بثقافة «الهنود الأمريكيين» وبمعتقداتهم الدينية وبتراثهم، إضافة لتأثير لغة Ojibwe، مع ما تتضمنه من أسماء مثل Menomonie واسم مدرسته الثانوية

Arrowhead، ومعرفته بفؤوس التوماهوك. لماذا، إذاً، لم يلجأ الرجل لاستخدام أحد مضارب الغولف كسلاح، بدل البلطة؟...

فوق كل ما ذُكر، كان الرجل في حالة أشبه بالهذيان بسبب حاجته للطعام وللنوم. بالإضافة لذلك، وإذا أخذنا السياق العام بالاعتبار، يراودني تساؤل عما إذا لم يكن اسم الشارع الذي كان يعيش فيه الرجل قد ترك أثره بشكل لا واع على أوهامه المتعلقة بالعبور من الحياة إلى الموت؟... هل نسيتم أنه كان يعيش في شارع Rubicon؟... لقد اكتسبت كلمة rubicon معنى عبور أو تجاوز حد لا رجعة عنه⁽⁴⁾. أكرر، هل كان ذلك صدفة؟... ربما. لكن عليكم أن تلاحظوا: إن تصورات هذا الرجل وتداعياته هي تماماً من النوع الذي يشير إليه الفصاميون العصاييون غالباً في أوهامهم وهلوساتهم.

دعوني أقول هنا إنني أعني تماماً بأن تحليلي لهذه القصة يبدو مبالغة في التفسير، إن لم نقل أنه يثير الضحك لسخافته. لكنه، إذا اقترن بنتائج أبحاثي المتعلقة بالمعاني المبطنة، فقد لا أكون قد بالغت في تفسيره كما قد يبدو للوهلة الأولى. سبق ورأينا في الفصل الأول أن معتقداتنا اللاواعية إضافة للظروف وللأحداث المادية، كآلات التسجيل، وبقية الأحداث الأخرى

(4) سنة 49 ق. م. قطع يوليوس قيصر وجيشه نهر روبيكون في شمال إيطاليا الأمر الذي أدى لاندلاع حرب أهلية.

لا تنطبع فقط في اللاوعي لدينا لتحدد ما نقول، بل يمكن لها أيضاً أن تستثير تصرفات سلوكية.

هل تذكرن أيضاً تلك المناقشة التي فُتح أثناءها الباب قليلاً وبدأ شخص كان في الردهة «يسترق النظر إلى داخل الغرفة»، صادف بعدها أن قام رجل باختيار قصة تحكي عن «فأر كان يسترق النظر إلى المرآب». بما أن المتحدث لم يكن يعي أن حادث فتح الباب واستراق النظر كانا وراء اللغة التي استخدمها، يبدو إذاً أن هذا السياق قد صاغ سلوكه أو أنه أثر عليه (سأقوم استخدام كلمة سبب). لقد لاحظتُ تصرفات أخرى «سببتها» بشكل لاواع أحداث جرت في البيئة المباشرة التي جرى فيها الحديث. والواقع أن نتائج أبحاثي في مجال المعاني المبطنة قد بُنيت جميعها على أساس إدراك «دون مستوى الوعي»، من هذا النوع، لأحداث تؤثر على كل من اللغة والسلوك.

يمكن اعتبار تصرفات الإنسان التي تكمن خلفها «أسباب» مبطنة على أنها تنتمي إلى نفس النوع من الظواهر التي تنتمي إليها الإيحاءات التي تتلو التنويم المغناطيسي. عندما ينوم الشخص مغناطيسياً يمكن أن يوحى إليه بالقيام بتصرف ما - كأن يحك أذنه اليسرى مثلاً - دون أن يتذكر ذلك الإيحاء عندما يعود إلى وعيه. لدى سؤاله لاحقاً عما دعاه لحك أذنه اليسرى، فإنه لن يدرك السبب الحقيقي لتصرفه. لكن الفرد غالباً ما يأتي بسبب ما، كأن يقول مثلاً لأن أذنه كانت بحاجة للحك أو يقدم أي مبرر آخر.

أذكر أنني في أحد الأيام تركت ما كنت أكتبه وقلت لزوجتي إنني أعتقد بأن علي إخراج القمامة من المنزل. قالت زوجتي: «لقد طلبتُ منك أن تفعل ذلك قبل خمس دقائق». لم أكن أذكر أنها قد طلبت مني إخراج القمامة، لكن طلبها كان قد تم تسجيله في ذهني عند مستوى دون الوعي وقام بدور الإيحاء الذي يتلو التنويم المغناطيسي.

إضافة لذلك، فإن التصرفات ذات «الأسباب» المبطنة يمكن اعتبارها أيضاً على أنها تنتمي إلى نفس النوع من الظواهر التي تنتمي إليها «أبحاث التحريض دون الواعي»⁽⁵⁾ Subliminal Activation Research. تشمل تلك الأبحاث تطبيقَ محرّض عند مستوى يقع دون مستوى وعي الأشخاص ومن ثم مراقبة تأثير ذلك المحرض على سلوكهم. قد تذكر بعض التقارير التي تحدثت عن تجارب أجريت قديماً في دور السينما حيث كانت تومض على شاشة العرض عبارة «اشترُوا الفوشار» أو «اشترُوا كوكا كولا» بسرعة فائقة بحيث يفوت على الناس إدراكها وذلك لزيادة مبيعات الكوكا كولا والفوشار⁽⁶⁾. رغم الهجوم الذي

(5) حول طبيعة هذه العملية - وجوانبها المثيرة للجدل، انظر ن. ف. ديكسون، «الإدراك ما دون الواعي: طبيعة الجدل» (لندن: ماكجرو - هيل، 1971)، ن. ف. ديكسون، العمليات السابقة للوعي (نيويورك: ويلي آند سانز، 1981).

(6) ه. برين. «تكنولوجيا الخداع الخفي تكاد تصل إلينا: الخدع الجديدة التي تعتمد العمليات ما دون الواعية تقدم لرواد السينما الدم والجماجم والفوشار»، لايف، 31 آذار/مارس 1958، ص 102.

تعرضت له تلك التجارب، إلا أنه تم إجراء الكثير من الأبحاث المتعلقة بالمحرضات ما دون الواعية التي كان لها نتائج أكثر إيجابية، رغم أنها لا تزال تثير جدلاً حتى الآن⁽⁷⁾.

بإمكاننا أيضاً شرح التصرف المبطن انطلاقاً من بحثٍ يلقي قبولاً ويتناول ما يُسمى بتأثيرات التلقين priming effects⁽⁸⁾. يتضمن التلقين عموماً، على غرار الأبحاث المتعلقة بالمستوى ما دون الواعي، عرضاً بصرياً - لنقل مثلاً - لكلمة «قبيح» مُرفقة ببعض الصور التي تُعرض على الشاشة عند مستوى ما دون الوعي. يجري عرض صور أخرى عند مستوى ما دون الوعي دون أن ترافقها كلمة «قبيح». ثم يجري عرض جميع الصور بحيث يمكن للشخص أن يراها بصورة عادية، يُطلب من الشخص أن يقيّم الصور على أنها لطيفة أو غير مقبولة. نجد

(7) ل. ه. سيلفرمان وج. وينبيرغر، «أنا وأمي شخص واحد»، أمريكيان سيكولوجيست 40 (1985): 1296-1308، ر. ي. هاسكيل، «البنية المنطقية وعلم النفس المعرفي للأحلام»، في ر. ي. هاسكيل، تحرير، «بحث في الأحلام والمعرفة»، New York: Institute of Mind and Behavior, 1986, 215 - 248 س. سولبيرغ، آ. بيلينغهيرست، س. نيلين، «تعديل تغير المزاج بعد التحريض التكافلي دون الواعي: أربع تجارب تساعد على إزالة الغموض من نتائج أبحاث سيلفرمان «أنا وأمي شخص واحد»، Journal of Research in Personality 32 (1998): 33-54.

(8) انظر مثلاً، ج. آ. بارغ، م. تشين، ل. بوروز «أنوماتيكية السلوك الاجتماعي: التأثيرات المباشرة لعملية استشارة السمة المغروسة والنموذج النمطي على الفعل»، Journal of Personality and Social Psychology 71 (1996): 230- 244.

هنا أن الصور التي جرى تلقينها عند المستوى «دون الواعي» مرفقة بكلمة «قبيح» تم الحكم عليها بصورة واعية بأنها أقل قبولاً بالمقارنة مع الصور التي لم تُرفق عند المستوى «دون الواعي» بكلمة «قبيح». هناك احتمال، إذاً، ألا أكون قد تجاوزت الخطوط الحمراء لدى تحليل عملية القتل بواسطة البلطة.

بما أنني قد وضعت نفسي في مأزق كهذا وانتهى الأمر، لا أستطيع مقاومة الرغبة في إبداء ملاحظة ترتبط إلى حد ما بهذه الفكرة وتتعلق بدلالة أسماء العلم في ما يخص من يحملون تلك الأسماء. أتساءل عن مدى دور الصدفة في كون أحد أشهر قضاة المحكمة العليا والعلماء القانونيين في الولايات المتحدة يحمل اسم Learned Hand [اللمسة البارعة المثقفة] هل كان لاسمه تأثير على طموحاته؟... كما أنني أتساءل عن الجدل الذي ثار مؤخراً بشأن استنساخ البشر وبشأن العالم (أو المحتال؟...)، الذي تصدر اسمه الصفحات الأولى من الصحف والذي يريد أن يباشر فوراً بعملية استنساخ البشر رغم أنه عالم فيزياء وليس بعالم أحياء biologist، أتساءل إن كان من قبيل الصدفة أن يحمل هذا العالم اسم Richard Seed. هل تحدث ظواهر كهذه نتيجة الصدفة أم أن بالإمكان اعتبار بعض العقول - لا أقصد بالطبع جميع العقول بل قلة من صفوة العقول - بأنها تشكّل أمثلة أكثر عمومية على التأثيرات المعرفية المبطنة التي أتحدث عنها؟...

المثالان الأخيران على التواصل اللاواعي الجلي مأخوذان عن كتابين لطبيبي نفس من «المدرسة الفرويدية». أقدمهما كمثال على مشكلة تفسير المعنى اللاواعي دون وجود طريقة منهجية للتحقق من ذلك المعنى. والواقع أن هذين الكتابين يُعتبران بمثابة درس عملي في كيفية «عدم» تحليل المعنى اللاواعي وذلك بالمقارنة مع الأمثلة التي قدمتها عن الإصغاء العميق.

جون بينيت رامزي: رسالة من تحت الأرض

لا شك بأن عدداً قليلاً منا فقط لم يسمع بقصة الطفلة جون بينيت رامزي، ذات الست أعوام، التي قُتلت في منزلها في بولدر - كولورادو، بتاريخ 26 كانون الأول/ديسمبر من سنة 1996. لا تزال هذه القضية التي لم تتكشف غوامضها تأسر خيالنا كما أنها لا تزال تشغل وسائل الإعلام. هناك كتاب اسمه «أمٌ تفقد طبيبتها A Mother Gone Bad» يتناول هذه القضية ويدّعي أنه يفضح اسم القاتل عن طريق كشف اعتراف لا واع زُعمَ بأنه كامن ضمن نص رسالة طلب الفدية⁽⁹⁾. يشير الكتاب، على أساس ذلك، إلى أن قاتل جون بينيت هو أمها، باتسي بينيت.

(9) آ. ج. هودجز «أم تفقد طبيبتها» (بيرمنغهام)، آلاباما: فيليدج هاوس
پابليشرز 1998

باعترقادي أن هذا الكتاب، الذي وضعه أندرو ج. هودجز، وهو طبيب نفسي ذو نزعة «فرويدية»، يُعتبر مثلاً شائناً على عملية كشف المعاني اللاواعية ورمزاً للمسؤولية المهنية المخزية. المفارقة في الأمر أن فرويد كان ليتفق معي في هذا الرأي (انظر الفصل التاسع). باختصار، الكتاب هو «درس عملي يبعث على الخزي في تجنّب تحليل التواصل اللاواعي أو المبطن». سأقدم بضعة أمثلة فقط من الكتاب، لكنها ستكون كافية «لتشرح كيفية تجنّب» تحليل المعاني اللاواعية ولتشرح السبب الذي يجعل وجود طريقة منهجية أمراً ضرورياً من أجل تحليل المعاني اللاواعية بشكل صحيح.

لكي لا تظنوا بأن هذا التفسير «الفرويدي» لرسالة طلب فدية جون بينيت هو مجرد رمية عشوائية ضمن مجال الطب النفسي، سأنتهي هذا الفصل بتحليل كتاب وضعته طبيبة نفسية أخرى تدعى أيضاً بأنها كشفت معانٍ عرقية لاواعية. أود الإشارة هنا إلى أن أياً من الكتّابين لم يجر تأليفهما خلال مرحلة البدايات الساذجة في تطور التحليل النفسي، بل جرى تأليفهما مؤخراً. كما أود الإشارة إلى أن المؤلفين، كونهما طبيبان نفسيان، حائزان على درجة الماجستير ويُفترض أنهما تلقيا تدريباً في منهجية البحث. إن كلا من الكتّابين «أوراق إيزيس» The Isis Papers و«أمّ تفقد طبيعتها» يبدو أشبه بطب نفسي فَقَد عقله. لكم أن تحكموا بأنفسكم.

من أين أبداً؟... في ما يتعلق بسياق النص، أود الإشارة

إلى أنه حتى ولو ثبت أن باتسي رامزي قد قتلت ابنتها فعلاً، فإن هذه الحقيقة لا تؤيد صحة تحليل المؤلف لرسالة طلب الفدية. لدى تحليل جريمة ما، في العادة، من المهم اكتشاف الدافع. السؤال الآن هو التالي، ما الذي قد يدفع باتسي لقتل ابنتها؟... الفكرة الأساسية هي أن باتسي قتلت جون بينيت عندما اكتشفت أن زوجها جون كان يعاشر الطفلة جنسياً، ثارت ثائرتها وقتلت ابنتها جون بينيت. أما سبب امتناعها عن قتل زوجها فيفترض أنه يعكس شعوراً بالتنافس مع ابنتها والتماهي identification مع زوجها. في ما يخص الأهداف التي أسعى إليها، فإن هذا الجانب من الموضوع لا يعنينا. الآن كيف لنا أن نعرف من رسالة طلب الفدية، التي اكتشفت في المنزل، أن باتسي هي القاتلة؟... الأمر كالتالي.

تم إخفاء الدليل على الاعتراف «الحقيقي»، كما جاء في كتاب هودجز، ضمن نص رسالة طلب الفدية، وقد كُتِبَ هذا الاعتراف الخفي بشكل لا واع وأُرسل إلى الشرطة لإعلامهم بالقاتل. تبدأ الرسالة بطلب القاتل المزعوم من القارئ أن «يصغي بدقة». يقول هودجز أن هذا في حقيقة الأمر ما هو إلا العقل اللاواعي لباتسي، يكتب، مخاطباً رجال الشرطة، قائلاً إنهم إذا «أصغوا بدقة» فإن الرسالة ستكشف لهم عن اعتراف القاتل (باتسي).

كما يدّعي هودجز أن عبارة «اتبعوا إرشاداتي» ما هي إلا تعليمات لرجال الشرطة مفادها أنهم إذا أولوا الرسالة اهتماماً

فائقاً فإنها ستقودهم إلى جون وپاتسي⁽¹⁰⁾. تشير الرسالة إلى «عُصبة أجنبية صغيرة» قامت باختطاف جون بينيت، يقول هودجز أن هذه العبارة تشير بشكل لاواع إلى «ذلك الجزء الغريب داخلهما الذي يبدو صغيراً لكنه اندفع خارجاً في النهاية ليرتكب عملاً مأساوياً رهيباً»⁽¹¹⁾. أحد الأسباب التي جعلت المؤلف يدرك أن كاتب الرسالة امرأة كان خطأ إملائياً. فكلمة: أعمال bussiness بتهجئتها الخاطئة تحملنا على التفكير بكلمات buss (قبلة)، bustle (أرداف مستعارة)، bust (صدر المرأة). حقاً؟... لقد قام المؤلف بتغيير مهنة جون رامزي وأعماله الناجحة ليجعل منها kissiness بدّل business، مما يحوّل رامزي من ذكّر يتسم بالعدوانية إلى شخصية أنثوية رقيقة. الآن، من اين للمؤلف أن يتأكد من صحة تفسيره؟...

إنه متأكد من صحة هذا التفسير لأنه يقول: «إنه ينسجم مع الزلة السابقة في نفس الجملة، التي تعني في جوهرها: «نحن (لا) نحترم أعمالك». إذا شعرتم بالحيرة، فثقوا بأنني أشعر بالشيء ذاته. الأمر لا يقتصر على عدم وجود أية قاعدة موضوعية يمكن على أساسها ربط الخطأ الهجائي في bussiness بكلمات buss، bustle، bust، وبكلمة kissiness، بل إن قول المؤلف بأن ذلك ينسجم مع عبارة سابقة تعني في جوهرها

(10) المكان نفسه، 120

(11) المكان نفسه، 7

«نحن لا نحترم أعمالك» ليس صحيحاً من حيث الواقع. إن العبارة السابقة تقول فعلياً: «نحن نحترم أعمالك، لكننا لا نحترم البلاد التي تخدمها هذه الأعمال»⁽¹²⁾. لقد أضاف المؤلف كلمة «لا».

لكي يدعم تفسيره، يرينا المؤلف صورتين إحداها صورة باتسي والأخرى صورة جون بينيت وهما ترتديان أردافاً مستعارة. علينا ألا ننسى هنا أن كلمة «ردف مستعار» bustle جاءت نتيجة تداعيات حرة خطرت في ذهن المؤلف، تم اشتقاقها بطريقة ما من كلمة bussiness التي كتبت بشكل خاطئ، لكن هذه الكلمة لم تظهر في الرسالة نفسها. يتابع المؤلف تحليله إلى ما لا نهاية. كل ذلك كان مجرد مقدمات. لا شك بأن الدليل الذي يقدمه لا يرقى إلى المستوى الذي يجعله جديراً بإطلاق جولة حقيقية من الإصغاء العميق.

هناك «زلة» قلم واضحة أخرى في رسالة طلب الفدية وهي التهجئة الخاطئة لكلمة posession التي يقول عنها المؤلف أنها ترتبط بكلمة poses «يتخذ وضعية»، وهو ما كانت تقوم به باتسي وابنتها في حفلات عروض ملكات الجمال. كما ويخبرنا المؤلف أن هذه الكلمة المكتوبة بشكل خاطئ تتضمن كلمة posse «جماعة لإقرار النظام»، وأن «باتسي كانت تعرف بأن جماعة لإقرار النظام كانت تبحث عنها». حقاً؟... يُنهي

المؤلف بعد ذلك تحليله الخاص مؤكداً: «ما يلفت النظر هنا هو أن القاتلة في الكلمتين اللتين أخطأت في تهجئتهما أضافت حرف s إلى كلمة bussiness وحذفت حرف s آخر من كلمة possession. ثم يخبرنا بأن ذلك يتماشى مع أسلوب باتسي في محاولة إضافة شيء ما كالأرداف المستعارة مثلاً وذلك للتعويض عن نقص ما⁽¹³⁾.

يضيف هودجز أن هناك تواصل لا واع آخر يكشف عن أمور خفية، وهو استعمال كلمة attaché، التي تحمل فوق الحرف السابع علامة تشديد مثل اسم جون بينيت John Benét. إذا لم يقنعكم كل ذلك بأن باتسي هي من كتب الرسالة، فإن المؤلف يقول إن الفكرة التالية ستقنعكم: هل لاحظتم أن كلمة attaché تشترك مع كلمة JonBenét بالقافية ذاتها⁽¹⁴⁾. هناك المزيد ولسوء الحظ. في رسالة طلب الفدية، النقطة التي جاءت بعيدة عن نهاية الجملة تعني أن كاتب الرسالة إنسان فقد صلته بالواقع. هنا أشعر بأنني أحتاج إلى مهلة لبعض الوقت!...⁽¹⁵⁾ (يبدأ المرء بالتساؤل: من هو الذي فقد الصلة بالواقع فعلاً؟...)

هناك ما هو أكثر، يدّعي المؤلف أن استخدام علامات

(13) المكان نفسه، 14، الأقواس مضافة.

(14) المكان نفسه، 22

(15) المكان نفسه، 28

التعجب - التي يؤكد جازماً بأنها رسوز ذكّرية - تعبّر عن أفعال دراماتيكية كالوقوف على المنصة في حفل استعراض ملكات الجمال، وأن وجود ثلاث علامات تعجب في الرسالة هو إشارة إلى الأشخاص الثلاثة المعنيين بالأمر وهم باتسي وجون وجون بينيت. كما يقول لنا أن هذه العلامات تُظهر لنا طبيعة باتسي العنيفة وتعبّر عن انفجار غضبها وقيامها بقتل ابنتها⁽¹⁶⁾. ويقول أيضاً أن هناك دليل آخر يساعدنا على تحديد هوية القاتل وهو الإشارة إلى «تسليم/وضع» delivery نقود الفدية، ويبدو أن ذلك يشير ضمناً إلى الأنوثة، كما هو الحال في عملية الولادة!... كما يخبرنا أيضاً أن الإشارات في رسالة طلب الفدية إلى المصرف bank والتسليم/الوضع delivery تعني أن «باتسي ضبطت زوجها وهو يعتدي على جون بينيت - يسلبها أئمن ما لديها، أي يسرق من «المصرف». «يضيف المؤلف أن هذه الفكرة قد جاءت نتيجة للحجج التي أوردها سابقاً، وبأنها «تبقى ضمن نفس المعنى الرمزي: «المصرف» يرمز للمرأة، والمرأة التي نتكلم عنها هي جون بينيت»⁽¹⁷⁾. تجملوا بالصبر، رجاء، فأنا مضطر، بكل بساطة، لمتابعة هجومي على الأمثلة التي يقدمها هودجز.

برأي هودجز أن العبارة التالية الموجودة في الرسالة: : «إذا جرى...» «العبث» بالنقود فسوف تموت الطفلة». تكشف أن

(16) المكان نفسه، 65

(17) المكان نفسه، 29

پاتسي وجون قد «عبثاً» بجسد جون بينيت الصغير⁽¹⁸⁾.

الآن، ما رأيكم بالفكرة التالية، يقول هودجز أن كاتب الرسالة قد أخطأ تهجئة كلمة kindergartner فكتبها مع حرف زائد (أي كالتالي kindergartener). بالتالي، فهو يتساءل: «هل كانت تلك هي الطريقة التي لجأت إليها پاتسي لتقول e-gads كانت كاشفة بذلك عن رغبتها في تغيير حقيقة أن جون بينيت كانت تكبر؟...⁽¹⁹⁾ E-GADS! ... من أين جاء ذلك؟...»

المجموعة التالية من التفسيرات الخاصة بالمعاني اللاواعية قد تشكل الحجة الدامغة على طب نفسي فَقَد عقله (رغم أن من الصعب إصدار حكم كهذا على مثال واحد فقط من بين الأمثلة التي يحفل بها الكتاب). يعتقد هودجز أنه قد وقع على منجم للذهب بتحليله القائم على تداعيات حرة جامحة لرسالة طلب الفدية. رغم وجود ذهب «في مكان ما من تلك الهضاب»، إلا أن معظم ما عثر عليه هودجز ليس سوى بيريت الحديد iron pyrite النقي (ذهب الحمقى).

من منظوري الخاص، مثلاً، تشكّل الأحرف S.B.T.C، التي وُقعت بها رسالة الفدية، إحدى الدلائل المبطنة الممكنة في هذه الرسالة، لأن هذه الأحرف كان يفترض بها أن تمثل الجماعة «السياسية» التي قد تكون اختطفت جون بينيت. قبل أن

(18) المكان نفسه، 81 الأقواس مُضافة

(19) المكان نفسه، 143

أُشرع في عرض التحليل الأكثر منطقية لهذه الأحرف كما قدّمه هودجز، سأوضح لكم درجة الحماسة والانفلات التي يمكن أن تنحدر إليها الأمور في غياب طريقة منهجية.

يقول هودجز أن باتسي أو جون رامزي ربما وضعاً تلك الأحرف، S.B.T.C، كما خطرت ببالهما دون تفكير، أو أن الأحرف يمكن أن تكون قد اختيرت بشكل عشوائي. ثم يضيف: «هناك أمر واحد أكيد، وهو أن الأحرف S.B.T.C جاءت من أعماق العقل». حتى الآن يبدو الأمر معقولاً - ربما. هنا يأتي هودجز بما يجعله موضع حسد أكثر الفصامين عصائية، فهو يقول إن باتسي، نظراً لأنها كانت تصارع مرض السرطان «يصبح من المنطقي أن تنتهي رسالة طلب الفدية بحرف C كبير بما أن مرض السرطان cancer معروف باسم ⁽²⁰⁾ The big C ثم يمضي قائلاً إن حرفي T.C. يمكن أن يكونا رمزاً لكلمتي The Cancer. كما يقترح بعد ذلك أن الأحرف S.B.T.C يمكن أن تمثل عبارة يفترض هو بأنها: «قَتَلَهَا السرطان» Slain By The Cancer. هل يمكن تصديق ذلك حتى في أقصى شطحات الخيال؟ ... يقول بعد ذلك إن كلاً من الأحرف S.B. و T.C. يمكن لهما أن يمثلأ أيضاً عبارة «السرطان ابن الساقطة Son of a B - The Cancer. هناك عبارة أخرى محتملة وهي: أنقذَها السرطان Saved because of the cancer، وذلك لأن مرض

السرطان، في البداية، كان قد فتح عيني باتسي على العالم الآخر وعلى أمور أخرى مهمة»⁽²¹⁾.

يضيف هودجز، فوق كل ما سبق: «حرفا S.B. هما تعبير عامي شائع يقصد به «S.O.b»، وهو تعبير يحمل عدة معان. فالناس يستخدمون هذا التعبير عندما يجدون أنفسهم في ورطة، وإذا استُخدم للتحقير فهو يعني ابن امرأة ساقطة، أو إذا لم نلتزم بحرفية التعبير، طفل امرأة ساقطة». إن حرفي S.B. حسب المعلومات المتوفرة لدي، لا يُستخدم كاختصار للتعبير S.O.B، على الأقل، ليس في الولايات المتحدة (لقد تحققت من زميل لي في المملكة المتحدة. أجبني بأن هذه الصيغة المختصرة لا تُستخدم، حسب ما لديه من معلومات، في بلاده أيضاً).

رغم أنني أعتقد أن هودجز تجاوز حدود المنطق في تحليله النفسي لباتسي، إلا أنني أثق بصحة كلامه عندما يقول عن أحرف S.B.T.C «لا شك بأن الأحرف تحمل مغزى ما بالنسبة لباتسي رامزي». مرة أخرى نرى أن الأمر يبدو معقولاً حتى هذه اللحظة. لكنه يقول بعد ذلك: «بالنظر لكونها فنانة، فإن باتسي تميل إلى إخفاء رسالة خاصة ضمن أشكال التواصل التي تلجأ إليها، وبخاصة لدى نهاية حدث ما لأنها مرهفة الإحساس تجاه حالات الانفصال»⁽²²⁾. إن استخدام تلك

(21) المكان نفسه، الأقواس مضافة

(22) المكان نفسه، 77

الأحرف يمكن له أن ينطبق على جون رامزي أيضاً (وربما على آخرين من معارفها) أيضاً. أعتقد أن هودجز الآن يتجاوز الحدود مرة أخرى، ففي مسعاه لجعل الجنس gender في عبارة (ابن الساقطة) ينسجم مع تفسيراته، نجده يقول: «ربما تحاول باتسي أن تكشف... أنها قامت بتحويل جون بينيت إلى شخص مذكّر وذلك بهدف اكتساب القوة - لقد حوّلت ابنتها بشكل رمزي إلى ابن، وهو ما ينسجم مع النهاية التي تحبس الأنفاس لرسالة طلب الفدية»⁽²³⁾. لا شك بأنها تحبس الأنفاس.

علاوة على ذلك، يدّعي هودجز أن «الحرفين T.C. يمكن أن يشير إلى T.L.C. (عناية مُحبّة رؤوفة Tender Loving Care)، الأمر الذي يناقض تماماً معنى S.B.». انتقلنا هنا من S.B. التي تعني S.O.B. إلى T.C. التي تعني T.L.C.؟... يقول هودجز: «ربما تحاول باتسي أن تكشف هنا الجانب الآخر منها، الأم الطيبة. الانقسام S.B./T.C. قد يمثل انقسام باتسي ما بين الأم الشريرة والأم الطيبة، نرى هنا الجانب الشرير يسبق الجانب الطيب». إذا تصورت أن ذلك «يحبس الأنفاس»، فإن ما سيأتي لاحقاً يُعتبر مبهرجاً لدرجة الفحش، بكل ما تعنيه الكلمة: فبالنسبة لهودجز، «حرفا T.C. لا يعتبران بعيدين عن T.S. (Tough S)». غير بعيدين عن T.S.؟... - ماذا تقول؟!... ثم يضيف قائلاً: «للدلالة على إمكانية أن يكون تفسيره صحيحاً

T.C. هو تعبير شائع يوحي باعتراف باتسي بأن الحياة كانت قاسية على جون بينيت (وعليها هي أيضاً). قد تكون تلك هي النظرة التي ترى باتسي فيها مرض السرطان الذي ابتليت به T.S.، بالتالي أنزلت بجون بينيت المصيبة ذاتها». أعترف أنني أعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة.

إن كل ما سبق لا يعدو كونه التفسيرات النفسية التي وضعها المؤلف للجزء الطافي فقط من ذلك الجبل الجليدي من المعاني اللاواعية، كما أن تقديم المزيد من الأمثلة سيعقّد الأمور لدرجة لن تصدقوا بعدها أنني لا أظلم المؤلف. إن بعض التداعيات التي يذكرها يمكن أن تكون صحيحة عند مستوى لا واعي عميق، لكننا لا نستطيع حتى أن نبدأ بالتحقق منها إلا عن طريق أكثر التداعيات الحرة جموحاً. تلك هي المشكلة. أكرر هنا أنه في ما يتعلق برسالة طلب الفدية، فإنني على قناعة، شأن هودجز، بأن هناك معنى خفياً يكمن في أعماق العقل اللاواعي للكاتب. لكنني أختلف مع هودجز في طريقة إبراز هذا المعنى للعيان، فطريقتي تقوم على أساس اللغة العادية. (تراني أكشف هنا بأنني أعتقد أن باتسي هي القاتلة؟...)

يتابع هودجز تفسيره للأحرف S.B.T.C.، لكنه يستبعد ما أعتقد أنه يشكل أهم نقطة في ما يخص تلك الأحرف. يذكر هودجز أن مقر جون رامزي خلال الحرب العالمية الثانية كان في مركز التدريب Sobic Bay Training Center، التي تشكّل

الأحرف الأولى من اسمه S.B.T.C، لكن هودجز يصرف النظر عن هذه الملاحظة لأنها برأيه لا تحمل مغزى حقيقياً. الواقع أن المغزى المبطن لهذه الأحرف هو أنها متوافقة أكثر من اللازم مع اسم المقر. هذا لا يوحي بالضرورة أن كاتب الرسالة هو جون أو باتسي رامزي، لأن أي شخص يعرف التاريخ العسكري لجون يمكن له أن يستخدم تلك الأحرف بشكل واع أو غير واع. إلا أن ذلك يحمل إيحاء قوياً، إضافة للمواد المبطنة التالية (أنظر في ما يلي)، بأن من كتب (أو كتبوا) الرسالة لم يكن غريباً عن العائلة.

لكن هودجز في النهاية يقدم تحليلاً للأحرف الأربعة S.B.T.C. أعتقد بأنه يحمل إمكانية - أؤكد هنا على «يحمل إمكانية» أن يكون ذا مغزى. يبدو أن أحد المقاطع المفضلة لدى باتسي من إنجيل King James هو المزمور رقم 118. خلال معركتها مع مرض السرطان، كان من المعروف عنها ترادها لبعض المقاطع من ذلك المزمور عندما كانت تصلي طلباً للعون من الله. بالإضافة لذلك، كان المزمور موجوداً ضمن كتاب يحكي عن علاج السرطان كانت تقرأه باتسي. يشير هودجز إلى أن أحد المقاطع المفضلة لدى باتسي كان: «الرب هو الإله، وقد «أنار لنا، أوثقوا الذبيحة برُبُط «إلى قرون المذبح». (العدد 27). برأي هودجز أن أول جانب مهم من هذا المقطع هو عبارة «أوثقوا... برُبُط»، وهو الأسلوب الذي رُبِطت به جون بينيت، يمكن هنا ترجمة أحرف S.B.T.C، بصورة ليست

بالضرورة دقيقة، ليصبح معناها Sacrifice Bound (with) the cords، (الذبيحة موثقة برُبط)، رغم أن هذا الجزء من التفسير يمكن اعتباره نوعاً من المبالغة.

قبل الأحرف الأربعة S.B.T.C، في رسالة طلب الفدية، جاءت هناك كلمة «النصر» Victory. هنا أيضاً نرى هودجز ينزلق دون وعي في كافة اتجاهات التداعيات الحرة القائمة على التحليل النفسي. فهو يرى أن كلمة «النصر» تكشف عن شعور باتسي الخفي بالانتصار على السرطان، كما يشير هودجز مرة أخرى إلى المزمور رقم 118، المفضل لدى باتسي، الذي يضم في بعض الترجمات كلمة نصر («الآن قد نصرني الله»)⁽²⁴⁾. يقدم لنا هودجز أكثر من ست تداعيات أخرى لكلمة «نصر».

إن ربطه لكلمة «نصر» بالمزمور رقم 118 يبعث على الاهتمام من جهة المعاني المبطنة، وبخاصة إذا أخذنا بالاعتبار مبلغ الفدية المطلوبة وهو 118,000 دولاراً لكن هودجز يغفل عن ملاحظة رابطة أخرى يمكن لها أن تصل ما بين الأحرف الأولى من مركز Subic Bay وبين شخص له معرفة وثيقة بتاريخ جون العسكري: خلال الحرب وبعد الحرب، كان نوع السفينة التي كانت تتمركز في Subic bay يدعى Victory ships.

الجانب الثالث الذي يثير الفضول في ما يخص المزمور رقم 118 يتعلق بالمعاني اللاواعية للأعداد (انظر الفصل

(السابع). فكما كان رأيي أن استخدام الأحرف S.B.T.C، وهي نفس الأحرف الأولى من اسم Subic Bay Training Center، كان متوافقاً أكثر مما يلزم لكي نتجاهل معناه المبطن، أرى الآن أن رقم المزمور 118، وهو نفس الرقم المطلوب للفدية 118,000 دولاراً، متوافق أكثر مما يلزم لكي نتجاهل معناه المبطن، وبخاصة إذا أخذنا بالاعتبار أن جون رامزي كان قد نال علاوة في تلك السنة بلغت 118,000 دولاراً. إن مبلغ الفدية المطلوبة وهو 118,000 دولاراً، شأنه شأن الأحرف S.B.T.C، يوحي بقوة أن من كتب (أو كتبوا) الرسالة لم يكن غريباً عن العائلة. لدى ملاحظة هودجز مغزى مبلغ الفدية، 118,000 دولاراً، ورَبَطه له مع رقم المزمور 118، يبدو وكأنه بدأ يدرك هذه النقطة بشكل صحيح. لكن اتهام باتسي رامزي، على هذا الأساس، بأنها القاتلة يبدو أشبه بقفزة في الفضاء السحيق (رغم احتمال أن تكون متورطة بشكل أو بآخر في كتابة الرسالة).

سأفترض الآن، على أساس طريقتي القائمة على الإصغاء العميق لتحليل الأرقام، أن الأعداد الأخرى في رسالة طلب الفدية تحمل مغزى هي الأخرى. هناك دليل آخر يقوم على أساس الإصغاء العميق يمكن أن يحمل مغزى وهو إضافة الصفرين الأخيرين لدى كتابة مبلغ الفدية 118,000,00 دولاراً، لم يُكتب الصفران في الرقمين المذكورين المرتبطين بالمبلغ: 100,000 دولار و 18,000 دولار. أستطيع أن أخمّن هنا أن كلاً من الرقمين 100 دولار و 20 دولار، اللذين يشيران إلى الفئتين

اللّتين يجب أن تُدفع بهما مبلغ الفدية، والرقمين 8 Am 10 اللذين يشيران إلى التوقيت، يحملان أيضاً مغزى مهماً. لا أستطيع في غياب معلومات كافية سوى أن أخمن، بناء على تجربتي الخاصة بكيفية استخدام الأعداد المبطنة، بأن ما يلفت النظر هنا هو تقسيم كل مجموعة من الأرقام (بواسطة فواصل توقّف وفواصل عشرية) إلى مجموعات من أعداد (3) وأعداد (2) باستثناء العدد (8).

على أساس تحليلي السابق للمعاني العميقة للأعداد، أود أن أضيف هنا أن التقسيم إلى مجموعات من الأعداد يشير إلى الكيفية التي تجري بواسطتها الإشارة إلى عدة أشخاص، كما أنه قد يبين جنس الأشخاص الذين تجري الإشارة إليهم بواسطة الأعداد. في الرقم 18,000,00 دولار، مثلاً، عدداً (1) في الرقم «(8) 11» يشيران غالباً إلى شخصين من نفس الجنس، بينما يشير العدد (8) إلى شخص من الجنس المعاكس. الأصفار (التي تعكس مجموعة من ثلاثة ومجموعة من اثنين) قد لا تشير في الغالب إلى شيء بما أنها مجرد «أصفار» أو أنها قد تعني مجموعة أخرى من الأشخاص الذين يتمتعون بأهمية ضمن تفكير كاتب الرسالة. يمكن تطبيق التحليل ذاته على الأعداد الأخرى المذكورة (انظر الفصل السابع). تتبدى أهمية هذه الأعداد في أن بإمكانها تقديم مجموعة محسوسة من الدلائل التي تقدم بدورها، في حال تم فك رموزها بشكل صحيح، قالباً يكشف عن مجموعة متماسكة متسقة من المعاني اللاواعية

التي تساعد على التأكد من تلك الأرقام بشكل ذاتي مع احتمال التأكد أيضاً من التحليلات المبطنة انطلاقاً من الكلمات والعبارات.

ضمن أفضل الشروط، يعتبر تحليل أو تفسير المعاني اللاواعية «دلائل» ممكنة لا أكثر، وليس دليلاً جازماً كما يفعل هودجز. لا شك بأنكم تتذكرون ما جاء في الفصل السادس (بشأن الحذر وحلم و. ج.) من أنه حتى فرويد كان يدرك حدود تفسير المعاني اللاواعية. عندما يجري تفسير المعاني اللاواعية بموجب منهجية منظمة، فإن بإمكان تلك المعاني أن تقدم عوناً كبيراً في حل المشاكل أو في توفير «الأدلة»، تماماً مثلما يستخدم التنويم المغناطيسي حالياً في التحقيقات الجنائية. في معظم الولايات تقريباً، لا يُسمح بضم الأدلة أو المعلومات الأخرى، التي تأتي عن طريق التنويم المغناطيسي، إلى الإجراءات القانونية في المحاكم. مع ذلك، فإن لتلك المعاني اللاواعية قيمتها فهي تؤدي للحصول على دليل يمكن التحقق منه بشكل مستقل (عن طريق التنويم المغناطيسي) واستخدامه في جلسات المحكمة.

إن التفسير الرمزي أمر بالغ السهولة، تلك هي المشكلة. إنه بالغ السهولة. هناك، لسوء الحظ، كتاب كثيرون، منهم هودجز والكاتبة التي سأحدث عنها في ما يلي، فرانسيس كريست ويلسنغ، ممن يوافقون على «تفسيرات» تحمل معانٍ لا واعية لا أساس لها.

النصب الأبيض في واشنطن

المثال الأخير على «كيفية تَجَنُّب القيام» بتحليل أشكال التواصل اللاواعية أو المبطنة هو كتاب بقلم فرانسيس كريست ويلسنغ، وهي طبيبة نفسية سوداء «من المدرسة الفرويدية». عنوان الكتاب «أوراق إيزيس»⁽²⁵⁾. Isis papers قبل أن أغامر بالتورط في التفاهات الرمزية لهذا الكتاب، يتعين علي تقديم بعض الملاحظات. تستعيد الكاتبة بشكل صحيح التاريخ الواضح للتحامل وللنماذج النمطية التي يحملها البعض في ما يخص الأمريكيين الأفارقة في الولايات المتحدة الأمريكية. مأخذي على الكتاب ليس عنصرته الصارخة بل تحليله الساذج (وأنا أستخدم هذه العبارة متعمداً)، الذي يُعتبر نموذجاً لسوء الحظ، للمعاني اللاواعية. إنه يجعل كتاب هودجز «أم تفقد طبيعتها» يبدو بالمقارنة كتاباً جيداً. ليس تماماً.

تؤكد الكاتبة أن هناك صرحاً بارزاً أبيض اللون يقوم في وسط مدينة واشنطن ذات الغالبية السوداء، يُدعى صرح واشنطن⁽²⁶⁾. ثم تضيف أننا إذا نظرنا إلى صرح واشنطن من زاوية معينة ومسافة معينة يبدو كما لو كان موجوداً قرب النصب التذكاري لجيفرسون الذي يضم شكل قُبّة، أي أن المنظر يبدو كالأعضاء الذكرية⁽²⁷⁾. تلك هي البداية فقط.

(25) ف.س. ويلسنغ، أوراق إيزيس (شيكاغو: نيرد وورلد پرس 1991).

(26) المكان نفسه، xii

(27) المكان نفسه، 111

تري المؤلفة أن معظم ألعاب «الكرة» ball تعبّر عن هذا القلق الذي يشعر به البيض جراء خوفهم من خطر الإبادة الوراثية. فالكرة الكبيرة البنية اللون في لعبة كرة القدم الأمريكية، يجري ركلها إلى الهدف، الذي يمكن اعتباره امرأة بيضاء⁽²⁸⁾. هناك ما هو أكثر، فهي تخبرنا بأن الكرات البيضاء المستخدمة في الألعاب، عادة ما تكون صغيرة (كما في لعبة الغولف مثلاً)، بينما تكون الكرات البنية أو السوداء، أكبر حجماً⁽²⁹⁾.

إن الدافع اللاواعي وراء الألعاب التي تستخدم كرات بيضاء أو بنية يرمز إلى محاولة السيطرة على المادة الوراثية السوداء. هذه الألعاب تعكس رد فعل البيض حيال هذا الخوف بحيث تُمثل تلك الألعاب ضمناً (أي رمزياً) اللعبة الواضحة التي يسيطر بموجبها البيض في كل أنحاء العالم على الشعوب الملونة. أي أن السيطرة على الكرات السوداء أو البنية هي تعبير لا واع عن خوف البيض من الإبادة الوراثية وعن رد فعلهم الدفاعي عبر السيطرة الشاملة على الشعوب الملونة. تذكر ويلسنغ هنا أن معظم اللاعبين في الألعاب التي تُستخدم فيها كرات سوداء أو بنية هم سود، لكنها تقول أن ذلك لا يضعف من حجتها لأن السود لم يشكلوا دائماً العدد الأكبر من

(28) المكان نفسه، 137

(29) المكان نفسه، 134

اللاعبين، ولأن الفِرَق، على أية حال، يملكها ذكور بيض.

ماذا بشأن الألعاب التي تُستخدم فيها كرات بيضاء، مثل لعبة البليارد pool مثلاً؟... كلنا نعرف أن آخر كرة يجري إخراجها من الطاولة هي كرة سوداء وأن آخر كرة تبقى في مكانها هي كرة بيضاء. وماذا بشأن ألعاب من نوع البولينغ bowling، التي يلعبها البيض غالباً ويستخدمون فيها كرة سوداء كبيرة في رمي قوارير بيضاء، ألا يشكل ذلك تناقضاً؟... بالنسبة لويلسنغ، لا يشكل ذلك تناقضاً ويكمن السبب في انه ضمن أسلوب كهذا «لتفسير» المعاني اللاواعية، يمكن تبرير أي شيء. فبالنسبة لها «لاعب البولنغ الأبيض يعتبر نفسه سيداً ومالكاً للكرة السوداء الكبيرة، بالتالي فهو يتحكم بالأذى الذي تلحقه بالذكر الأبيض (القوارير البيضاء)»⁽³⁰⁾. كفي عن المزاح أرجوكم.

تلجأ ويلسنغ إلى ذات الأسلوب في المناقشة للحديث عن جين غودال ودايان فوسي، وهما عالمتان من البيض اشتهرتا بدراسة حيوانات الشمبانزي والغوريلا، التي تُعتبر بشكل لا واع بأنها تمثل السود. تقول الكاتبة أن غودال وفوسي تُشكّلان في اللاوعي حلفاً مع هذه المادة الوراثية (السوداء) القوية⁽³¹⁾. إلى أي حد يمكن للإنسان أن يكون عنصرياً؟...

(30) المكان نفسه، 136

(31) المكان نفسه، 66

ضمن منظومة التفكير لدى ويلسنغ، سواء كانت الكرة بيضاء أم سوداء، فهي الراححة. مثال آخر كانت فيه «هي الراححة» وهو تحليلها للسترة السوداء الرسمية التي يرتديها الرجال tuxedo: فرغم أن «الذيول» تتدلى إلى الخلف إلا أنها تبقى، مع ذلك، رموزاً جنسية⁽³²⁾. ضمن أسلوب ويلسنغ في التفسير، لا أعتقد أن بإمكان الأرنب باغز بوني أن «يأمن» على نفسه.

من الواضح أن ويلسنغ لم تسمع مقولة فرويد: «في بعض الأحيان، السيجار لا يعني أي شيء سوى السيجار (بالمناسبة، لا تفوت ويلسنغ الفرصة لتقول أن الرجال البيض يحبون تدخين أنواع السيجار الكبيرة البنية أو السوداء). فرانسيس ويلسنغ لا تمزح. إنها جادة لأقصى درجات الجد.

يبدو أن ويلسنغ تعتقد أن الرجال البيض لا يغارون فقط من القوة الجنسية للسود، بل إنهم يعانون أيضاً شعور الغيرة من الميلانين Melanin Envy. الميلانين، طبعاً، هي المادة التي تتوافر لدى الملونين أكثر من البيض، وهي تحمي الجلد من أشعة الشمس. لكن الميلانين، برأي ويلسنغ، لها وظائف أخرى. تؤكد ويلسنغ، الطبيبة، أن السود قادرون على تفسير الرموز بشكل أفضل من البيض لأن أجساد السود تحوي كمية أكبر من الميلانين «ومادة الميلانين بإمكانها امتصاص طيف

أوسع من ترددات الطاقة أو من المعطيات... الأشخاص الذين تحوي أجسادهم قدراً أكبر من الميلانين يتمتعون بحاسة سادسة، وهي منظومة إحساس إضافية تنشأ عن خضاب الميلانين، بينما يمارس الغريون حياتهم بخمس حواس فقط»⁽³³⁾ ماذا يمكنني أن أقول عن كل ذلك سوى أن ويلسنغ تقدم لنا، في واقع الأمر، مثلاً تدريسياً كاملاً عن أسلوب تفكير عصابي منغلق على نفسه.

تشيد ويلسنغ صرحاً عرقياً منيعاً لحماية تفسيراتها الخيالية للمعاني اللاواعية من البيض، الذين جعلتهم عاجزين من الناحية الوراثية نظراً لافتقارهم لخضاب الميلانين، ومن السود الآخرين الذين يخالفونها الرأي. لكن في حال معارضة السود لها، فإن ذلك يعود لعملية غسيل الأدمغة التي تعرضوا لها على يد البيض. غير أن الإنصاف يقتضي مني القول أن التاريخ لم يخل أيضاً من أطباء نفسيين بيض قاموا بنسج خيالات «علمية» من هذا النوع. فمنذ فجر علم النفس المنظم، الذي بدأ مع بنيامين راش (أحد الموقعين على وثيقة الاستقلال) في القرن الثامن عشر، مروراً بالطب النفسي النازي العنصري في القرن العشرين، لم يكن التعصب العرقي أمراً نادراً. لكن ذلك لا يبرر نشوء أنواع جديدة منه. أود القول أخيراً أنه حتى ولو كانت جميع تأكيدات ويلسنغ تحمل عنصراً من الحقيقة، الفكرة هي أننا

نحتاج إلى طرق منهجية للتحقق. نأتي الآن لبعض الكلمات الختامية المتعلقة بالتحقق من الإصغاء العميق.

الطريقة والمعنى

كما سبق وأوضحت، يجري اختيار كلمة ما أثناء الحديث على مرحلتين. المرحلة الأولى، بما أن الكلمات تحمل معانٍ متعددة، يقوم دماغنا باستعراض كل المعاني الممكنة التي نعرفها للكلمة. ثم يقوم دماغنا، انطلاقاً من سياق النقاش، باختيار المعنى المناسب المفترض للكلمة ضمن السياق الذي يجري استخدامها ضمنه. يبدو أن ما يقوم به كلٌّ من هودجز وويلسنغ هو الافتراض بأن جميع المعاني الممكنة للكلمة تحمل مغزى ضمن نفس السياق. باختصار، هذا أمر يدعو إلى السخرية.

المثال هنا هو التدايعيات الحرة التي خطرت ببال هودجز بشأن الخطأ في تهجئة كلمة bussiness ليتوصل منها إلى bus، bustle, bust ليستنتج في النهاية كلمة kissiness. هناك أيضاً مثال قيامه بربط كلمة possession، التي كُتبت بشكل خاطئ، بكلمة pose، وهو ما كانت تقوم به باتسي رامزي وابنتها في حفلات عروض ملكات الجمال، ومن ثم رَبطها بكلمة posse، ليستنتج أن باتسي كانت تعرف بأن جماعة إقرار النظام كانت تبحث عنها. هل يُعقل هذا؟...

بإمكاننا أن نرى الآن أن تحليل المعاني اللاواعية دون منهج هو أشبه بلغة دون قواعد. إن القواعد، أي تركيب الجُمْل، هي

التي تخلق المعاني في اللغة لا مجرد الكلمات أو الدلالات اللفظية. دون تركيب الجمل لا تقدم لنا الكلمات سوى هراء يعتمد على الصدفة في معظمه. هناك ما هو أسوأ، إن هذا يوصلنا إلى استنتاجات خطيرة. فبعض الأمثلة على المعاني اللاواعية و «زلات» التصرف في هذا الفصل تُعتبر على الأقل، مثيرة لدى تحليلها والتفكير بشأنها والتساؤل حول مغزاها المحتمل فيما يخص حياتنا اليومية. لكن، وكما حذرنا مراراً في الكتاب وبخاصة في الفصلين السادس والتاسع، علينا أن نلزم جانب الحذر الشديد قبل أن ننسب إليها معاني أكثر مما ينبغي.

رغم أن المحرّضات stimuli اللاواعية (لاحظوا أنني لا أقول هنا المحرّضات «المقصودة» بشكل لاواع) والعمليات المعرفية والتعبيرات المبطنة المُشتقة من تلك المحرّضات، قد تُبدي بعض الظواهر النفسية الفعّالة، إلا أن ذلك لا يستتبع بالضرورة كونها مقصودة بشكل لاواع. كما أن ذلك لا يستتبع أيضاً أن «المعاني» تتضمن أي مغزى واع بالنسبة للشخص الذي يتفوه بها وذلك في ما يخص آراءه أو أفعاله. المعاني من هذا النوع قد لا تعكس سوى أليتنا المعرفية الأوتوماتيكية وهي تقوم بعملها.

أكرر أنه حتى فرويد كان يعي الفرق بين ما كان يدعوه بالحقيقة النفسية psychical reality والحقيقة المادية material reality. إذا أجرينا قياساً تمثيلاً هنا يبرز السؤال التالي: هل نعتبر شخصاً ما مسؤولاً وتقوم بتحديد صفاته كإنسان على أساس محتوى أحلامه الليلية؟... وحتى مع وجود المنهج

التفصيلي الذي قمت بتطويره لتحليل المعاني المبطنة، فإن الهدف من هذه الطريقة ليس تسهيل إلقاء المسؤولية الفعلية على المتحدث بسبب ما قاله بل تحليل وفهم الآلية المعرفية الكامنة في أساس اللغة المحكية. أعود لأكرر أن هذه النقطة بالغة الأهمية، وهي النقطة التي تجاهلها كلياً تحليل كل من هودجز وويلسنغ للمعاني اللاواعية.

عودة إلى مستقبل الإصغاء العميق

ماذا يخبئ المستقبل للإصغاء العميق؟... لا شك بأن الأمر يتطلب القيام بالكثير من الأبحاث حول المعرفة المبطنة واللغة المبطنة. رغم أنكم صادفتم في هذا الكتاب كثيراً من العمليات الذهنية التي يقوم بها العقل ليكشف بشكل مبهم عن معان خفية، إلا أنني لم أكشف سوى عن جزء يسير جداً فقط وذلك في ما يتعلق بشرح مجموعة أكبر من العمليات المعرفية التي يستخدمها العقل دون أن ندري بوجودها. إن اكتشاف المزيد من تلك العمليات سيساعدنا على أن نفهم بشكل أفضل الطريقة التي يعمل بواسطتها العقل.

كما لاحظتم أيضاً، في ما يخص تقييم الهدف الذي قد يبدو كامناً خلف الكلام العميق للشخص، يتطلب الأمر القيام بالمزيد من الأبحاث الدقيقة كي لا ننسب معنى مقصوداً (قصد عرقي، مثلاً) حيث لا يوجد هذا المعنى. أخيراً، وكما بينت باختصار في الفصل الخامس، يجب إجراء أبحاث تتعلق

بإمكانية وطريقة استخدام الكلام العميق لأغراض علاجية.
إن الإصغاء العميق، حتى بشكله الحالي، لن يتوقف عن
كونه نافعاً ضمن سياق الإصغاء إلى الأصدقاء ووسائل الإعلام
وزملاء العمل.